نحو آفاق أوسع - ٢

المراحل التطورية للإنسان

الدين في الهند والصين وإيران

أبكار السقاف



أبكار السقاف

نحو آفاق أوسع ـ ٢

المراحل التطورية للإنسان

الدين في الهند والصين وإيران



Arab Diffusion Company

نحو آفاق أوسع ـ ٢

المراحل التطورية للإنسان

الدين في الهند والصين وإيران

أبكار السقاف



ص. ب. 113/5752 ر. ب. 2070 1103
Email: arabdiffusion@hotmail.com
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى ٢٠٠٤

المحتويات

الفصل الأول: الدين في الهند

الفصل الثاني: الدين في الصين

الفصل الثالث: الدين في إيران

الفصل الأول:

الدين في الهند

الدين على هذه السفوح، الشامخة القمم الهاوية الأودية المنبسطة السهول المُتضوِّعة الأرجاء بأريج الإرهاف، تاريخ سجّله العقل الإنساني بعنصرين مختلفين...

استهل التسجيل بذلك الفرع الذي انسلخ، في ليل ما قبل الألف الخامس ق.م، عن دوحته القاطنة أواسط آسيا، وهبوط فرع منه الجنوب من الفرات، هبط هو الأعالي من الأندوس ناشراً على ضفتيه وفي أوديته حضارة زهت بألوان تطل علينا من أطلال وخرائب «هارابا» وفي تلك الديار التي عجّت به حياً وعليه أضحت علماً ميتاً، دار الموتى «موهانجادارو» حيث تطالعنا غير باهتة منها الألوان لنستخلص أن امتداد الحضارة السامرية الأولى امتدت هذه الحضارة الأولى التي أتت فيما قبل الفتح الآري ونعرفها في سجل التاريخ تحت اسم «الدارفيدية»...

وواصل العقل الإنساني التسجيل بذلك الفرع الممتد من الدوحة المتصفة بالإعراق بين فروع كانت تمتد من البقاع الواقعة من الراين إلى قزوين، حيث انتشرت قبائل يطويها من جنح التاريخ طوايا الغابات وضفاف الأنهر وفيها في رُكب الحياة تعيش محكومة، وشرائع النيل والرافدين تُشَرَّع، بما قد استنّت حياتها الاجتماعية لها من شريعة.

بين فروع هذا العنصر وحّدت العادة ووحد التقليد فلا اختلاف بين هذه القبائل المنتشرة المتكلمة لغة متجانسة إلا في اللهجات، فحياتها حياة اجتماعية تختلف كل الاختلاف عمّا قد عهدنا في حياة المجتمع القَبليّ الساميّ...

كلا... كالمجتمع الساميّ القبليّ لا يعيش المجتمع الآري القبليّ فلا مخايم للقبيلة الواحدة حول «بيت الرب» تلتفّ فتلتف حول رياسة معقودة لأبي القبيلة من يقف، تحت صفة الكهانة، ظلاً على الأرض لرب يُنفِّذ باسمه أوامره، وإنما كل قبيلة آرية فمن الطين والخوص تلتف لها أكواخ حول من له الرياسة معقودة، مَنْ فيها يقف لا كاهناً وإنما قائداً ـ فالكاهن

نفسه في هذا المجتمع يلتفّ التفاف الجماعة حول بيت الزعيم الذي يقف، تحت صفة الأبوة، للقبيلة راعياً ولشؤونها متعهداً ومسؤولاً مسؤولية انتظمت في هذا المجتمع اشتراكية بين القبيلة الواحدة، فما عدا الشؤون الخصوصية فهو المالك للمرعى والأرض الزراعية في صالح الجماعة وأما النهر والغابة فمشاع...

هذه المسؤولية التي انتظمت النظام الاشتراكي في المجتمع الآري القبليّ هي التي سيعكسها العقل الإنساني في تفكيره الطبيعي والإلهي والتي ستكون باعثاً لعقيدة وحدة الوجود وعقيدة الأبوة الإلهية والرعاية السماوية والتي تجعل من الكاهن الحيّ للأب السماوي ابناً، والتي ستنعكس في تفكيره الديني، كما سنرى، عندما يبني على أسس تفكيره الإلهي أن «الواحد»، ليكون الكون، بنفسه قد اضحى! وعلى الإنسان بدوره للذي بنفسه قد ضحّى، يُضحي. من ثم قيامه يقدّم القرابين ويقيم، على هذه الأسس، الطقوس الدينية، التي بسببها تمتد شيئاً فشيئاً يد الكهنوت حتى تقوى قبضته فتقبض على الحكم السياسي وتُخضع لها الدنيا بوسيلة الدين!

أجل... منذ انتشر على هذه السفوح للآرية مجتمع بدأت الأزمان تطويه، انتشر العقل الإنساني ومن ظلمة التاريخ طلع يتعهد لهذا المجتمع دين به معه كان قد أتى في صورة الأناشيد من تسابيح وتراتيل وأوراد وقيم أخلاقية في صيغ الكتابة إلا وسجلته شريعة في ذلك السجل الذي أُلحقت به سجلات له تشرح، والذي كان يسير به عهد ودين باسمه طيلة القرون التي راحت عنه له مسطراً، من القرن الخامس عشر حتى القرن العاشر ق.م، حتى جمعه وإليه أضاف السجّلات الأخرى الثلاثة يُصفِّح بالتنزيل صفحاتها، ويُحوّل فقراتها إلى آي... صحف، بأوراقها يهوِّم الوحي، ناولها المجتمع تناولها صحفاً باللغة الفصحى قد كتبت، فغلفها من العقل الجماعيِّ دوي، بسببه تحدّرت منذ ذاك العهد حتى هذا العهد «كتاباً مقدّساً» من معاني اسمه معنى الإفادة: ال «فيدا» «كتاب مقدّس» الفيدا به يطالعنا:

الدين الفادي والتفكير الديني في العصر الفادي

لما يضم هذا «الكتاب» من مجموعات أربع وردت فيها تباعاً، الأوراد التعبدية والأناشيد الدينية من التسابيح الكهنوتية، فتعاليم تلاوة الآي فطقوس الضحايا والقرابين، فالتعاويذ السحرية، وكل منها إلى أقسام ينقسم، ننشر ونستعرض خطوات العقل البشري في مراحله التطورية... بيد أننا بعد «السامافيدا» و«الياجور فيدا» و«الأتافار فيدا»، نعود فنتناول الجزء الأول الخاص بالكهنوت والمنقسم إلى أقسام عشرة، فنتناول: «ريجفادا»

من الريجفادا نستقي الدين الفادي باستسقائنا منه الشريعة، فالجوهر من «الفيدا» إنما الشريعة المعروفة لنا تحت اسم «قوانين مانو» فإن هذا الكتاب، الذي استهلته اليد في مطلع الألف والمائتين وانتهت منه حوالي القرن الخامس ق.م، يعطينا فكرة واضحة عن المجتمع الآري القديم الذي سيّج بالقدسية هذا الكتاب لما قد صاحب عنه الاعتقاد بأن القوانين فيه والعادات والتقاليد التي تتخذ أسسها وتستدير حول محور واحد هو «دهاما» أو الذمّة، إنما الأوامر والنواهي التي فرضها «ففاسبان» أو الرّب الشمس على «مانو» أبي البشر وأول إنسان...

إن المشاكل الدينية في غضون العهود الفيدية معقّدة تعقيد الإلهيات وهذه المشاكل المكوّنة لمشكلة النفس ونظرية الخير والشر والثواب والعقاب والقانون الأخلاقي وعقيدة التكليف سواء أكان هذا التكليف عن طريق الوحي الهابط والرؤيا والمكالمة أم عن طريق الوحي الصاعد والشفوف والإلهام تأتي إلينا لا على حدة وإنما ككل كما تعكسها صفحات هذا «الكتاب المقدّس» الذي له الأهمية التاريخية كأقدم سجلات التفكير الآري وأيضاً كأقدم سجلّ سيّجته القدسية واعتبر منزلاً لدين طابعه بين الأديان طابع التنزيل!

على صفحات «الريجفادا» تخترق الزمن حتى مطوي الزمن المنتشر على صفحاتها العاكسة لتفكير ديني استغرق من الزمن قروناً... وتطوينا من ليالي العصر الفادي ليالٍ في هدأتها نصغي إلى ما يضمه هذا الكتاب من تسابيح، تربو على الألف بثمانٍ وعشرين أنشودة، كترجيع من هذه الشفاه الكهنوتية تطلقها في العراء، لا حول بيت، إنما حول نار فيه تُلْقى الضحايا وترسل القرابين محرقات...

كهنوت، منه مستطلعين نقترب فيحدثنا عن ماضٍ له في هذا العنصر الذي في مجتمعه المنتشر الآن على هذه السفوح يقف ينتظم إلى جانب دينه الشخصي له ديناً، فحتى الآن لم تمتد للكهنوت على المجتمع السيطرة التي ستكون له من بعد عن طريق الطقوس...

ما زال الكهنوت في هذا المجتمع، المستهل الانتشار، يعيش لشؤونه الروحية يتعهّد وليس له من صفة إلاّ ما لكل فرد في طبقته الروحية التي تقف في المرتبة الثانية بعد الطبقة المحاربة ولكن كما تسير الأيام بهذا المجتمع الجديد، من حوالي القرن السابع عشر ق.م مقتربة من القرن الخامس عشر، وتشتد حاجته إلى توطيد سيادته على العنصر الأصلي لأهل البلاد ويجد أن ليس من وسيلة سوى إدماج الدين المسود في الدين السائد، نراه يخطو خطوة يبدأ بها بروزه على التاريخ فهو يتناول مجتمعه الجديد ويضم إليه المجتمع القديم عن طريق إدماج الدين المسود في الدين السائد بوحدة دينية فبلغ وحدة سياسية كانت الهدف الذي ظلّ إليه يسعى مدى قرنين من الزمن!

وبهذه الوحدة التي بدأ بها للهند عهد جديد لمرحلة جديدة في السياسة وفي الدين بدأ العقل الإنساني بهذا العنصر الآري يُسجِّل في سجل الأديان ديناً به يطالعنا تفكير كل الجدة جديد...

أجل... منذ أشرق بالعنصر الآري شرقي البينجاب وعلى السفوح دوّت السنسكريتية لغة وأظلّ الهملايا مجتمع جديد يظله تفكير إلهي لدين طبيعته وطابعه طبيعة وطابع العنصر البرونزي، والعقل إلى الفلسفة العقلية والروحية ترتحل به مدارج حداثة استهلها بتاريخ الوحدة السياسية... حدثاً كان فكانت الحكمة وكان العلم هما «السِحْر» ويداه تقدم القرابين وللطقوس تتعهد لمن قد حاكتهم قديماً منه المخيلة من أرباب، بينما شفتاه تهمْهم بأوراد يختتمها بصيغة يرى فيها السر الرابط بين هذه القُوَى أو الأرباب.. كلمة، هي الكلمة السرية الفعّالة التي، بفعل تأثيرها، كائن هذا الوجود. السرّ الرابط بين أجزاء الوجود بقوة مستترة!

صيغة، يرى فيها المعنى لشعور مُبْهم غامض، بشغفٍ يُراود منه المشاعر وإليه بمُبهم الفِكَر يأتي عن روح أقدس للوجود غامر!

في غامض أفق تفكيره تهبُّ عن هذه الفكرة غامض الفِكَر فيرى نفسه عقب كل تقدمة قرباناً وأنشودة صلاة وعقب كل شعيرة تُؤدَّى، تلفظها شفتاه كلمة تؤدي في لغته معنى البدء والسر المبهم والأول: «براهما»!...

أرهف مرهف أجواء البيئة الجديدة منه الحسَّ وإلى ما فيه من إرهاف عملت عوامل الطبيعة فوجد نفسه بالأسرار للمُبهم يُغلِّف وبالأسرار لنفسه يُغلّف فينعت نفسه الإنسان المقدس: «براهمان».

أجل... لقد مرّ بهذا التفكير قبل أن يمسك بقلم في يده يجمع عقائده الطبيعية والإلهية والدينية في ذلك السِجِّل الذي طاحت عنه الأجيال لآيه كاتباً ولأجزائه جامعاً.. ال «فيدا»...

من هذا الكتاب المُهوّم بأوراقه الوحي المنزّل يطالعنا العصر الفادي من حوالي (١٥٠٠ ـ إلى ٨٠٠ ق.م)، ومن هذا الكتاب نستوحي عقيدة العقل الإنساني يافعاً عن الصرح الذي يقوم في أرجائه الدين...

على صفحات «الريجفادا» مختلط في غير خلط تاريخ الإلهيات وعليها مزيج مسطّرة بسير من كانوا لحاضر تاريخه السياسي من السلف البعيد بُناة ـ بُناة ـ إلى مرتبة الربوبية رفع بعض ولهم بالقدسية حفّ لنرى على صفحة الذهن الجماعي قد حُفِرت صورة من يقف من بناة الماضي في الحاضر الأشدّ، رجل الحرب: «إندرا»

كالعاصفة يقف في الأفق الإلهي «إندرا» عاصفاً لا يصل إلى مستواه من إلى مستوى الربوبية سواه قد رُفع.. كل من سواه روح مبهمة مجرّدة لا تحصرها جسمية وإن حدّها المكان، كاليوم في فجره وغسقه، وكالنهار في شمسه، وكالليل في قمره، وكالفضاء في ريحه، وكوليد الحرارة في لهبه!.

أجل... تعدّدت على هذه السفوح أمام العقل البشري في آفاقها للطبيعة مظاهر وظواهر فتعدّدت الأرواح، وبتعدّدها تعدّدت القوى الكونية، وجرت يده تسجل في «الريجفادا» لهذه القوى الطبيعية أسماء..

جرت، والفجر في أفق الشروق مُتفجّر، فسطرت: «أوشاس» وإلى «سيدة الفجر» اتجه يرسل الأناشيد لها تحية... بيد أن هذه الأناشيد لا تتجاوز دائرة الأدب المستجيب لضغط المؤثرات الغريزية، ف «أوشاس» قط لا تقف في مخيّلته ربة بمعنى الكلمة وإنما تحت صفة أدنى من ذلك بكثير في قاموس الأخلاق!

أجل.. هناك قصص عن أوشاس قُصّت، وإلى جانب هذه القصص طقوس، بيد أن كل هذا تدفُّق شاعري دافعه من الجنس الغرائز، وبعيد كل البعد عن مصاف الطهر ومرتبة الألوهة تقف هذه الصورة التي ليس لعبادتها أية صورة دينية قط والتي سنرى لها بين حور الجنان، من بعد، فاتن صورة! وجرت يده وتدافعت بنسيم جارٍ فأجرت:

«فابو» واكفهر الأفق وتساقطت من الغيث قطرات فكونت: «بارجانيا».

وجرى سيلاً الماء فحفر: «أوباس» وبعد عاصفة حلّ سكون وانفرجت أسارير الفضاء عن شمس فرّقت حجب الظلم كحق أسفر بعد طويل ظلام وعدالة حقّت بعد طول ظلم، فأضاءت بين سطور الريجفادا: «سُرْيا»! وبسريا وعن سريا تتوهّج صحف الفادية، فسُرْيا ضوءاً على صفحات «الرجفادا» لا يغيب!

ولكن!... تقصر كل هذه الأناشيد، الجامعة بين المجاز والأدب، عن أن تكون إلا محض وصف للقوى الشمسية في نظام الطبيعة ورمزاً للعدالة وأما عن الألوهة ف «سُريا» بعيدة كل البعد!

أجل... كل هذه القِوى الطبيعية صور مبهمة غامضة صوّرتها يده بسطور الريجفادا لم يخلع عليها صفة الكائن الحي وإنما هي أرواح تحوّم في فضاء عاج بأرواح أخرى تقف في مرتبة من هؤلاء أدنى، كهذا الذي يذكره كلما هبط ليل، وانهار من اليوم نهار وقام، ليقيم الطقوس، يرسل لهبه على قمم السفوح ألسنة دوات: «أجنى».

كلا قطّ لم تُؤلّه النار وقط لم تُعبد النار على هذه السفوح فما هذه الكلمة التي لا

تتجاوز في اللاتينية معنى النار إلاّ كلمة تعني في السنسكريتية نفس المعنى ولا شيء قط من معاني الألوهة، وما اهتمام العقل الإنساني به، كاهناً وساحراً في مجتمعه الجديد، إلاّ كأساس يقوم عليه بناء دينه القديم القائم، كسائر أديان العصور البرونزية، على الضحية والقربان التي يلقيها في النار، فلا اهتمامه بأجنى ولا تغنّيه له بهذه الأناشيد التي تربو عداً على المائتين إلا لأنه يرى في النار رمزاً لمقامه على الأرض وصورة من نفسه معكوسة وروحاً تُمثّله، فأجنى إنما «الكاهن الأقدس» الحامل، على أجنحة لهبه، الضحية والقربان إلى مَنْ في السماء!

أجل... عن صفة الألوهة صفة «أجنى» قصيّة فمرتبته إنما تقف في مرتبة تساويها ـ أو تكاد ـ مرتبة ذلك الرحيق الذي، حمل «أجنى» القرابين والضحايا إلى العالم الإلهي، يحمله هو الكاهن إلى هذا العالم الإلهي.. ذاك الذي كان على الكاهن حتماً، إذا ما أشرق في أفق الشروق القمر بدراً واختلطت همهمة «أجنى» بحفيف «فابو» وآن آن الصلاة وقام في حلقات الذكْر ينتظم الدوائر، نَهْل جرعات يِمّن بالخيال سُمواً يسمو:

«سوما»، على «سوما» ألقت المخيلة الكهنوتية ما جعل تناول الخمر من التقاليد الدينية تقليداً متّبعاً لتأثير له عبّرت عنه بالنشوة الروحية فتغنّت به شراباً طهوراً، رحيقاً إلى الملكوت الأعلى يحمل على أجنحته العُبّد!

لـ «سوما» صاغت المخيلة الكهنوتية المحامد والتسابيح وبقواه الصوفية انطلق لسانها الشعري «فادياً» مادحاً له لعلل الجسد والنفس شافياً، ومرسلاً تغنيه في مسامع مجتمع حربي حصر اهتمامه وتفكيره سيرة البطل الشعبي إندرا، يُحدّث به شراباً جرى في أوصال إندرا وبتأثيره صال إندرا وأصلى!

تحت هذه الصفة قُدِّست الخمر وأحيطت «سوما» بالقدسية قبل أن يخطو اللاهوت الفادي خطوة تطورية أخرى فيدمج سوما في القمر إدماجاً إليه ساقه له استدلالاً لاحظ به أن الفروع الصفراء لنبات «السوما» تتفتّح في الماء عندما يغيب القمر... أمسى تحت هذه الصفة يضيء على هذه السفوح القمر، واستطاب الأدب الهندي هذه الصفة فجرى تعبيره بالوصف حتى تدريجياً غاب «سوما» اللاهوت الفادي ليشرق اسماً شعرياً «شنْدْرا» أو القمر! كل هذه القوى صور مبهمة غامضة صوّرتها يده بسطور «الريجفادا» تتراوح بين بطولة مؤلهة نمت في الكون وشاركت في عمله، ومُؤلّه ظواهر طبيعية في طبيعة تجلّت في إطار الزمن منسّقة الألوان منتظمة الأبعاد، الظل فيها والضوء أنغام منسجمة تتغنّى بالطبيعة وجوداً روحه النظام... وآلة هذا اللحن الخالد، خالد الحركة: «رْتَا»

كل شيء يتحرك، وبالحركة تسير بركبها مركبة الحياة... من ثم فحتماً وراء الظواهر والمظاهر مُحرِّك ـ منطق ـ سجل وجود: «سافيتا» ولكن «سافيتا» اسم يعني الحركة نفسها وقط لم يرتق إلى مرتبة الألوهة، وإنما وقف في موقف القوى الطبيعية المؤهلة في مرتبة الربوبية رباً، وروحاً بين العناصر المجرّدة عنصراً مجرّداً، لتقول المخيلة اللاهوتية إنه قوة مجهولة هو الحركة في «رتا» أو المنظم لعجلة الوجود، وتحت هذه الصفة غدا المُنتظم المُسيّر ذلك الثنائي: مترا وفارونا.

مترا وفارونا روحان مترادفان وربّان كما تحمل الكلمة من صحيح المعنى، نيط بهما حفظ قوانين السماء على الأرض، وإليهما عُهد تعهّد القوانين الأخلاقية وسحق الشر في أية صورة من صوره، ومن ثم كانت لعبادتهما صيغ والتزامات وتكاليف بلغت بها الهند أعلى مثال للروحية لقرون من الزمن، وأساساً صالحاً كانا للناحية الصوفية فيها في عهد نضوجها الفكري من بعد...

ولكن... بينما تشبّث التفكير الآري بوحدتهما على الهضبة الإيرانية حيث سنجدهما هناك، فإنه هنا بينهما قد فصلت يده اللاهوتية فأقامت فارونا لحكم الليل، وأقامت مترا لحكم النهار، وبهذا الفصل بدأ في سجلّ الزمن تلاشيهما فقد أصبح لفارونا، باتحاده بالليل، اسم صاحب الظلمة وذِكْر نفسه لأشباح الظلمة تذكير وتحت هذا الشعور أصبح لا يُذكر إلا ليُرهب، وبالتالي غدا اسمه صفة للنقمة والانتقام، وبدافع هذا الشعور دفعت عنها المخيلة الهندية فارونا ليبرز «مترا» في تيار التزاحم الكهنوتي والمذاهب المتضادة حتى أصبح اسمه، صلته بحكم النهار، يعني معنى آخر الثُريا أو الشمس.

كلا!... لم يبلغ على هذه السفوح «مترا» سمت الألوهة ففي مجرى النمو قد وقف موحداً بظاهرة النهار، بل إن كما في مسير الأيام تلاشى «فارونا» في ظلمة الليل، بهت «مترا» في ضوء النهار!

أجل... كل فأرباب حملها من العنصر الآريّ القلب من موطنه الأول إلى هنا، إلى حيث وجد لوناً من الألوهة عليه غريب إليه يجد قد اتجه من لاهوته نواحٍ اجتذبها إليه ما قد أفرغ فيه العنصر الأول من أهل البلاد من صفات القدرة، بإلقائه في يديه مقاليد الأمر.. وجد رباً لتغنيه باسمه رنين، فربّ هو بيده للضّار الضرّ، فإنه للضار: «رُدْرا» والضار للضار إنما بيده التشفِّي.. ومن ثم فهو، كما بيده التشفّي، أيضاً بيده الشفا: «شيفا»

لشيفا إلى ما قبل العهد الفادي يعود تاريخ لا يضيع في آثار هارابا وموها نجدارو المهبط الأول للآريين... هناك وُجد شيفاً رباً أعلى إلى مقرّ عبادته، أقبلت فلول الآريين فوجدت فيه

لأوصاب الإنسانية ونوازل الحياة في البيئة الجديدة شافياً... ووجدُ الوجدان الآري بشيفا، وجد الوجدان الآري، ويده تجري تُسجّل من الريجفادا سطوراً، فضمّه بين زمرة الأرباب... وعن هذا الطريق، بالريجفادا، دخل شيفا التفكير الديني الهندي الآري وأشرق في أفق الألوهة واتجه صاعداً نحو سمت منه يقترب ربّ آخر أتى من أودية الدانوب وضفاف بحيراته ولاسمه من المعاني معنى الإنعاش وفي المخيلة الكهنوتية له صورة صورتها إشارة الريجفادية التي انطلقت تصفه بالشباب والخير والجمال: «فشنو»

بيد أن عن هذا السمت تحوّل، في الحاضر، لفشنو ولشيفا صفات لا ترفع منهما أحداً إلى مرتبة الألوهة الكاملة، فليس لواحد منهما صفة «المبدأ الأول» فلئن كان كل في مستوى الربوبية يقف عالياً، كل كرب عليّ يُعْبَد، فإنه يعبَد كروح علي لا كروح كونية وبعيد كلاهما عن مرتبة الإله أو: «دبوش»

أجل... لقد أطرق العقل الآري قديماً وأمعن مُفكّراً في الأرض... إن الأرض لديه للحياة الأم، وعبادتها كأم من أقدم أنواع العبادات التي عرفتها العقلية البشرية والتي تظهر كأبرز ظاهرة في تاريخه بدائياً، ومن ثم فإذا ما فكّر في الأرض فليس ليأتي في حاضره بالجديد وإنما ليرجع إلى القديم فيأتي و«براتيفي» لديه الأم، بـ: «ماتا»

وليأتي من القديم أيضاً، ولديه ما قد أدلفه إليه بديهيّ منطق لاحظ به أن الأرض لا تنبت الحياة ما لم ينزل من السماء الماء، بأن «ماتا» هي الأرض فالسماء إنما الأب أو: «بيتار»!

بيد أن وإن صاحبت ذاكرة العقل الإنساني، منذ عهود يغيب عن الذاكرة ذكراها ذكرى عبادته السماء وإطلاقه عليها تحت هذه الصفة نعتاً «ديوش» أو هذا الاسم الذي به أقبل بفروعه الآرية من موطنه الأول بامتدادها إلى هنا امتداد فروع أخرى من نفس الدوحة باسم الإغريق حاملة نفس المعنى بزيوس، وأيضاً امتداد فروع أخرى من نفس الدوحة باسم اللاتينيين حاملة نفس المعنى بأيوبيتر أو جوبتر، فإنه الآن لا يجد نفسه على هذه السفوح اتجاهه القديم نحو الأب السماء أو السماء الأب يتجه وإنما يرى نفسه قد تحوّل به المنطق وهو عن سبب الأشياء يبحث إلى، والأب السماء للحياة هو المبدأ، إن هذا عين ما عنه من سبب يبحث فإنما واضح أن بيتار إنما: «ديوش»!

ورنّت لأول مرة على هذه السفوح الأوتار الصوتية تعلن أن سمت الألوهة قد بلغه «بيتار» بيد أن بهذه اللحظة الفاصلة في تاريخ التفكير الإلهي على هذه السفوح قد تحوّلت بالعقل الإنساني المخيلة التي تخيّل الإله في صورة جسدية له من العناصر الجنسية عنصر الرجل، وبتخيله هذا التخيل تخيل السماء له مكاناً!

أجل... وبهذه اللحظة الفاصلة التي صورت فيها السماء مكاناً وصور «بيتار» رجلاً، تحول الأب السماء إلى الأب الذي في السماء وطلع «بيتار» في الأفق الإلهي الأب السماوي: «ديوش ـ بيتا»!

بـ «ديوش بيتا» برقت في الأفق الفادي بوارق الوحدانية بيد أن هذه الوحدانية التي تلمح على صفحات «الريجفادا» إنما تقوم شاهداً على قصور العقل الإنساني ووهمه في هذه المرحلة من تاريخ حداثته فهذا التفكير الإلهي يصمه من وصمات النقص تحديده عنصراً جنسياً للألوهة وحدّ الألوهة في مكان!

لا جدال أنها هوّة تسجّل حداثة العقل الإنساني ويده من الريجفادا تستهل السطور!...

بيد أن العقل في هذه الهوة طويلاً لم يتردَ وبوهنه طويلاً لم يتشبّث فسرعان ما أدركها وسرعان ما أسرع يحاول التخلّص منها ويده ما زالت على الريجفادا تجري وتكوّن من سطورها سطوراً، ووعيه فيما قد سطره فيها يعيد التفكير.

واتّسع بهذا التفكير الأفق الإلهي أمامه وطالبه الفكر بمبدأ أكثر عمقاً وأقصى بعداً...!!

مبدأ، حول محوره كفكرة، منذ كان في فيافي ماضيه، عنه في مخيلته تطوف غامض الفكر التي تلازمه الآن في مجتمعه الجديد وتشتد به حتى تُنيخه تحت تأثيرها، كفكرة مبهمة غامضة، إلى القول بإبهام وغموض بضرورة وجود كائن سباق على «ديوش ـ بيتا»، مكانه من الكلّ صفة المُوْجِد!

مُوجِد، يطالبه بالاعتراف به من غامض تفكيره أيضاً غامض تفكير به ناحية التجردي من آفاق التفكير يميل، ففيه عن ذي قبل قد نمت للمال حاسة ومن طمي الماضي تفتحت منه النفس روحاً تستروح نسائم الروحيات وبنشوة من الروح المرهف جرت يده، وهي على الريجفادا ما زالت تجري، فسجّلت اللمحة لحظة لاحظ أن لابد أن يكون «الأول» «مبدأ قدسياً» وعنصراً مجرّداً وأنه روح أقدس: «بوروشا»

مبدأ أوليُّ، من اللامجردات مجرداً.. مبدأ، جعله مجرداً وخلع عليه من صفاته البشرية صفات فوصفه بالبذل وبالتضحية وإنشائه وجوداً، أشياءه أو مادته ـ «براكرتي» تتحرك بفعل «بوروشا» أو نفس!

«كان بوروشا واحداً فأراد الخروج من الوحدة فضحّى بنفسه ونُثرت أجزاؤه ومن هذه الأجزاء، التي ليست شيئاً آخر سوى أجزاء الإله، كان الكون وتكوّن الوجود!».

(٩٠ ـ =) من الريجفادا

في طمي الزمن ألقى العقل: «عقيدة وحدة الوجود» بهذا التفسير جعل العقل كل ما في الوجود أجزاء من ذلك «الكلّ» ـ وبقوله هذا القول جعل الوجود وحدة بـ «بواحد» إليه أعاد إيجاد الكون بمكوناته من أشياء وكائنات، بل وسائر الأرباب، فإن هذه القوى التي إليها تتجه أناشيده وأوراده إنما بأسباب وجودها أيضاً إلى تلك الوحدة، التي ضحّت بنفسها، تعود!

ولكن... لمبدأ أولي مجرّد، لماحاً وللمحة، استخلص العقل الإنساني وعهود الفادية تطويه وقال بـ «بوروشا» كأصل لوجود فسر مظاهره وظواهره تفسيراً به وصف الألوهة بالتجرّدية ووصفها، بإعادته بالكون بأربابه وكائناته الحيّة إليه، بالوحدة والوحدانية ـ ووصفها، بإخراجها من الوحدة عن طريق التضحية بنفسها، بصفة البذل واللا أنانية... وأما الصلة فموصولة بيده هو، هو الكهنوت، ففي يديه تحت ردائه ساحراً كاهناً، وصل الصلة بين الإله والإنسان أو المعبود والعابد بهذه القرابين التي عليه وقفاً إرسالها عبر «أجنى» عن طريق هذه الطقوس التي مقصور عليه القيام بها عبر هذه الصلوات التي يؤديها على قمم هذه السفوح أناشيد في الخلاء يُطلقها تحت تأثير «سوما» اختتامها، همهمة شفتيه بتلك «الكلمة» الفعّالة في نشأة الكون، والسّر الرابط بقوته بين أجزاء هذا الوجود... الكلمة التي تمثّل الصورة اللفظية لبوروشا... الروح الأقدس أو المبدأ الأول: «براهما»

اسم، إذا ما أنهت يده الطقوس تنادي به همساً يروح دوياً في أرجاء هذا الوجود الذي تغمره «بوروشا» فتستجيب إلى مطلبه هذه «الروح» التي لمختلف صورها يتجه هذا المجتمع عابداً في هذه القوى الطبيعية المؤلّهة والبطولة المؤلهة!

ولكنِ... العقل الإنساني تحت ردائه الكهنوتي ما زال في مجتمع حربي يعيش في منأى عن الفِكر التجرّدية وعن التعقلات المنطقية منه العقل وعن «المبدأ الأول» قصي فيه الإحساس ومنه هاجع الشعور، حتى ليجد نفسه، في مجتمع شأنه الشأن والعليا بين طبقاته في العهد الفادي إنما الطبقة المحاربة، يقف تحت ضغط هذه المؤثرات لا يتكلّم عن «المبدأ الأول» إلا بالنسبة إلى الأرباب!

قلّما إلى «ديوش بيتا» نوّه اللاّهوت الفادي، فلا يُفرد اللسان الفادي «ديوش» بنشيد له خالص ولا له تميّز عن الأرباب إلا صفة الأبوة... بل إلى القلب الحربي، في مجتمع روحه الحرب، طريقه موصد، فغير شاغر هذا القلب قد غدا فناصيته قد امتلك ذلك الصنديد من باسمه تتغنّى للفادية الأجيال.. رجل الحرب: «إنْدرا»!

إن الزمن المتغيِّر قد تغيّر وبتغيّره تغيّر «إندرا»! ـ تغيّر من ماض مضى به صنديداً إلى

حاضر نرى صورته على قماش المخيلة الفادية قد حفّها إطار من القدسية صاغه البعد!

إن ذكرى العمل المُصطلَح عليه من جليل الأعمال يعيش في القلب الجماعي... والقلب الجماعي أبداً مرآة للماضي يعكسه في تجسيم في صورة الغريب واللامعقول من القصص واللامنطقي من الأساطير... وعلى أجنحة هذه الأساطير، بل بها، عاش في هذه الناحية من المجتمع الفادي كرجل حرب «إندرا»...

أجل... في مجتمع روحه الحرب عبد «رجل الحرب» وللإيمان الشعبي تجلّى شيئاً حياً ـ قوة جماعية أبت على العقل الإنساني ـ حدثاً تحت رداء من السحر والكهنوت ما زال، إلا تعهد هذا الإيمان ورعايته، وإلا الاقتناع بأنه قد لمس ما عنه يبحث فإن ما عنه يبحث إنما إليه يأتي بصوت هذا المجتمع ومن ثم يروح الصوت الكهنوتي صدى يعلن على السفوح ألوهة «إندرا»!

ورجّعت السفوح الهندية: إندرا، هو الإله فإنه هو الذي انتظم الوجود! أين «ديوش ـ بيتا» أين الأب السماوي؟

غير عاجزة امتدت اليد الكهنوتية وفي «الريجفادا» صاغت النسب حلقة تمهِّد بها طريقاً يصلها اتخذه منطقها اللاهوتي وسيلة إلى الغاية التي رسمتها لإحلال «إندرا» على عرش الألوهة جعلت «إندرا» ابناً لـ «ديوش» لتمتد من بعد، وفي رضوخ لمطلب مجتمع حرب وبوحي من روحه، تحله على عرش شرعيته إليه، بحكم هذه الصلة، تؤول فتعلن أن:

قتل إندارا أباه وعلى عرش الألوهة محله حلّ!

حلَّ اللآهوت للاهوت المشكلة وأفسح في أرجاء تفكيره الدينيّ لإندرا بهذه القصة، التي وصفته بصفة الاغتصاب والقتل، إلى الألوهة الطريق...

من سطور «السّجلات المقدّسة» نسمع نصوص الاحتفال بتتويج «إندرا» إلهاً وحلوله محل أبيه... وتحت هذه الصورة من النصوص التي صوَّرته قاتلاً مغتصباً، طلع في أفق الألوهة «إندرا» أباً سماوياً، فخصائص وصفات «الأب السماوي» فيه قد حلّت... وعلى سطور «الريجفادا» نرى ظلّه من فوق عرش الألوهة يترامى على الفادية فيظلل لها عهوداً طاوياً طوال تاريخها السياسي لها مجتمعاً ربط بين أطرافه له دين!

الربع من تسابيح الريجفادا لإندرا... لإندرا هذه السطور التي تجري تصوّره أدكن البشرة نحاسي اللون مغواراً شداداً ومثلاً لصورة المحارب.

ولإندرا هذه القصة التي تجري تُصوره متغلباً على البشر والأرباب بجنود من قوى العاصفة والريح وردت، بهذه النصوص، تحت اسم «ماروت»...

أجل... إن «إندرا» الذي ظلّ حتى استهلال «الريجفادا» صنديداً مؤلهاً قد تحوّل على السطور منها، بتلك القصص التي ألقت عليها اليد الكهنوتية صبغة القدسية، آلهاً فقد سطرت هذه اليد المرنة هذه التسبيحة التي نقرؤها في الـ «ريجفادا» كقصة تحدِّث:

«أن قبل أن يولد إندرا، أدرك أبوه، أن إندرا سيسلبه اختصاصاته وسيادته على الأرباب فحاول جهده لمنع ولادته... ولكن، القوي إندرا اخترق جنب أمه «آديتي» وخرج إلى الوجود ـ شرب «السوما» التي بها أضحت له القوى الإلهية وقتل أباه!»

IV.XV.III من «الريجفادا»

أما إذا فطن عقل لفداحة الجرم وسأل شاك: أقتل الإله أباه؟! فهناك، لردّ إيمانه للدين، قصة وإن تكن مناقضة للأولى تقول: «إن إندرا كان سجيناً.. خشي بطشه فسجنته الأرباب ولكنه فرّ على ظهر نسر!»

LV.XX.VLLL من «الريجفادا»

أما إذا تنبّه الباحث للتناقض وسأل: ولكن كيف استطاع إندرا، وليداً، قتل أبيه؟ غير عسير التخلُّص من حرج السؤال فالجواب يأتي: أن قبل أن يُولد، خشيته الأرباب، فقيّدته جنيناً بالأصفاد ولكن عليها تغلّب إندرا فاستطاع أن يفرّ، فقوي! إن لرجل الحرب إندرا من المعجزات الكثير! على الأرباب تغلّب ولأمره خضعت الأرباب بل وامتدت قوته على الزمن فقد تحكّم في مدّ الليل وإطالة الأيام فإنه هو من إليه ترتفع هذه التسبيحة:

«ليس على الأرباب فقط، أي إندرا، تغلّبت! وإنما على الكون حين أطلت الأيام إلى ليالٍ!»

LV.XXX.LLL من «الريجفادا»

وتسير بمعجزات إندرا من الريجفادا سطور تحدث أن واسع الرحمة رب العهد الفادي لمن بألوهته يؤمن، فإن:

قد ناداه «بهيجو» في الظلمة فاستجاب له وأنقذه من الغرق وابتلاعه من حيتان البحر، وبعد وحشة أتى يؤنس وحدته!

ومنه تقرّب «أترى» وبدينه دان فأنقذه من نار فيها أُلقي وعليه كانت النار برداً وسلاماً!

وإليه ضرع «شيفانا» ومنه قد اشتعل الرأس شيباً فأعاد إليه الشباب... وطبيعة الشباب!

وبإرادته سار «يادو»، و«تورفاشا» على صفحة الماء! ول «بسبالا» قد أعاض عن بتر قدمها بأخرى من حديد!

بزّ الأرباب المخلصين إندرا فعلى نفسه قد كتب الجبّار الرحمة! ثلاث مرات يومياً يتفقّد الدنيا لمساعدة المحتاج وتلبية المنادي، من ثمّ عبادته عليك بالنفع تعود فعلى نفسه قد آلى «رجل الحرب» نصر المحارب والانتصار لمن إليه يرفع القربان، وسيساعدك كما ساعد «سودان»... هناك على ضفة نهر «باروشني»، هرع إلى مساعدة «سودان بن ديفادوسا» على أعدائه من الملوك المتحالفين ضده، وبقوة من عنده بجند لا تُرى تغلّب، على القوي، الضعيف!

إلى مساعدتكم بجند لا ترونها يأتي، كما يقول «الكتاب المقدّس» فإنه يهلك لعابديه أعداء، لهم يدمر قرى بصواعق ينزلها عليهم من شواظ ونار!

وبالقول آمن مجتمع لا يدري العقل الإنساني فيه أية كبوة كباها إلاّ بعد أن نما... ليعلم، نامياً، أنه كان غير ناضج التفكير كان حين لم ير للألوهة تمجيد إلا بإضفائه عليها صفة التدمير!

ترهات في صور قصص دينية تداولتها على هذه السفوح شفاه بالإيمان قلبها قد عمر لا يتطرّق إليها في حقيقتها شك ليطلع بها على التاريخ إندرا إلهاً يسود على أجيال للفادية جنح خلالها لشعرائها خيال حفّ بعرشه يشيد به مشيد السماء، باسط الأرض، مسيّر الريح إلى حيث يشاء وقاذف الصواعق على من يشاء!

غاب إندرا القصة وطلع إندرا الأسطورة... طلع إندرا إلهاً مكانه السموات ومقامه فيها عرش عليه قد استوى... وتسبيح من في الأرض باسمه يُسبّح باسمه من في السموات حتى «فشنو»!.. حتى حبيب الكهنوت والممثل لروح القربان رهين خدمته يقف يقدّم مرفوع القرابين!...

بهذه الألوان يبدأ يطالعنا دين جماعي في هذا المجتمع الذي تنتظمه ولمعتقداته تعهّد شؤون يد الكهنوت فعلى الكهنوت وحده يقف أمر اللاهوت ومعرفة الإلهيات ووصل الصلة بين عالم مادة وعالم روح... وإليه يهرع المجتمع، فرداً وجماعة، إذا أراد تقرّباً، يؤدي طقوساً تقف في قمتها هذه الكلمة «براهما» التي يصاحب المجتمع عنها العقيدة بأنها لا كما يفهمها الكهنوت الصورة اللفظية للروح الكونية وإنما الكلمة السحرية الفعّالة في الكون والسر الرابط بقوته بين الكهنوت أو البراهمة وعالم الأرباب.. كأن الأقدار بخيوط معلّقة تحركها بهذه «الكلمة» من الكهنوت الشفاه!...

وإلى الكهنوت واصل الخلف سعي السلف، وإليه، كما لأسلافه قدّم، قام يقدم لقاء، وصل الصلة، الأجر المادي المعلوم...

إرث غدا في يد الكهنوت وصل الصلة بين الإنسان والرّب... ووصل الصلة بين الرّب والإنسان تنحصر في: الطقوس!

أي شيء يُسْتَرْضى به الرّب فيرضى، وله يُعطى فيُعطي؟ غير ناضج كان العقل فانحصر الاسترضاء في تقديم الطعام!

كانت الاحتفالات وتقديم الضحايا ولائم للأرباب فيها قُدّم الأكل ترغيباً واسترضاءً يُرسل إليهم محرقات كما إليهم يحمله من له في الريجفادا ما يربو على مائتي تسبيحة «أجنى» أو النار...

بهذه الطقوس بدأت تتكوّن في يد الكهنوت الآن القيود التي بها بدأ يقيّد هذا المجتمع الذي يقف من حوله خاشعاً يرى أن على الكهنوت وحده مقصور القيام بأدائها في صور هذه الدماء المراقة وهذه المُحرقات المختلطة منها الرائحة بدوّي هذه التسابيح السابح بها الهواء على قمم هذه السفوح إلى حيث تتلاشى وفي عريض الفضاء إلى «الروح»، وهْماً، تروح!

وهكذا تسير بنا عبر الفادية الأيام يطوي بعضها بعضاً عن دين يجمع المجتمع بوحدة عقيدية تنحصر في هذه الطقوس التي عنها قد رسخ في العقلية الجماعية أن: من لا يؤدي الطقوس وبتقديم القرابين من المحرقات لا يقوم، فعُرضة للعدم!

أجل... عُرضة للعدم من لا يقدّم القربان المفروض لأن في القربان قوة سحرية تمكّن الرّب المُرسل إليه هذا القربان من القيام بوظائفه المقدّسة! وعلى هذا المنوال تسير بنا عبر الفادية الأيام بدينٍ أركانه هذه الطقوس المنحصرة في الضحايا والقرابين والمحرقات والتقدمات التي ترتفع الآن أكثرها لإندرا طلباً للمنح ودرءاً للمحن... ولكن لتعترضنا، بهذه الطقوس، في الدين الفادي:

مشكلة الخير والشرّ

تُعلن الريجفادا أن الوجود إنما الخير لا شر فيه، فلا شر يقع إلا: من الخطأ في صور الطقوس!

إن القوى الإلهية تطلب تقدمة ما قد حدّده الكهنوت من تقدمات من لحم وخمر وفطير ترفع محرقات... متى فعلت هذا خلصت من الشر حياتك وكانت كلها الخير... أما إذا بشرّ أصبت وأنت على الطقوس مواظب ولها مؤد فاعلم: أن في قلبك من الإيمان زيغاً ونقصاً في فروض الطقوس!

هذه هي مشكلة الخير والشر في الدين الفادي!

إلى الوجود لم ينظر العقل الإنساني غضون العهد الفادي نظرة تفاؤلية فهو لم ينف للشر وجوداً وإنما قيّد الجماعة بقيد الطقوس!

لإندرا، مرسل الغيث، أرسل المحرقات حتى تُمكنه لإرسال الغيث إليك... إنه للخراف والثيران والفطير والخمر، محبّ!

أرِقْ لإندرا الخمر واشربه باسمه نخباً، وحمل لهب «أجنى» إليه اللحم، فسيحملها إلى «فشنو» القائم في السماء مقام الكهنوت على الأرض يقدّم مرفوع التقدمات للقوي ذي البطش الشديد، الرافع السماء، الباسط الأرض، المستوي على العرش!

من ثم فإلى «فشنو» لترفع التقدمات فإن القوي إندرا غير قوي إلا بقوة فشنو الشاب الخيِّر العملاق!

وهنا... هنا نرى أن من الكهنوت تمتد اليد فتجري تسطِّر في الـ «ريجفادا» سطوراً تحتفظ لفشنو فيها بالسيادة بتوحيده بإندرا وتجعله إياه القائم بجانبه المتعهد شؤونه، فإنه إذا كان «إندرا» يمثل صورة النظام الحربي فإن «فشنو» يمثل الكهنوت البراهمي!

لا ثمة شك أن هذه اليد الكهنوتية قد عرفت ماذا تعني وماذا تريد وإلى أي شيء تهدف عندما إلى السماء رفعت «فشنو» وجعلته فيها «لإندرا» صديقاً فقد أصبح «فشنو» بتمثيله الكهنوت البراهمي في السماء، في السماء يمثل روح القربان وبهذا أحلته من القلب الهنديّ مكانة من ورائها وقفت تتسلل قبضتها قوية تنقض ما قد أجرته على صفحات «الريجفادا» من نصوص تأليه «إندرا»!

أجل... لقد رضخت البراهمة حتى الآن لمجتمع حربي النظام فرفعت إلى مرتبة الألوهة «إندرا» الموحّد بالنظام الحربي المضاد لنظامها البراهماني الذي يقف حتى الآن في المرتبة الثانية... ولكن الآن! الآن قوية تنقضُّ قبضتها فتنقض صرح الألوهة الإندرية بمعول الهدم وتخلخل الأساس بتشريع جديد يحرم القتل تسجل به للضمير الإنساني نمواً... فمن الريجفادا صفحات، بعد تلك التي عليها نرى في صورة القاتل الممجّد إندرا، نرى عليها تلميحات بجرم القتل حتى تُصرح معلنة أن القتل إثم، لتعلن أن «إندرا» للإثم قد ارتكب فإندرا قد قتل!.. قتل أباه!

على نفس الكتاب الذي يتجمّع الربع من أناشيده باسم إندرا تسبيحاً، يهوي من سمت الألوهة «إندرا»!

ولكن! لا ليتلاشى إندرا فما زايل المخيلة إندرا، وإنما ليُقصى إلى مكان إليه مصير كل مَنْ عن الدنيا صار وفيه يغدو ملكاً للموتى... وهكذا تجابهنا في الدين الفادي:

مشكلة النفس وعقيدة الخلود ونظرية الثواب والعقاب

فارغ هذا «الكتاب المقدَّس» المُسجّل العقيدة، من فلسفيّ آراء ونظريّ فكَر عن النفس إلا في نهايته عندما بدأ العقل الإنساني يودعه الأساطير التجرّدية فيودعه من هذه الأساطير تعقله الذي نراه في الجزء العاشر من الريجفادا حين يتحدّث، في الآية المائة والتاسعة والعشرين، عن منشأ النفس فهو، وهو في هذه الفترة يعود بمنشأ الوجود إلى الحرارة، يقول بأن الحرارة، هي القوة الأولى المؤثرة ومنها برز عالمنا المادي مشتملاً على «جاما» أو عنصر الحب والرغبة، العنصر الذي أخذ ينمو حتى انبجس «ماناس» أو النفس.. النفس الواعية!

بيد أننا لا نجد في هذا: «الكتاب المقدّس» عن النفس فكرة أكثر أن المحاربين شهداء فلا تحول إلا «ظاهرة الموت» بينهم والذهاب إلى مكان «إندرا» فهم طائفته وعلى شبهه... وأما سائر الناس فلا شيء غير التزامهم بالطقوس يقودهم إلى مكان إندرا...

أتسأل أين هذا المكان مكان «إندرا»؟

إن مكان «إندرا»، علّيون!

مكان «إندرا» جنّة، بل جنان... له فيها تقوم مملكة بملك عريض! مكان «إندرا» جنّة عرضها السموات وفيها كل شيء دان...

أجل... مكان إندرا جنان فيها اللبن وفيها الخمر أنهر جوار! فيها اللحم أكلاً والفاكهة دانية للقطاف!

جنة!... فيها كل ما إليه قد صبّت نفس مراهق! جنح العقل يافعاً فعمّر هذه الجنّة بمرور الزمن بمجموعة من «أسباراس» غوان أو حور.. وكلهن على نمط وشاكلة من في هذه الجنة تقف فاتن صورة: «أوشاس»!

طاح الخيال!.. طاح فقال بجنة شأنها الشأن وتجنّى فقال إن فيها بين هذا كله الخلود!

الجزاء في الدين الفادي للمتقين الجزاء!

كلا لا يعرف العهد الفادي ما ستعرفه من بعد عهود سنعرف فيها «التناسخ» و«الصيرورة»... وإنما فيه كان مصير من يسير وفق الطقوس وحسب قوانينها هذه الجنة مستقر... وأما من للطقوس خالف فالهاوية مع أرواح شر، الحرب بينها وإندرا، وكل بأعوانه، أبداً دائرة الرحى وسرمداً سجال!

هذه هي «مشكلة النفس وعقيدة الخلود ونظرية الثواب والعقاب، في الدين الفادي.. واضح وجليّ أن التفكير في نطاق هذا الدين كان تفكير العقل في طور المراهقة فالنظرة فيه

إلى النفس نظرة فطرية والنظرة فيه إلى الخلود نظرة محض غريزية!.. الجنة التي وُعد بها المؤمنون المتّقون جنة إشباع بحت للغرائز البهيمية فصراخ الجسد بالتلبية يُلبي!

الخمر والحور متعة للمتقين في جنات نعيم رب عربيد! هذا هو الثواب في جنّة ظلّت عنها الفكرة سائدة في المخيّلة الدينية الهندية لزمن استطال إلى ما بعد هُوي «إندرا» من مرتبة الألوهة... بيد أن في غضون هذا الزمن من العهد الفادي نرى أن التفكير الديني قد تطور فإن اليد الكهنوتية التي رفعت «إندرا» وهوت به إنما هي نفس اليد التي ذرت في الريجفادا بذرة التوحيد التجرّدي، فإن كان يطوي الفكر فقرات «الريجفادا» يرى تنبّه العقل الإنساني وابتعاده عن هذه السذاجة واللامنطق والاقتراب نحو التعقل بهذه النسائم التي تهبّ من التسبيحة أو الآية المائة والتاسعة والعشرين من الجزء العاشر متغنية بأنغام وحدة الوجود...

في الجزء العاشر من الـ «ريجفادا» نرى الاعتقاد، في هذه الفترة الزمنية، قد وُطّد بأن ليست هناك إلا حقيقة واحدة تؤكد مبدأ أول بـ «بوروشا» كأصل لوجود فسّرت مظاهره وظواهره ذلك التفسير الذي وصف الألوهة باللا أنانية وتضحيتها بنفسها ليكون الكون فكان بالأرواح العليا التي قد نمت وصارت أرباباً، وبالكائنات التي تسير في طريق النمو حتى تصير أرباباً... فهذه العقيدة التي تقول إن عن طريق التضحية بنفسه خرج «الواحد» من وحدته فكوّنت أجزاؤه المتناثرة، بمكوناته وكائناته، الكون قد تطوّرت من بعد إلى وحدة وجود فلسفية تمثل البذرة في تربة:

عقيدة الفداء الإلهي

لهذه العقيدة تسجل، في الجزء العاشر من الريجفادا، قصة التكوين.. هذه القصة التي تقف في قائمة الأساطير التجرّدية بربطها بين متفرّق أجزاء هذا الوجود برباط الوحدة، بيد أن هنا يتعثر العقل الإنساني مرة أخرى، ويده ما زالت تؤيد الطقوس وما زالت العهود القديمة تطويه، فيقول:

إن هذه الأجزاء المتباعدة إنما إلى التقارب والعودة إلى حالتها الأولى من الوحدة تشتاق، شوقاً هو سر التجاذب الخفيّ الموجود في أطراف الكون... هي تتجاذب فيما بينها دائماً لتحقيق هذا التوحّد المنشود، وأنجح الوسائل لتحقيق هذه الغاية هي هذه القرابين والضحايا التي يأتي بها المجتمع ويقوم بتقديمها الكهنوت في صور هذه الطقوس، فهذه التقدمات ستجمع الأجزاء إلى الأجزاء وبذلك تعود الوحدة إلى «الواحد» وبذلك يعود إلى وحدة الواحد، الوجود! كلاً!

ليس المعنى من ذلك فناء الوجود بل على العكس فإن ذلك معناه استبقاء الوجود وفناء

«الذات الفردية» في «الذات الكلية» في غمرة مستطابة من الفناء المستطاب! مستفسراً لا تسأل!

كلا!... إن الجواب إليك يدلف، غير معقّد تعقيد الطقوس... بسيطاً إليك يأتي من شفاه الكهنوت مفسّراً يشرح لك: لأن ما يجتمع من الإله بوساطة الجاذبية الطبيعية من جهة والضحايا المقدمة من طبقات المجتمع من جهة أخرى لا يلبث أن يعود إلى التفكك بعملية إيجاد جديدة يتولاها الإله بنفسه من نفسه رغبة منه في إنشاء كون بالخروج من وحدته.. وستظلّ هذه الدورة مستمرة، كالحلقة المفرغة التي لا يتميز بدؤها عن منتهاها... ومن ثم لو توقف تقديم القرابين والضحايا لوقف الكون عن النمو ولتعطّلت منه العجلة!

من ثم فهذه الضحايا هي من أهم أسباب هذا التجاذب الذي يقع بين العناصر المتنافرة إذ هي العامل الأوحد الذي يصل بين الإله والإنسان من جهة وبين الكائن والكائن من جهة أخرى ومن ثم فإن السر فيها هو أنها هي التي تُعيد للإله قوته بعد تفككها بسبب تنافر أجزائه فالقربان هو الشحنة التي يرسلها البشر إذا أرادوا للكون البقاء والعودة فيه من جديد!

تعثر العقل الإنساني ولكن.. رغم هذا التعثّر قد سجّل، بهذه القصة التي جاء بها، لنفسه تطوراً في تفكير إلهي قديم فلقد نمت هذه القصة وتطوّرت بارتقاء النفس منه وارتحالها مراحل التطوّر قدماً حتى بلغت تلك الصوفية الفلسفية الهاتفة بالوحدة النوعية... بيد أن حتى هذا العهد ما زالت العقلية الإنسانية في تربة الزمن عن شفافية هذه الأجواء الروحية بعيدة، فما زالت قائمة هذه الطقوس التي استشعرت اليد الكهنوتية بها سيطرتها وعميق التأثير لها في نفس هذا المجتمع الذي يشتد أتباعه لها بها اتّباعاً والأيام به وبها تسير وبهما تبلغ زمناً عهده تلك المرحلة الزمنية التي امتزج فيه بالآري الآري ما عدا طبقاته، طبقة البراهمة التي ترفّعت فارتفعت إلى مستوى منه وقف دونها مجتمع جديد يرى أن عليها مقصور نقيّ الدماء ومعرفة الإلهيات والدين ولغة الآباء... مجتمع يتناول منها «الريجفادا» كتاباً فيه عن الشريعة الإفادة، ليغلف بالقدسي منه الصفحات وبالوحي «المنزّل» غلّف الريجفادا فتنزّلت على الأجيال مذ ذاك العهد حتى العهد «كتاب مُنزّل»!

كتاب مقدس الريجفادا حفّ به الإيمان صحفاً مطهرة إلهية المصدر.. إيمان كانت نتيجته الحتمية تلك التي صاحبت التفكير الديني وبها طلعت؛ عقيدة الوحي والتكليف الإلهي وتسييج الـ «فيدا» بسياج القدسية حتى حُرِّم للسبر والبحث، الاقتراب منها بل وأُقْصي كل من عن مصدرها يتقصّى بكلمة: إن العالم مَنْ لا يسأل!

إن العالم ليعلم أن برهان قدسيه.. مصدر هذا «الكتاب» إنما هي اللغة الفصحى، فيعلم أنه كتاب معجز بل إنه الإعجاز!

أجل... السنسكريتية للكتاب الأقدس بين الكتب المقدّسة الهندية لغة، فاللغة الفصحى للكتاب لغة... ولكن! لئن كان هذا الكتاب بليغاً خلاّب اللغة فإن الإيمان به، ككتاب قدسي المصدر، إنما رهين مراجعة تاريخه في ضوء التاريخ الفكري. ولو رجعناه وراجعناه لرأيناه كتاباً قد سطّرته حسب الحاجة حاجات خلال فترات من الزمن كان التفكير الإلهي فيها عُرضة للتطور ومن ثم فالتناقض فيه بيّن بين آية وآية! بل وواضح هذا التناقض في صورة هذا التأرجح بين عقيدة وعقيدة وفكرة وفكرة قبل أن يتسع الأفق الفكريُّ فينحسر عن فكرة، «واحد عالمي» به يبدأ هذا الأفق في الانحسار عن لون من الطهر الصافي خلاّب كما نرى في الصفحات المتأخرة التي تطالعنا فيها تأملات ناضجة بالتسابيح الصوفية تكوّن في طمي الزمن بذرة تلك الصوفية الفارغة التي ستطالعنا فيما بعد... ومن ثم نعلم علماً يقيناً أن التفكير في هذا الكتاب «المعجز» إنما عن التعقل الرزين الآن ما زال بعيداً، ولا يمثل بآياته إلا أسئلة الصبيّ الذي ندرك من أسئلته أي النواحي سينتحي وأي كائن سيكون...

أجل... في هذا «الكتاب المقدّس» أدب شعري وشعر أخلاقيّ... فيه عن قانون العدالة والقانون الأخلاقي فكر.. ولكن الإله، حتى الآن، لا يتبع ولا يعمل وفقاً لسنن هذا القانون ففي هذا «الكتاب المقدس» قصص تتراوح بين اتجاهين ينحصران في التدمير والمعجزات... تدمير المدن والقرى وإهلاك البشر والضرع والزرع بصواعق ونوازل وشواظ من نار، ومعجزات ليست في ضوء التعقّل الرصين إلا خرافة مخيلة طاحت بعقل عن التفكير والتعقل عاجز!

إن هذا «الكتاب المقدس» ليس إلا للأدب القديم تُحفة فقط وأما عن تاريخه مغافلة عقول وعن إدراك تناقض السطور فيه تروح منها الشفاه بخشوع تُرتِّل منه الآيات!

ولكن! لهذا «الكتاب المقدس» تناول القلب الهندي خلال الأجيال بالتقديس من يد هذه الطبقة متعهدة الدين والتي على مجتمع جديد للآرية من أعالي البنجاب على سفوح الفنديا يمتد منتشراً تملك، بكلمة الوحي، منه العنان...

بيد أن كما تسير الأيام على معتليات الفنديا نرى العقل الإنساني المتمثل بهذه الطبقة، طبقة الكهنوت البراهمي أو «البراهمة»، يتطور في نمو يغيب فيه فجر شباب كان لهذا الكهنوت على البنجاب فيغيب في حاضر تمثله الآن يده الجارية تكمل من «الفيدا» أجزاء.

قرون الآن قد مضت منذ استهلت يده لسجلات الفادية تسطيراً وأيام الآن قد سارت

منذ اجتازت جماعته الآرية الجوانب الشرقية لمكان إقامتها الأول لتنتشر على سفوح الهملايا ولتهبط الجنوب وتعلو معتليات الفنديا، فتأتي بهذا التحوّل الذي جرت يده في غضونه تسجل كجزء من أجزاء «الفيدا» الـ «أتارفا» قرون الآن قد مضت تحول خلالها العقل الإنساني من طور الحداثة وأطوار الوهم وسرعة التصديق إلى شباب ناضج دليل عليه يده الجارية الآن تكمل من الفيدا أجزاء هو هذا الجزء الذي لا نتناوله ومن صفحاته صفحة صفحة تنشر إلا ويتضوّع شذى جديد ويهب من عباراته عبير تعبق نسائمه هامسة أن العقل الإنساني قد قارب على هذه السفوح طور النضوج فالمبادىء النظرية المكوّنة جذور التصوّف الفكري تتلألأ فيه سطوراً!

إن الأفق الإلهي، في غضون هذا التحوّل السياسي، قد اتّسع عن ذي قبل... بدأ الأفق الفكري يتفسّح، فبدأ رب بعد رب يغيب تاركاً اسمه واختصاصاته في «واحد»... بدأ العقل مرحلة نضوجه فبدأ يدرك ويعي أن ليس هناك إلا جوهر إلهي واحد ليس له ما «لإندرا» من صفات، ومن ثم نراه يطلق على الأرباب جميعاً اسماً واحداً يشملها جميعاً بل وراح يسجل! «عن وحدة الواحد يعبّر الكهنوت بأسماء مختلفة!»

الجزء الرابع من «أتارفا ـ فيدا»

أجل.. سطور «الأتارفا» وخاصة القسم الرابع منه سطور تكوّن الدرجات العملية نحو التجرّد التّام وتام السموّ، فهذه السطور تسجّل الانتقال من التعدد إلى الوحدة ففيها قد باعد العقل بين الأرباب والأسماء التي تُعدد اختصاصاتها بإطلاقه عليها اسماً واحداً يشملها جميعاً فهو يجمعها جميعاً ويفنيها في وحدة إلهية كانت نتيجتها بروز جوهر إلهي واحد وكائن أوحد أبرز اسم لتعيينه كان ذاك الاسم الحاوي معنى الكينونة ـ الاسم الذي فاضت به أشعاره، فاديا، والذي همهمت به شفتاه وليالي الفادية تطويه واصلاً الصلة بين المُؤلّه والمؤلّه ـ الروح الأقدس: براهما من ثنايا «الفيدا» لدى جمعها أشرق اسم براهما فبدأ يغيب للفادية عهد ليبدأ هذا المغيب بإشراق عهد فيه أشرق مِنْ خلال غيم الفِكر؛ براهما!

أجل... بمشرق «براهما» بدأ مغرب العهد الفادي فهذه الطبقة التي فيها العقل الإنساني في الهند يتمثّل والتي قد احتفظت، في مجتمع اختلط دمه الآري بالدم اللا آري، بدمها الآري فظلّ هذا الدم في خضم المزج نقياً، إنما قد كفل نقاؤه لليد منها اتخاذه درعاً وذرعاً وامتدادها بسببه قوية تنتظم المجتمع الجديد وتُنظّم في تعديل نظام الطبقات وكان طبيعياً، وهي فئة محافظة حفظ لها المجتمع الجديد هذا التحفّظ والاحتفاظ بتقليد السلف من الآباء

الفيديين وعليها قصرت معرفة السنسكريتية ولغة الكتاب المقدس «الفيدا»، أن ألقى هذا المجتمع في يدها أمر الإلهيات والدين، ومن ثم كان طبيعياً والمجتمع قد أسلس لها منه القياد أن تحتفظ لنفسها بالمرتبة العليا وأن تستدير على نفسها فتكوّن فئاتها اللاهوتية المحور لهذا المجتمع الذي يتلفّت فيرى أن ما قد ألف من نظام قديم إلى ماضٍ يهوي، فالخاشترية أو الطبقة المحاربة إلى المرتبة الثانية تهوي وتحلّ محلها هذه الطبقة الدينية، طبقة البراهمة! إن اليد البراهمية قد امتدت قوية تمتلك الناصية من هذا المجتمع الذي يتلفت فيرى أن قد قامت للبراهمة سيادة حتماً أن بها سيسود تفكيرها الديني له تفكير ... توقّع، حققته الأيام فإن باحتلال البراهمة مرتبة الطبقة الأولى في طبقات المجتمع الهندي طالع العهد البراهمي الأول «حوالي ٨٠٠ ـ ٥٠٠ ق.م»، العهد الذي به يطالعنا:

الدين البراهمي والتفكير الديني في اللاهوت البراهمي

لثلاثة قرون من الزمن تمتد هذه الفترة الزمنية التي تلاشى فيها النظام الإقطاعي وسارت بها الأيام لتنحسر عن نظام جديد ينقسم فيه المجتمع الجديد إلى درجات أربع تقف في أعلاها هذه الطبقة التي انتظمته وتحولت تنتظم نفسها إلى طوائف ومختلف مراتب... فقد انتظمت البراهمة «فارنا»، أو الطبقات، وبالخاشترية إلى المرتبة الثانية هوت ووقفت نفسها في المرتبة الأُولى لتغدو عليها هذه المرتبة وقفاً، وامتدت يدها تتحكّم في مجتمع تحكمه بهذا الدين الموروث عن الآباء وتحوّله بهذه اليد، يد باطنها المرونة والليونة وظاهرها التشدّد والتمسّك بالسنن وموروث التقاليد، إلى حيث شاءت!... وأي شيء ترتضيه منها المشيئة إلا التحول إليها فغايتها تتلخّص في تثبيت نظام الطبقات ومن ثمّ كانت وسيلتها إلى هذه الغاية:

تعقيد الطقوس!

أجل... صبغة التفكير الديني في هذه المرحلة من الزمن الصبغة التي تتمثل بهدف للكهنوت يتلخص في تثبيت درجته الاجتماعية، ومن أثر ذلك كانت هذه المرحلة الزمنية المرحلة التي بُني فيها التطوّر الكهنوتيّ وقُنِّنت الفِكَر الفيدية، وتم بناء الهندوكية كدين.

في غضون هذا العهد تناول العقل الإنساني، تحت صبغة المحافظة على دين الآباء، الريجفادا، فقلّبت يداه صفحاتها معلقاً عليها شارحاً بال «ساما» وال «ياجور» وال «أتارفا» وراح يسيجها بالقدسية ويلحقها بالريجفادا بها يمهّد لما بدأت منه اليد تعقده من الطقوس هذا التعقيد الذي عليه يسجله ما يسطره بعد هذه الكتب من سجلّين يعكس عليهما تفكيره اللاّهوتي غضون هذه المرحلة من الزمن أولهما؛ ال «أرانياكس».

والآخر الشارح فيه معنى الاحتفالات الدينية المُشرّعة والطقوس التي بها يقوم والمسجّل فيه السنن والتشاريع الدينية الـ «برهماناس».

كتابان، بما حويا من الطقوس قد قيّد اللاهوت العقل الجماعي بيد أن اللاهوت نفسه من المادية التي عليه في اللاهوت الفادي قد رفّت يودعهما التحرّر، ففيهما قد كفّ عن توجيه العبادات إلى الأرباب مكتفياً بتوجيهها إلى تلك «الكلمة» التي كان يستعملها في اللاهوت الفادي لتعيين ذلك السرمد، وأبرز اسم لتعينه الاسم الحاوي معنى الكينونة والأول: **براهما**.

ولكن؛ الاسم المبهم الغامض، ما زال في آفاق التفكير مبهماً غامضاً، ما زال محتجباً بغيم الغموض والإبهام لا يقترب منه التفكير والأيام بالعهد البراهمي الأول تسير إلا ليرتدّ قاصراً عن الإحاطة بمعناه الكامل كتجردية إطلاقية، فبراهما لا يذكر إلا كاسم، وأما التفكير فمنصرف إلى فيمن يكون هذا المبدأ الأول والواحد الأوحد؟

أجل... بهويّ الطبقة المحاربة هوى الموحّد بالطبقة المحاربة: «إندرا».. وبهوي «إندرا» شغرت مكانه الألوهة من إله!

ومن ثم فحيرة العقل وتساؤله: من؟!

من الجانجز والجُمْنا شرقاً حتى بنارس لم تختلف طبقة عن طبقة من البراهمة في الاقتناع بأن مما لا شك فيه أن للوجود مبدءاً أول واحداً ـ مبدءاً كونياً خالقاً ـ «براجباتي»

ومن «البراهماناس»،

من هذا الكتاب الكهنوتي الذي يسجل التطور الكهنوتي وتدعيم الهندوكية كدين، نرى تفكير الفكر الإنساني في شبابه، ففيه قد سار المنطق اليافع بأن ببراجباتي قد وجد الحلّ، فبراجباتي إنما الأصل لكل الوجود بما فيه يمور... كل لون من ألوان الحياة إنما عن هذا «المبدأ الكوني» موجود ـ أما كيف كان الإيجاد ـ فإن العقل إذ للسؤال وهو في شبابه ما زال يمرّ فيفكّر تفكيراً بحتاً غريزياً!... ومن ثم فصدى لتفكير هذه المرحلة كانت أولى صفحات الـ «براهماناس» المسجّلة لقصة دينية أملتها منه الشفاه محدثة أن:

«براجباتي» تحت دافع غريزي محض قد جاء بالكائنات عن طريق اتصاله بـ «أوشاس»!

ومن ثم فإلى «براجباتي» أبوة الكلّ تعود!

وقف «براجباتي» بمثابة الأب من كائنات هنا تعيش تحت أشكال من صور الحياة، وكائنات بها قد ارتحلت ظاهرة الموت إلى حيث نمت وفي تربة الكون، بعد تفتُّح هنا، هناك نضجت فصارت أرباباً شاركت وتُشارك في تنظيم الكون، ومنهم: فشنو وشيفا!..

إلى أسانيد اللآهوت الفادي استند اللآهوت البراهميّ فعاد إلى قديم القول وقال:

إن «براجباتي» إنما عن طريق التضحية بنفسه قد أوجد الوجود وعن هذا الطريق نشأت أبوّته للكل لمن هنا ولمن هناك من أرباب لم يصيروا إلى ما صاروا إليه وبالخلود فازوا إلا عن طريق اتباع الطقوس بتقديم القربان فإن الطقوس هي القانون الأعلى للوجود..

وبهذا أسلس القياد لحكم اللاهوت مجتمع يسلمنا إلى عهد جديد به بدأت، بظهور الوحدة السياسية، تحكمه ظاهرة الدين الرسمي!..

ببراجباتي، لتدعيم أوّليته في نظام الطبقات وإيقاف هذه المرتبة عليه وقفاً فتبين اللاهوت البراهمي الفكرة الفيدية القائلة بالخلق الفدائي، فعلى أسس الخلق الفدائي في الفيدا قام اللاهوت البراهمي يقيم لنظامه الكهنوتي صرحاً أحجاره سطور الريجفادا القائلة بأسطورة الخلق الفدائي لبوروشا، وعلى هذه الأسس يبني في الـ «سامافيدا» الصرح الجديد ويقول:

إن الإله بنفسه قد ضحّى وأجزاء الإله هذه المكونات ومن كينونته هذه الكائنات، ومن كل جزء من جسده قد أصدر طبقة... من يديه صدرت الطبقة المحاربة ومن باقي الأعضاء باقي الطبقات... وأما من الرأس فقد أصدر البراهمة!

بهذه البدعة، أسطورة الخلق الفدائي، تمّ تدعيم النظام البراهميّ، تمّ تدعيم الصرح البراهميّ القائم حتى الآن في هند اليوم التي تعاني من جراء هذا التقسيم أعقد المشاكل من مشاكلها الاجتماعية التي عليها جرّها فقهاء هذا الدين الذين إليهم تحوّل، بهذه البدعة، مجتمع يسلس لأمرهم القياد لاعتباره أن كل ما يصدر عنهم من أمر وقول فإلهي، فكل من رأس الإله قد صدر ومن ثم فهو من الإله يمثّل فكرة من الفِكر!... وبهذا أصبح تفكير هذه الطبقة هو الصواب وآراؤها الدينية هي الدين!

ومن حول هذه الطبقة التفّت الجماعات التي أطربها أن تراها أرباباً على الأرض تسير، بدورها إلى الجماعات التفت هذه الطبقة تقول:

إن الإله بنفسه قد ضحّى لأنه أراد أن يجعل من نفسه القربان جعل الضحية من نفسه لنفسه... وبالإله يجب التشبُّه!

إن الإله قد جعل من نفسه هذه الضحية ليمكّن أبناءه من أداء الطقوس حباً لهم ولمحض مصلحتهم ليفوزوا بالخلود. فما كان فوز الأرباب بالخلود إلاّ عن طريق تقديم القربان وتأدية الطقوس!

إن السجلاّت الدينية للعهد البراهمي بهذا اللون من التفكير الدينيّ تسير، محورها هذه

العقيدة المستجلة أن على الإنسان فريضة الطقوس لترفعه إلى مقام الربوبية ويفوز بالخلود!..

ومن ذا الذي من أفراد المجتمع لا يبتغي أن يصير رباً ويفوز بالخلود؟

بفكرة الخلود، كهدف، تحكّمت الطقوس في مجتمع أثمله الفوز بالخلود في جنّة، فيها ما يشتهون!.. اللحم والنساء فيها ألوان وأما الخمر فأنهر!... ومن ثم أصبح الاجتهاد مقصوراً على تأدية الطقوس بل وتحكمت في المجتمع الطقوس واستفحل أمرها حتى أدّت إلى إنحلال تام في جميع مرافق الحياة الاجتماعية عامة فقد تكفّلت الطقوس بدرء المسؤولية والتحلُّل من الذنوب!..

أجل!... تكفّلت الطقوس بدرء المسؤولية والتحلّل من الذنوب عن طريق تأديتها حتى غدت «كارما» أو الأعمال، كما تسفر عنها نصوص البراهماناس، هي:

الطقوس

إن «كارما» أو الأعمال تنحصر في الطقوس، بل إن الخلود تكفله الطقوس فالطقوس هي التي تَحُول بين النفس والعدم!

أجل... للفكرة الفيدية عودة في جنبات هذه الفكرة البراهمية الآتية بمشكلة الخلود ونظرية الخير والشرّ في الدين البراهميّ فإنه عن العقيدة الفيدية التي جعلت جميع الأعمال البشرية خيرية وأن الشرّ لا يأتي إلاّ من التقصير في أداء الطقوس، لا تنحرف الفكرة البراهمية إلاّ بالقدر الذي تؤيد فيه، بالطقوس، سلطتها ففكرتها إنما هي ذات الفكرة الفيدية ولكن مقننة كما تسجّلها نصوص البراهماناس القائلة: إن الأعمال البشرية مزيج من خير وشرّ وأن الواجب الإنساني ينحصر، إزاء ذاته، في إفناء العنصر الشرّي فيه، والاحتفاظ بالعنصر الخيريّ وتنميته لأن الخيِّر يذهب إلى الجوار الإلهي فيذهب إلى نعيم الخلود، وأما الشرير فيذهب إلى الجوار الشيطانيّ، فيذهب إلى ألوان من عذاب نهايته مطلق العدم!

ولكن.. ما هو الخير وما هو الشرّ، ومن الخيِّر ومن ذا هو الشرِّير؟.. هذه أسئلة عنها في البراهماناس تُفصح النصوص بأن المِعْيار هو أداء الطقوس!

إن الشرير هو الذي لا يقوم بأداء الطقوس!

والخيِّر هو الذي يأتمر بالطقوس!

أجل... في الهندوكية صيغ عبادة للصيغ الفادية تغاير، وتغايرها يختلف في التوجّه إلى كلمة الكينونة، بيد أن الجوهر من الدين البراهميّ لا يميزه عن الدين الفادي إلا التزمّت في أداء الطقوس، وهذا المميز نفسه غدا هو هيكل جديد الدين!

ولكن... في البناء الدينيّ، نفسه، الآن تصدُّع، ففي البناء الهندوكيّ البراهمي خلل!... خلل، إليه تتنبّه في داخل الصرح اللاهوتيّ ناحية هي تلك التي يتمثّل فيها العقل الإنساني وبها يقترب الآن من مرحلة النضوج... فهناك قصة من قصص الدين الهندوكي، لم يعد يتقبّلها العقل الصاعد مدارج النضوج، فالقصة قصة تمثل مجون العقل الإنساني يافعاً وتحلّله من قانون أخلاقي يجعله «المبدأ الخالق» عارياً من الخلق!... قصة إليها مستوعباً يعود، فيقرأ:

إن «براجباتي» أحسّ يوماً بشغف شديد نحو ابنته، ربّة الفجر، أوشاس، وما أبدى لها هذه الرغبة حتى ارتاعت منها ارتياعاً شديداً ونفرت من وجهه مذعورة فتعقّبها وأخذ يرقب حركاتها... فكلما تشكّلت بأنثى كائن من الكائنات تشكّل هو بصورة ذكر هذا الكائن وظلّ على هذه الحال حتى استولى عليها ونال منها بغيته فحملت بأول أفراد هذا العالم، وأن بهذه الطريقة ولدت الكائنات وولدت «ديفاس» أو الأرباب وولدت «أسوارس» أو «الشياطين» فإن الشياطين، كالأرباب، أيضاً أولاد براجباتي، الفرق بين الاثنين هو أن الأرباب من أولاده هم الذين يمثّلون الخير والحق المشخّص المتمثّل في القيام بالطقوس فهم أرباب لمعرفتهم الطقوس، وأما الشياطين من أولاده فهم أولئك الذين يمثلون الشر والباطل المشخّص وهذا أيضاً يتلخّص في عدم قيامهم بالطقوس فقد أصبحوا لعدم تأديتها شراً مجسماً أبداً يشنّ غاراته على الأرباب الذين يحميهم «براجباتي» ولكن دون أن يدري فهو لا يكاد يُفرّق بين الفريقين فإن الأرباب، أنفسهم، لا يؤلف فيما بينهم إلاّ تهديد الفريق الآخر المضاد، وهذا هو العامل الذي انتظمهم إلى مملكة تحت سيادة «إندرا» ومن في جنته يعيشون!... والإنسان بين الفريقين مصيره رهين الطقوس!...

هذه هي القصة الدينية التي رجّت أرجاء اللاهوت البراهمي وفي داخله هزّته هزّات شطرته أقساماً تناثرت أحزاباً كان أبرزها ذلك الحزب الذي تمثّل فيه العقل الإنساني فتخلّى عن دينٍ عاطل من القانون الأخلاقي وانتفض مرتاعاً ومن المقت والازدراء لبراجباتي حمله شعور إلى من إليه يحن منه القلب من عميق اللاّوعي: «شيفا»

طبيعي كان من القلب لشيفا التحوّل وبه الاستنجاد استجابة لهذا الشعور المستجد المعلن بلوغ العقل الإنساني مرحلة الإحساس العاطفي وتحوّله عن جموح الغريزة إلى التفجّر العاطفي.. ومن ثم فإلى تلك الأسطورة تضيف يده من الأساطير أسطورة أخرى تقول: إن الأرباب بـ «شيفا» على أبيه مرتكب الفاحشة قد استنجدت، فلبّى المُنْتَقِم «شيفا» الاستنجاد وطعناً قتل «براجباتي».

وهكذا يبدأ في تيار التفكير الديني ولوج المذهب الأخلاقيّ في دين الطقوس ليطالعنا:

المذهب الشيفي في مجرى الدين الهندوكي وتحوّل الدين إلى الأخلاق

بُعث من طيات الماضي «شيفا» بهذه الفئة من قلب الكهنوت البراهمي بيد أن إلى «شيفا» لا تتحول هذه الفئة تحوّلها القديم تراه رباً يُنزل على كل شيء بطشه وإنما ترى أن بطشه لا يقع إلا على الرذيلة!

وفي المخيلة علا «شيفا» سيداً في يده المِحَن والمِنَح ـ بالمِحَن ـ يرمي مَنْ عن الطريق المستقيم يحيد، وبالمِنَح يمنح من في طريق الفضيلة يسير.. في يد شيفا مفتاح الطبيعة ففي يده تلك العملية السرمدية الممثلة في ظاهرتيّ الحياة والموت!

في شيفا، تمثّل الوجود الكونيّ بسرمده فأضحت صفات النقمة للرحمة عنواناً... صفات، بوصفها أفاض اللسان البراهمي إفاضة نحت بالتفكير منه ناحية التأمل الديني لتتّجه به الاستزادة من هذا التأمل إلى صوفية صفتْ بها نفسه فتفجّر في قلبه ينبوع الحب وطلع يتغنّى بشيفا رحيماً لا ينزل النقمة إلا انتقاماً، فضربته ليس دافعها إلا الحكمة وليس سببها إلا: الحب!

صورة لشيفا جديدة نحوها يتّجه الوجه البراهمي يُلقّبها: «المخلِّص»

ولعبادة «المخلِّص» بدأت تُدمج في الطقوس الدينية صيغ تسابيح، إلى شيفا تُرفع وبمعنى السيادة تناديه: «بهاجفان»!

امتلك شيفا من المجتمع الهندي الناحية العاطفية فراحت هذه الناحية من المجتمع الهندي تُطوِّف السفوح ولها برب وصلت صفة الحب صلته بالكون والكائنات حتى غدا، بما في يده من أسباب الموت والحياة وبما انتفى عنه من صفة التجرُّد، لا تفصله فواصل عن عُبّاد تراه منها قريباً!...

قريب غير بعيد شيفا!.. فهناك في «جوري سانكرا» أعلى قمم الهملايا، مستوٍ في وضع تأمليّ «بهاجفان شيفا»!... مستغرق في تأمّل مواكب البشرية في ركب الزمن حامي القانون الأخلاقي... فلو عن الفضيلة انحرف منحرف لانصبّ عليه منه غضب... كالجانجز!.. إن الجانجز من رأس شيفا قد انصبّ لرذيلة أتاها «بهاجيراشا» وغضباً تدفّق جارياً حتى بنارس! وإلى المتُّخذ له مكاناً أعلى القمم، ارتفع الوجه الجماعي قاطبة وارتاحت على الراحة الراحة... وعلى الراحات المطبقة ارتاحت للجماعة نفس وهوى العُبد الخُشّع ركعاً أمام رب أبوا إلا مناداته، بصيغة الرب الأكبر: «ماهاديفا»!

في الأفق الإلهي تبلور «شيفا» فبدأ نحو سمت الألوهة يتخذ طريقاً بدأ يُعبّده له كهنوت

فدخلت صيغة عبادته تدريجياً وشيئاً فشيئاً في قلب النصوص البراهمية لتكوّن في الدين الهندوكي لشيفا مذهباً قويت بصيغ عبادته الناحية الأخلاقية فبدأ تحوُّل الدين إلى الأخلاق...

أجل... لشيفا جرى مذهب عبادته تنحصر في؛ الاعتصام بمكارم الأخلاق ولجّ مذهبه في نطاق الدين الهندوكي ليجري في مجرى دين، شريعته الطقوس، مذهباً شريعته؛ «الأخلاق»..

بهذا التحوّل بدأ العقل الإنساني يستشعر تفاهة الطقوس فبدأ التململ من جوانب أخرى وبدأ هذا السؤال: إن الكهنوت يحصر الخير في أداء الطقوس والشر في الانصراف عنها.. فما هي ماهية الخير والشر؟

بسؤال ماهية الخير والشر، انبثق، في صرح الدين نفسه، الضمير الإنساني!... وبانبثاقه تنبّه العقل الإنساني فوجد نفسه يعيش في جو يخنقه الدين الهندوكي بأغلال عادات وقيود طقوس لئن كانت قد استعذبتها من المجتمع فئات فمنها قد أرهقت فئات أخذت تتململ ويشتدّ تحت ضغط النير الكهنوتي تململها حتى أفقدها التململ الصواب فاندفعت في كل متّجه!... فهناك فئات من المجتمع قد انحلّ، بسبب تمسّكها بالطقوس، تماسكها الاجتماعي والأخلاقي انحلالاً به تقلّصت الحالة الفكرية للبلاد!... ظاهرة أدّت إلى ظهور ناحية من هذا المجتمع اندفعت مهتاجة على قيد الطقوس ومتدفقة اللسان انطلقت تخطو تلك الخطوة التي حتمتها الحالة الراهنة للبلاد فتقف من الدين القائم ذلك الموقف الذي سجّل على هذه السفوح:

النظرة السفسطائية إلى الدين

للفيدا، الكتاب المقدّس، تناولت السفسطائية فنالت منه بالهجاء مستصرخة الحقيقة من وراء كتاب ترى أن آياته شيء وتفسيرها شيء آخر.. فهي ترى أن لأغراضه قد أخضع الكهنوت من هذا الكتاب الآي فحوّر في صريح نصوصه وأول بما ورغباته يتفق! من ثم ينطلق اللسان السفسطائي متسائلاً:

أي دين هذا الدين الذي يقوم على تعريف الخير والشر بأن الخير والشر وقف على أداء الطقوس!؟

إن الخير والشر الذي يقوم على تحديدهما هذا التحديد الدين، إنما في محض نسبية كل منهما مطوي... فإن الإنسان مقياس كل شيء!

وتقابل هذه الصيحة التي أرسلتها ناحية من المجتمع بالسخط على قائم الدين، ناحية أخرى من المجتمع لداوي دوّيها ترجّع وبتمثّل هذا الترجيع في أصداء هذه الموجة

الاستهجانية الممتدة من نفس فقدت الثقة من الخير والوثوق بالحق، تواصل استنكارها للدين، وموقفها إزاءه يسجِّل:

النظرة «المادية» إلى الدين

وللفيدا، ككتاب مقدّس، تناولت «المادية»... ونيل السفسطائية وتنديدها نالت منه وندّدت، وعلى أسس من تاريخ المصدر أعلنت استنكارها المصدر القدسي للفيدا فأعلنت إنكارها هابط أو منزّل الوحي!

أجل... تعرّضت النظرة «المادية» إلى مشكلة الوحي الهابط بيد أن لم تتعرّض المشكلة بالسبر الصابر على الحلول، وإنما استنكرت ديناً هذا لونه فأنكرته، ومن ثم طبعها هذا الإنكار بمادية أنكرت، تحت تأثيرها، النفس وتساءلت:

ما هذه النفس التي يصوّرها الدين ويُصوِّرها حياة أخروية بصور يجعل الخلود فيها رهين الطقوس؟! إن الدين على الطقوس يقوم ليكسب النفس الخلود، فأين النفس؟!

لا شيء النفس! فلا شيء هي سوى تلك الحيوية الموجودة في الجسم ـ ومضة تُومض ـ.. وتمضي!

شعلة إنما النفس في الجسم، إذا ما قضي قضيت!... إن هذا لحقيقة وعليها تأتي الشواهد والأدلّة بأن النفس شعلة في الجسم وعلى الجسم ضعيفة الأثر والتأثير فإن على سلطانها للجسم سلطاناً، وإلا فأين تكون النفس وأين مكانها إذا ما أوهن الجسم مرض وأرهقته للدنيا صنوف آلام؟!

أجل... في نطاق الدين الهندوكي، ناضجاً، تنبّه العقل الإنساني فرأى ثورة على الدين تندلع بهاتين الظاهرتين «السفسطائية» و«المادية»، وعلى الوضع الكهنوتي وجد كل منهما، بالثورة حقاً حقيقياً! ولكن صبغت الواحدة رعونة التسرّع وصبغت الأُخرى صلابة التشبُّث وبين سفسطائية تستنكر ومادية تنكر يقف مجتمع وراء الظل الكهنوتي تسير جماعاته تؤدي الطقوس!

من بين البراهمة وفي داخل الصرح الكهنوتي، ناضجاً، تفتّح العقل الإنساني على جو زمني هذا لونه فوجد نفسه يتحوّل تمام التحوّل إلى تعقّل فيه رأى أن تفكيره كان تفكير الشباب عندما جاء بعقائد واستنّ طقوساً لئن استمسك بها من جماعته الكهنوتية الجانب الأكبر وتبعتها جموع الجماعات، فإنه عن هذه الطوائف الكهنوتية والجماعات الجماعية ينسلخ!

أجل... ما زال عليه من الكهنوت رداء، ولكن الفكر منه من التفكير الكهنوتي البراهمي

قد تحرر وعن التفكير الدينيّ الهندوكي قد نما! نما، فنما بنموّه التفكير الإلهي واتسع للإلهيات أفق تجاهه وجد نفسه لفكرة استواء الإله وهبوط الإله على الجبال، نفسه تمعض!... وتستهجن منه النفس فكرة التقرّب بقرابين وضحايا من اللحم ترسل محرقات إلى... إلى من!؟

ولكن!... الدين يُعد للنفس خلوداً يجعله رهين طقوس عليها قوائمه كدين تقوم، وعلى الدين تثور من المجتمع فئات في اتباع للنظرة «المادية» وحجّتها أن لا وجود للنفس بينما يسير الجانب الأكبر من المجتمع في رسف الطقوس مسوقاً إلى تأديتها بحركات محض آلية طمعاً في اكتساب الخلود للنفس... فما هي؛ النفس؟

سؤال!.. سؤال، تحوّل به العقل يلج في لجّة النفس!.. لج العقل في لجّة النفس فسجّل:

الإصلاح في الدين الهندوكي

في فجر القرن السابع ق.م بلغ العقل الإنساني على هذه السفوح مرحلة النضوج فاتّسع أمامه أفق وضحت فيه واضحة تفاهة الطقوس!

وضحت للعقل، ناضجاً، الماديّة في طقوس عبادته براهمياً فتحوّل عن الطقوس معرضاً، ولها بأقلامه هادماً!...

في ترفع عن الـ «براهماناس» والـ «أرنياكاس» ابتعد العقل فسجّل بعد سجل سجلاً... سجلات، للواحد بعد الواحد نتناول وننشر وبنشر الواحد بعد الواحد ينتشر للهند من العهود العهد الذي خلد فيه الفكر الإنساني إلى نفسه، خلياً من قيد الدين القائم ومن التزاماته وتكاليفه متحرّراً، يسرّ إلى نفسه بالجديد من التفكير عن الدين وعن النفس.. وبهذه الأسرار راحت يده تسجّل هذه السجلات التي طلعت باسم؛ «السجلات اليوبانيشادية» أو «التعاليم السرية» التي راح مسطّراً، منذ فجر القرن السابع ق.م حتى مغرب القرن الأول ق.م، منها الأجزاء المائتين والخمسين... أجزاء، بنشرها ينتشر العهد الفلسفي والدين الصوفي العقلي، ويطالع الفِكْر هذا العهد الذي سجّل مطلعه:

انبثاق المذهب اليوبانيشاديّ

لا يهمنا من الأجزاء المائتين والخمسين اليوبانيشادية إلا قرابة عشرة قصرت عليهم الأهمية، منهم الـ «مايترى» ومنهم الـ «سفاتارا»، وأما أهم العشرة في هذه السجلات فالسجلان الأوّلان اللذان جريا بتسطيرهما الفكر اليوبانيشادي فيما بين القرن السابع والقرن السادس ق.م:

«بريهدارانيا كا ـ يوبانيشاد»

«شاندوجيا ـ يوبانيشاد»

بهذين السجلّين اللذين لم تُدع لهما قدسية وبهما لم يحف حفيف «الوحي المنزّل» ندخل العهد اليوبانيشادي فندخل عهداً جديداً تفتّح فيه، في تربة النفس، الفكر تفتّحاً قلما بلغه إلا لماماً على غير هذه السفوح، فالتفكير ليس بجديد فحسب وإنما غريب على كل ما قد سبق للعقل الإنساني من تفكير فهو يمثّل في تاريخ الفكر لا حالة التحوّل من حال إلى حال، وإنما نقطة الفصل بين حال وحال، فمن هذا التفكير تعبق لأول مرة في أرجاء الوجود نسائم الطُهر الصافي صافية قوية الأريج، لا يضيع تضوّعها في طيات الأجيال! كلا.

وإنما بنشر هذه الصفحات ينتشر هذا الأريج العطر فواحاً يحدث بها فلسفة عقلية لها من طوابع الفلسفة الطابع الصوفي، ويسجّلها حكمة حكمت التفكير الهندي خلال الأجيال قاطبة بل وتحكّمت في أدوار تاريخ الفكري في مدار الأجيال دوراً بعد دور فلتعليمها رجعت أصداء الإسكندرية الهيللينية الرومانية، وبغداد الإسلامية...

بهذه الفلسفة التي ستحكم الوجود العقلي وتأتي في مراحل التفكير بخطير التحوّلات الفكرية بما جاء به تفكيرها الفلسفي من صوفية عقلية جانبت الصوفية الدينية وتحوّلت عنها تمام التحوّل، يطالعنا الاتجاه الجدي نحو بناء الأساس الصحيح الذي يقوم عليه صحيح الدين بهذا الاتجاه الجدي نحو:

معرفة النفس

أتريد النفس أن تعلم ما النفس؟... إذن فلتبحث عن الأصل بحثٌ، كانت نتائجه:

شروق «التجردية» وتأليه «القوة السرية براهما» وانبثاق فكرة «المطلقية» وإلغاء الطقوس وقيام الدين الصوفي.

في ترفّع عن عبادة مادية وصوفية دينية محورها فشنو وشيفا، ارتفع العقل الإنساني إلى تفكير تجرّد من المجرّدات يصل تفكيره في تلك القوة الغامضة التي عن وجودها أفصحت غامض نصوص الريجفادا ومُبهم سطور البراهماناس... فإن العقل الإنساني، بهذين السجلّين اللذين أقامت يده بهما مدرسة فلسفية، ليستهل الاقتراب من الصرح القائم في أرجائه الدين بفكرة:

«إن هذه الجمهرة من الناس لك تقول: «اعبد هذا الرّب وآخرون لك يقولون بل ذاك! بينما في الحقيقة ليس هناك إلاّ واحد هو الموجود، وهو كل الوجود!..»».

«بريهدرانياكا ـ يوبانيشاد»

وبرأيه أيقن العقل فقام ينفي وجود الأرباب معلناً أن ليس هناك إلا إله واحد جامع لكل ما قد فرّق العقل يافعاً من صفات ووهماً جعلها متفرّق أرباب... فكان اليقين يقيناً أسلم الفكر، يوبانيشادياً، من «التعدّد» إلى «الوحدة»، وإلى التفكير في هذه القوة الكونية التي قديماً، في حداثته وشبابه، قد أدرك، وإن يك بإبهام وغموض، لها وجوداً... فمنذ بدأ شعره ينتظم الريجفادا وشفتاه بها تهمهم «كلمة» تعني القوة العاملة في الكون! همهمة رجّعها أصداءً في البراهماناس... وكقوة سريّة عنها تحدث في البراهماناس بل وأفاض فعناها الأصل حين همهمت بها شفتاه: «براهما»!

أجل... قرون الآن قد مضت منذ صيغت شعراً أناشيد الفادية وآيات الريجفادا... وزمن من الزمن مضى منذ سجّلت اليد سجلات الأتارفا وباعدت بين الأرباب تدريجياً وأطلقت عليها اسماً واحداً شملها جمعاً ليجمعها جمعاً ويفنيها في وحدة إلهية، بيد أن نحو هذه الحقيقة السرمدية، في الريجفادا كبا العقل صبياً وفي «البراهماناس» يافعاً تعثّر، فما أدرك ويده تسجّل منهما سطوراً أن «الأول» الذي عنه يبحث هو ما قد عناه بالأول، وأن السرّ المجرّد إنما هو المجرّد: «براهما»!

«حقاً إن في الأول كانت هذه الكلمة: براهما حقاً إن في الأصل كان: «براهما!»».

«مايترى يوبانيشاد»

كلا!.. ليس من تعريف «للسّر» الذي عنه يبحث ولا لتعيينه أبرز من الاسم الحاوي معنى السرّ، الاسم الذي به فاضت أشعاره، فادياً، والذي منه الصورة اللفظية على شفتيه الآن ترتسم بينما على صفحة الذهن منه يرتسم معنى جديد للألوهة ويتبلّور، ففي أرجاء الفكر تدور اللوالب الفكرية اليوبانيشادية بأن:

ما دام أساس الوجود في الأصل هو هذه «القوة السرّية» فإنما هذه القوة القدسية هي؛ الألوهة.. ومن ثم ليس هناك حقيقة إلا «الواحد» وليس عليه دليل إلا هذا الاسم الدّال على أنه الأول؛ براهما!

وراحت هذه التعاليم الجديدة المدوّية بألوهة «القوة السرية» وأن هذه القوة هي «براهما» في الأرجاء البراهمية دوياً!

ومن حول ألوهة «براهما» توافقت متعارض التيارات الكهنوتية واجتمعت طوائفها تجمع على أن هذه «الكلمة» التي توجه منها إلى «السر الكوني» وتعني معنى الكينونة، هي الحقيقة وأن الألوهة الصحيحة إنما تنحصر في: «براهما»!

وببراهما بلغ العقل الإنساني على هذه السفوح خالص وحدانية خالصة، ليبلغها تفكيره

الفلسفي مجرّدة في رحاب سبح فيه منه التفكير يستشف ماهية «الأول» وصفاته فعاد يرى أن معرفة «الأول» أو بعبارة أصحّ التعرّف إلى الإله إنما تنحصر في معرفة صفاته وماهيته... وما من سبيل إلى هذا التعرّف سوى طريق وسيلته:

المعرفة... وإلى «المعرفة» طريق العقل شتّى الطرق... فوجد أن كلما ازدادت معرفة العقل ازداد قوة.. تحقّق أن المعرفة إنما القوة والقوة إنما المعرفة... فتحوّل بتعليمه يسرّ أن «السر» قد بدأ بسرّه يفضي فإنما «براهما» القوة السكونية هو:

المعرفة!.. وازداد العقل تفسيراً في طبيعة هذه «القوة السرية» فوجد أن المعرفة الكاملة لا تكون إلا نتيجة فكر... ومن ثم فبراهما إنما يقينا:

المجرّد!.. والمجرّد؟!.. «المجرد» إنما؛ مجرد فكرا!..

واستغرق الفكر اليوبانيشادي في تأمله هذا «الفكر المجرّد» فوجد «براهما» وهو القوة الكونية والمعرفة الكاملة و«الفكر المجرد» إنما يقيناً أن ماهيته:

الفكر اللاّمتناهي

ومن ثم فـ «براهما»، وهو «المعرفة الكاملة» و«الفكر اللاّمتناه» والموجود الأول العالمي الكلي، تغدو له صفة لازمة:

المطلقية!..

عن طريق التفكير البصيري أو الحدس جرى المنطق اليوبانيشادي هذا المجرى.. فجرت اليد اليوبانيشادية تعلن: أن براهما هو:

المطلق الكلّي!.. ثم إلى حلقة حتمية من سلسلة المنطق انتهى العقل اليوبانيشاديُّ فانتهى إلى أن: «المطلق الكليّ» إنما أصل لوجود نابض بالحياة... من ثم، والحياة نفس، فإن «المطلق» نفسه؛ نفس!... وفي أفق البصيرة امتدّ الفكر صافياً متأملاً فتحوّل «بتعاليمه السرية» يُسر: أن القوة الكونية إنما «نفس كونية» وأن «المطلق» ليس إلا نفس أو «أتمان»!

وبالأتمان، سكنت النفس!.. سكنت النفس فشف الفكر إلى رحاب تلاشت فيه للمادة قوى وبرزت قوة واحدة لا تقبل التقسيم القديم... اضمحلت كل قوى إلا النفس!

من ثم لا تسأل ما ماهية «الماهية» ولا تسأل ما هي «الصفات» فحسبك لوجود «السر» معرفة وحسبك أن تعرف أن «براهما» أو «الأول» أو «السر» إنما عنه صفة العنصر الجنسي تنتفي!

لا بإله رجل «السر» ولا «السر» بإله على عرش مستوٍ وإنما الألوهة نفس «السر»!... الإله

هو نفس «براهما» الساكن فيه بما فيه يمور الكون!.. كلا لا يتجلّى «السر المجرّد» فالسر المجرّد لا شيء ولكن!.. هذا اللاشيء هو: كل شيء!

تخطّى الفكر اليوبانيشادي اللحظة الفاصلة بين تفكير الحداثة ويقظة النضوج فاتّسع لديه من الآفاق الأفق الذي بزغت فيه:

عقيدة «براهمان أتمان»

آمن العقل اليوبانيشادي بأن براهما هو الأتمان، وبهذا الإيمان تحوّلت هذه الكلمة، كلمة براهما، التي كانت توجّه إلى معنى الكينونة، من موجود لا شخصي إلى جوهر شخصي، فقد أسلم العقل نفسه إلى تفكير جرى فيه منطقه بأن:

براهما، وهو الجوهر اللاشخصي والقوة الكونية والأتمان، إنما في كل شيء موجود أو بعبارة أكثر وضوحاً إن كل صغيرة وكبيرة من أجزاء الوجود فمشتملة على: «براهمان ـ أتمان»...

إن «براهمان ـ أتمان»، هو الحقيقة في ومن كل شيء... وسواء أكان هذا الشيء جماداً أم حياة فإنما هو حقيقة الشيء الجوهرية!..

«براهمان ـ أتمان» هو الحقيقة المتحقِّقة في كل ظاهرة... من ثم هو في كل شيء حال وهذا الحلول هو الذي يحقق لكل شيء وجوده وكل شيء تتوقف حقيقته أو باطليته بقدر ما، قلة أو كثرة، على هذا «الجوهر السرمدي» منه سرمدي الجوهر يشتمل!

على هذه الأسس تحوّل العقل، يوبانيشاديا، من العالم الخارجي إلى العالم الداخلي وفي هذه اللجّة لجّ فوجد؛ أن «براهما» هو «الكل» وهو النفس الكليّة «أتمان» وهو الأصل في النفس الكائنية «أتما»!

ومن ثم راح المنطق الرصين يعلن؛ أن كل نفس فردية إنما من هذه «النفس الكبرى» جزء وأن هذا الجزء مشتمل على شبه براهما!

إلى أعماق النفس عمق العقل، يوبانيشاديا، حتى تدرّجت المراحل التطورية بتفكيره الإلهي إلى أن يرى أنه ليس هناك إلا «أتمان» واحد أو «نفس كبرى» متكثرة في نفوس متفرقة هي جوهرياً واحدة ونفس «النفس الكبرى»!

وعلى أسس هذه البراهين التي انتزعها العقل من أعماق النفس على وجود «النفس الكبرى» ارتقى به التفكير سمت أشرف منه فرأى أن النفس إنما بطبيعتها، نصيبها الخلود!

إن «الأتما» أو النفس إنما الصغرى من الكبرى ومن ثم فهي من الخضم النوري الصافي

قطرة منيرة صافية أحاطت بها أغلفة من المادّة في صورة هذا الجسد ففصلتها عن «المصدر» وحجبت الحقيقة عنها مادة هي في حقيقتها محض سراب!

من ثم فإن عندما تبلى أغلفة خيوطها سراب وتتراخى قيود أصلها عناصر وهمية، ستنطلق النفس من أسر وهمي وعبر هذه الظاهرة، ظاهرة الموت، ستعود إلى ذلك «المصدر»!

بهذه الفئة المُسطّرة الأسفار الأوّل من اليوبانيشادات بلغ العقل الإنساني على هذه السفوح مرحلة النضوج النفسيّ والفكري وبلغها على أسس سليمة من قواعد المنطق الصوفي الفلسفي، فقد استدارت هذه الفئة معلنة:

أي وهم للسلف على صفحات البراهماناس وقد غمر؟!... وهم، في غمرته تخوض الجماعات فواهية إنما هذه الطقوس التي يجعلها اللاّهوت البراهمي بين النفس والعدم تحول!.. وأي عدمٍ للنفس يصيب وهي، إنما «مطلق» في «المطلق»؟!

إن النفس، كجزء من الألوهة، طبيعتها الخلود!.. من ثم فاللامعنى معنى الطقوس!

انتقد الفكر اليوبانيشادي الطقوس وتحول يعرّف النفس بنفسها بها هاتفاً:

أيتها النفس لا تخشي العدم فالعدم عنك معدوم! من الخضم النوري الصافي أنت قطرة منيرة صافية فصلتها عنه أغلفة هي محض سراب... فصلك السراب عن مصدر إليه أبداً منك هذا الحنين والأوارا!..

مصدر الحياة «هو» من ثم فالحياة أنت!

وأما الحقيقة المسفرة التي وضحت بها تفاهة الطقوس ووضح بها بطلانها كوسائل تؤدّى لتضمن الخلود اهتز البناء الديني في داخله هزّات شطرته إلى أقسام!

ولكن... إذا كانت روح المحافظة على البناء الديني قد اضطرت ناحية من الكهنوت للتعصّب لدين ورثته عن الآباء بالاحتفاظ بالطقوس فإن من داخل الصرح الكهنوتي نلمح بادىء ذي بدء التذمّر من النواحي الممثّلة مجرى التيار الفكري على هذه السفوح الناحية التي فيها تحرر العقل من طقوس بناها يافعاً ليرفع صوته، نامياً، ويعلن:

إلغاء الطقوس!

من أرجاء الدين ارتفع للحقيقة صوت سرى في مسرى الفترة التاريخية من الزمن للقرن السادس ق.م ملقياً عنه الرداء الكهنوتي متحرراً من الضحايا ومنطلقاً إلى أفق أمامه بعميق أسئلته يتسع ولصوته يرجع أصداء، معلّماً:

بدعة إنما هذه الطقوس التي تقف في حقيقتها، بين الخِدَع، الخدعة!

أعلن العقل تفاهة طقوس استننتها حدثاً فارتقى إلى طور أدرك فيه أي العبث كان العبث في دماء تراق وإشعال محرقات... بيد أن وإن ظلّت الطوائف المحافظة من الكهنوت تحافظ على تقاليد السلف وعاداته في صورة هذه الطقوس لتحوّلها تدريجياً إلى رموز تؤدى للعبادة، فإن هذه الطائفة الأخرى التي أبت إلا «للسر» في «تعاليم سرية» تعاليم قد أبت إلا اعتبار الطقوس رمزاً صارخاً لصارخ العبادات المادية!

بعيداً عن الطقوس تقف هذه «التعاليم السرية» تنادي الإنسان: إن الإنسان العارف إنما المتحرّر من الصيغ المادية المقيدة للنفس دون الانطلاق إلى عالمها، بل حائلة بينها هذه الطقوس والاتصال بالمصدر الذي منه، كقبس، قد انبثقت!... واهية من ثم وهم صيغ العبادات المادية فإنما:

«على النفس فقط، عبادة النفس»!

١ ـ ٤ ـ ١٥ «بريهدرانياكا ـ يوبانيشاد»

إن العبادة الصحيحة التي تقدّم إلى «النفس الكبرى» من «النفس الصغرى» تنحصر في التأمل والتفكّر ولكن! عن طريق؛ المعرفة!

إن بالمعرفة ينقّى القلب ومتى نقي القلب صفا ومتى صفا شع فيه النور وتلألأ تلألؤاً معناه ببراهما الامتزاج!.. وليس ذلك إلا رهين سيطرة النفس على الجسد!

غدت هذه الفكرة، فكرة سيطرة النفس على الجسد، عقيدة! فغدا الشاغل ينحصر في الانتصار بالنفس على الجسد عن طريق الزهد في كل متعة له وعنها التوبة واتخذ الزهد للانتصار على الجسد طريقاً واعتنقت مذهباً التوبة أو «تابس»!

أي المُتَع متعة تريد؟ تريد أن تكون لك الدنيا وأن لك الدنيا تدين؟

من ثم لا تحصرنَّك الدنيا بسرابها ولا تجعل مطلبك فيها مالاً ولا تاجاً... فلا تدين الدنيا إلاّ: «لذاك الذي وجد النفس..!»

٤ ـ ٤ ـ «بريهدرانياكا يوبانيشاد»

بالمعرفة تزود وارتفع بنفسك إلى رحاب «النفس»... وحينذاك!... حينذاك ترى أن لك الدنيا قد دانت!

صافية تهبّ نسائم الطهر الصافية من صفو صوفية اليوبانيشادات في ذلك الفجر من تاريخ العقل كثمرة تفتّحت بها تربة صوفية «نيرجرانتهاس» العائد بتاريخ مذهبه إلى القرن الثامن ق.م... فمن جذور تلك الصوفية تمثّل الصوفية اليوبانيشادية الثمرة التي ارتفع بها هذا

الفرع إلى الحقيقة فترفّع عن مادي العبادات إلى عبادة اقتصرت على المعرفة... ولأول مرة في تاريخ التفكير الديني يأتي الفكر بدين عقلي بعيد عن إراقة دماء ورفع محرقات، ويعلن أن الدين:

المعرفة! ما هي المعرفة التي تُحدّدها وتعنيها اليوبانيشادات؟ إن اليوبانيشادات لك تقول:

إن في المعرفة قوّة بل القوّة هي المعرفة وستقودك المعرفة، حتماً، إلى أن تعرف أن الوجود إنما في حقيقته ظلال.. وأنك متى عرفت أن هذا الوجود إنما **ظلال الحقيقة**، بطُل سعيك وراء الظلال واتّجه نحو الحقيقة...

أما كيف تعرف أن الوجود إنما في حقيقته ظلال الحقيقة فالوسيلة هي أن تدخل إلى نفسك وتبحث... عند ذاك ستعرف هذه الحقيقة، ومتى عرفت هذه الحقيقة وعرفت أن الحقيقة الواحدة هي «براهما» وأنه القريب البعيد... وأنه في «إنسان العين» وفي الفكر وفي النفس، فإن بحثك سيقتصر على:

معرفة «براهما».. المعرفة من ثم تنحصر في: الانطلاق إلى «المطلق» والتناهي في «اللاّمتناهي»! إن أعظم سرّ لك يتكشف هو أن تعلم هذه الحقيقة، ومتى علمت هذا العلم وعرفت هذه المعرفة، فإن الطمأنينة والهدوء يغدوان لك طبيعة، والصواب منك يصبح أبداً على صواب...

اصغ! إن الصوت من «المطلق» في داخلك حقيق صوت... إذا إليه أصغيت لا يمكن لك قط أن تنحرف وللشرّ دون الخير تميل، فصوت «براهما» فيك؛ **الحاكم الداخلي المشرّع** للأخلاق قانون!

بهذا التعليم تقودنا اليوبانيشادات إلى:

القانون الأخلاقي ونظرية الشخصي والمطلق والخير والشر

إذا كانت الحقيقة في الوجود هي «براهما» وأن ليس هناك حقيقة غير هذه السرمدية الحالّة في كل شيء، فما الشر؟

باغت العقل نفسه بهذا السؤال ليباغته أيضاً ما قد جرّه هذا السؤال من سؤال آخر، فقد قفى هذا السؤال، سؤال: ولم الجنوح نحو الشرّ ضعف الميل نحو الخير؟

بيد أن ما باغتت العقل من نفسه هذه الأسئلة إلاّ ولنفسه بنفسه أجاب:

لأن في الكائن الحيّ ناحيتين: المطلق والشخصي أو الحق والباطل... الحق في الكائن الحيّ هو نصيبه من «المطلق» بينما الزيف فيه هو الشخصي ـ إن الحق فيه هو نفسه، هو

النفس منه، هو مطلقه الأزليّ الأبديّ، ومطلب هذا أبداً إنما الخير فهو الضمير ـ بينما الزيف في الكائن الحيّ هو الباطل، هو هذا الشخصيّ، هو هذا الجسد، ومطلب الجسد ما عاش للغرائز إرواء وإطفاء!

وإلى ثنائية ينقسم هذا الشخص فهو يؤلف: الجسم الكائني، وكائن آخر يمتاز بالدقة والشفافية عن الكائن الأول هو ما نسميه بالنفس الشخصية التي تقابل النفس المطلقة في الكون العام.. وهذا الكائن أيضاً إنما بدوره ثنائي فهو ينقسم إلى قسمين: ماديّ وروحي.. الماديّ، هو القلب، وأما الروحيّ فينقسم إلى درجتين:

الوجدان أو المدرك الأدنى والعقل أو المدرك الأعلى «ماهات»

أما كيفية بلوغ المعرفة فهكذا: بالحواس، يتصل مركز الحياة في كل كائن فتلقى الحواس إلى القلب محسّاتها ليتولى نقلها إلى الوجدان الذي يرفعها بدوره إلى «المدرك الأعلى» للحكم... بيد أن للمعقولات العليا لا تستطيع، «ماهات» إدراكاً وإنما يتحدّد اختصاصها بإدراك المعارف الآتية عن طريق الحواس وبتذكر معارف الماضي وبالتنبؤ أحياناً بالمستقبل، ومن ثم فإنه كاتصال الأعضاء المادية الكثيفة بالعناصر المشابهة لها في المادية والكثافة، تتصل القوة الروحية الدقيقة بالمشابهة لها من العناصر!

عن المطلق والشخصي أو عن أجنبية المدرك الأعلى عن المادة وعن غمره إياها في نفس الوقت، فريداً وقف العقل الإنساني في خطوته اليوبانيشادية انفراده في تعريفه ماهية الخير والشر، فهو إذ يضع هذه النظرية، نظرية الشخصي والمطلق، إجابة عن سؤال نفسه لنفسه، فإنما ليعلن:

إن الصادر عن «المطلق» أو الحق فالخير... والصادر عن الشخصي أو الباطل، فالشر!

وهنا يتجه العقل الإنساني يجيب:

إن الخير والشر لا ينطويان في نسبية فإن للحق وللخير قانون يدعى: القانون المُسَطّر على القلب البشري!

على القلب مسطر قانون سطّرته «النفس» ينحصر في الخير فالنفس الصغرى إنما من «النفس الكبرى» نفس!

من ثم فسر على قواعد هذا القانون وعن مبادىء النفس لا تنحرف ولا تخلط بين خوالج النفس ونوازع الجسد فتقول خطأ إن النفس بالسوء أمّارة، فقط لا يمكن أن تكون النفس بالسوء أمّارة وماهيتها إنما نفس ماهية ذلك الخضم الطاهر، وهي، كقطرة من الخضم الطاهر، طهر خالص!.. الأحرى بك والصواب أن تقول إن الغريزة إنما بالسوء أمّارة أما

النفس فبالخير أمّارة أصغ إليها وبأمرها ائتمر.. اسمعها!.. إن صوتها، الحكم الداخلي، هو ما تسميه: الضمير!

إن مصدر الشر إنما نوازع جسد فيه الغريزة أمّارة بالسوء، فعن الشخصية أو الباطل لا يصدر إلاّ الباطل المغاير كل المغايرة للصادر عن الحق الذي إذا إلى صوته أنصت وبأمره صدعت لا يمكن لك قط أن تفعل شراً أو ينالك شر!.. أصغ إلى صوت الحاكم الداخلي فإنه الحق وهذا الحق هو النفس منك فالنفس منك من الإله قبس!

بهذه العقيدة الرابطة بين «النفس الكبرى» و«النفس الصغرى» بوحدة توعية تقودنا اليوبانيشادات إلى مشكلة المشاكل الدينية:

مشكلة الوحي الهابط والصاعد:

إن اليوبانيشادات تقول «بالحاكم الداخلي» الضمير وتتخذه البرهان على وجود الألوهة، وتقول به القانون المشرّع في الداخل «دهاما» أو الذمة، ومن هذه الفكرة تتخذ اليوبانيشادات مستنداً تستند إليه فتُلقي بتعاليم تحمل إلى الوعي الإنساني معنى استحالة الوحي الهابط والمكالمة والتجلّي الإلهي!

إن تعاليم اليوبانيشادات، المتخذة الضمير محوراً والقائلة بصوته قانوناً في الداخل مشرعاً لا ينتظر من الخارج هابط وحي، تلغي لغياً تاماً عقيدة الوحي الهابط!

للوحي الهابط تنتفي التعاليم اليوبانيشادية على أسس الرابطة النوعية بين «النفس» والنفس لتنفي على نفس هذه الأسس أيضاً نفياً قاطعاً التشاريع القائلة بها الأديان المنزّلة... وتنفيها على أسس عميقة من عميق صوفيتها الفلسفية!

أجل.. إن الصوفية الفلسفية في صورتها اليوبانيشادية لفكرة الوحي المنزّل كل وتمام المعارضة تعارض ونفياً قاطعاً تنفي وبرهانها الذي تقدمه هو: نفس الصوت الداخلي!.. فإن المكالمة من الداخل تنفي المكالمة من الخارج!

للوحي الهابط تنفي الصوفية، كفلسفة، على أسس هذا القانون الموجود في الداخل والذي تراه هاديها إلى الدين الحق، فإن هذا القانون الموجود في الداخل هو صوت النفس والنفس؟ النفس الصغرى إنما جزء من النفس الكبرى!

من ثم فهذا الصوت، صوت النفس، هو نفس صوت النفس الكبرى أو الإله! لو سار كل كائن وفق تشاريع الصوت الداخلي واتّبع له شريعة هي في رحاب التفكير الصوفي إنما الشريعة المثالية لدين مثالي، لجانب الشر وإلى محض وهم له رد! وما الشر؟

ما الشر إلا رغبات هي وليدة هذه الشخصية، ومن ثم متى تحرر الإنسان من الأنانية أدرك: أن لا شيء هناك قط اسمه الشر!.

إن الشر إنما مجرد ومحض وهم! أوشك أن الشر وهم؟... إليك البرهان، والبرهان: «ظاهرة الموت».. إن الموت يعرّف بالشر، بيد أننا قد مررنا الآن على النفس وعرفنا لطبيعتها خلوداً، عرفنا أنها من الخضم النوريّ الصافي قطرة منيرة صافية غلّفتها المادة، والمادة سراب ففصلتها بجسد له رغبات ورغائب عن «المصدر» الذي إلى العودة إليه تقود «ظاهرة الموت»... ومن ثم هذه الظاهرة التي تعتبر شراً إنما في حقيقتها ليست إلا محض خير!

أجل... هذا «الشر» الذي يأتي تحت ظاهرة «الموت» ليس في حقيقته إلا محض خير لأنه ليس إلا إطلاق النفس في رحاب «النفس».. فبينما يهن الجسد وفي انحلال إلى عناصر منه العناصر الوهمية تعود، تعود إلى مصدرها النفس... إلى المصدر يعود القبس و«بالنور» يمتزج في اتحاد النور!

كلا!.. لا إفناء في «النور الكلّي» للنور الفرديّ وإنما تفانٍ بالاستزادة من الوعي! فبهذا الاتحاد ستبلغ النفس المعرفة التي قلّما تتاح لها في نطاق هذا الجسد إلا إذا انطلقت من الحدود الوهمية لهذا الجسد الوهمي عن طريق التحرّر من شواغله.. فحينذاك تنعكس عليها، كقطرة تعكس كل الوجود، المعرفة!

إن النفس **في ومن** «النفس» وما دامت النفس الصغرى في ومن «النفس الكبرى» فإنها، بالموت، لا تنطفىء وإنما في تطور ستظل تتطور إلى أن تنتهي، بهذا الاتحاد، إلى المنتهى من السعادة، وعند ذاك تصبح **الوعي الخالص** الإدراك المدرك أنه خالص الإدراك العارف لم ينل المعرفة وإنما طبيعته قد غدت المعرفة، فإن في هذه الحالة من سعادة الاتحاد:

«تصبح النفس واحدة والنفس»

«منذوكيا يوبانيشادا»

ولكن!.. إلى هذا الهدف أو الغاية تقود أو تعطّل للإنسان «كارما» أو أعمال.. وهذه، كما تحتّم العدالة، عليها عدل الثواب والعقاب..

وهكذا تجابهنا في التفكير الديني البيوبانيشادي:

مشكلة الثواب والعقاب وانبثاق «عقيدة الصيرورة»

إن الإنسان يترك عند موته «كارما» أو الأعمال، الحسنة والسيئة، وهذه تُنتج نوعاً من المسؤولية يتحتم، طبقاً للعدالة، الثواب عليها وعليها العقاب..

ولكن أين؟! أين وليس لجسد بعد موت بعث في يوم، كيوم «أوزير» تُجمع فيه الأعمال وتوزن، كميزان «أوزير»، في ميزان كلا ولا هناك عذاب في نار ولا نعيم في جنة، كجنة «إندرا»، جزاء فهذا تفكير لتفكير الصوفية منافٍ... فأين؟

أين سيكون متحتم الثواب والعقاب وقد جفت المخيِّلة الصوفية لإندرا مكاناً أمام إدراك منها لجّ العالم النوري الطاهر الصافي، عالم «الأتمان»؟!

لم يبق مكان لهذا الثواب والعقاب إلا هذا الجزء «المادي» من الكون!.. وهنا تذهب اليوبانيشادات وتقول بالجذب العالمي والصدور في دورة دورية تدوم سرمداً... وإن هذا الصدور والجذب المسلسل ضرورة أخلاقية لأن في كل دورة تُجازى الأعمال وتعاقب بهذه الطريقة عن طريق:

الصيرورة!

هكذا انبثقت في أفق التفكير اليوبانيشادي عقيدة «الصيرورة»!... كضرورة أخلاقية انبثقت هذه العقيدة القائلة بالنسخ والمسخ والفسخ مما إليه تنقسم الصيرورة من صور إنسانية أو حيوانية أو نباتية... سيحمل الإنسان في إحدى هذه الصور، تبعاً لأعماله، فإن «كارما» أو الأعمال ستعيد إلى الدنيا من بها تعلّق فيصير، حسب لأعماله، إما فسخاً فيكون شجرة، وإما مسخاً فحيوان، وإما نسخاً فإنسان... حددت حياته الماضية حياته الحاضرة وتحدِّد حياته الحاضرة حياته الآتية!

ومن ثم فلا أولية لهذه الحياة الأرضية لأنها ثمرة حياة أخرى قبل هذه، ولا نهاية لها لأن على أعماله يجب أن يكفِّر الإنسان أو عليها يثاب في حياة أخرى لاحقة...

كلا! لن يتسنّى للنفس العودة إلى «المصدر» ما دامت هي في نطاق «الأعمال» لأن أعمالها تكوِّن هذه الحيلولة بينها والعودة إلى الخضم حيث تنال السعادة الكاملة بالاتحاد وبالخلوص من دورة حيوات فيها الشقاء والسعادة ألوان.. وكلها؟.. كلها حقيقتها: **سراب!**

من ثم لن يتسنّى للنفس العودة إلى «المصدر» إلا متى خلصت من كل هذه الأعمال، التي تسببها الشواغل الأرضية، بالتجرّد إلى «الأتمان» فإن:

«أولئك الذين يتجرّدون إلى «الأتمان» وعنه يواصلون البحث عن طريق الطهر والتقشّف والمعرفة... لهؤلاء لا عودة!».

١ ـ ١ «براسنا يوبانيشاد»

أما من بقي في نطاق «كارما» واتّبع ما عدا طرق النفس من طرق، ففي بيدق «عجلة الصيرورة» ستنقضي به، بولادة بعد ولادة، حياة بعد حياة في كل واحد منها يغمره، من ألوان البؤس والسعادة، سراب بعد سراب!

ولكن.. «أولئك الذين يعلمون هذا العلم! أولئك يذهبون إلى ملكوت براهما... فلهؤلاء لا عودة!...».

٦ - ٢ - ١٥ «بريهادرانيا كايوبانيشاد»

٤ - ١٥ - ٥ - ٦ «شندوجيا يوبانيشاد»

بمسطري اليوبانيشادات امتدت نزعة تأملية جاءت بهذه العقيدة، عقيدة «الصيرورة»، التي لم يك لها من قبل تحت هذا اللون وجود فإن «الريجفادا» لا تعرف الصيرورة، كلا ولا تعرفها «البراهماناس» التي تتوعّد الآثم بالموت ثانية في عالم آخر عقاباً فتجعلها موتتين، بدل مرة واحدة... ليس إلاّ في «البريهادرانياكا»، أولى الأسفار اليوبانيشادية، تطالعنا لأول مرة عقيدة «سمسارا» أو الصيرورة ومنذ ذاك الحين حتى الحين والعقيدة عقيدة الهند قاطبة فيها قد تأثرت المذاهب العقلية والدينية بل امتدت غرباً حتى اليونان الصغرى، حيث سنسمعها من الفيطاغورية تعاليم، بل وشقّت طريقها شرقاً حتى اليابان، حيث حملتها أجنحة البوذية، كدين وُلد في أحضان اليوبانيشادات...

أجل.. بالعقيدة الفلسفية اليوبانيشادية خُضب التفكير غير الهندي كما أصبحت هذه العقيدة، والأيام تسير، عقيدة الهند التي لا تقبل شكاً، فقد اعتنقتها الهند عبر عهودها التاريخية وكانت نقطة التحوّل في تاريخها الفكري الديني، فقد جرت هذه العقيدة في المجرى الديني كعقيدة من معتقدات الدين الهندوكي، وكعقيدة دينية جاءت بمذاهب شتّى، منها ما قد انصرف إلى الزهد، ومنها ما قد انصرف إلى المعرفة، ومنها ما قد تحوّل بدوره من مذهبٍ إلى دين.

أجل... مدوّية انسابت التعاليم اليوبانيشادية على هذه السفوح ترجُّ الأرجاء من الشمال والجنوب وتتجاوب فيها أصداء كانت لها أكبر الأثر في تحويل التفكير الهندي على مختلف نواحيه، فقد اتخذ هذا التفكير عقيدة الصيرورة تفسيراً لحالة البلاد المضطربة وجرى منطقه يقول إن هذا هو من ثم السبب في البؤس والشقاء!... وهذا هو من ثم السبب في الصور المشوّهة!... وهذا هو من ثم السبب في الفوضى السياسية وسوء الحالة الاقتصادية وفساد الحال الاجتماعية!

في الوعي الهندي ألقت «التعاليم السرّية» بهذه العقيدة فأودعت في هذا الوعي أن

الإنسان أسير ولادة بعد ولادة لينال الثواب والعقاب على الأعمال التي يقوم بها من خير وشر التي تقوم نفسها حائلاً وبلوغه السعادة القصوى بالاتحاد بـ «الأتمان»... أودعت اليوبانيشادات في الوعي المرهف أن جميع الأعمال البشرية توجب «الصيرورة» لأن كل عمل يأتيه الكائن الحي إنما يحمل في طواياه بعض مقادير من العدالة والظلم وهذا ما عليه سيُجازى بمستقبل يتناسب وما قد أدّى، وهكذا كل ولادة على الأرض فإن نوع حياتها وطبقتها الاجتماعية ولونها من هناء وبؤس إنما قد عيّنتها حياتها السابقة أيضاً على الأرض، وليس هناك انطلاق للنفس من بيدق الصيرورة لأنها حلقات إنما الأسباب والنتائج لا تنتهي!

من ثم جرت اللوالب الفكرية اليوبانيشادية ترى أن: يقيناً أن الأعمال، على اختلاف أنواعها، ملهاة للإنسان وعائق عن التفكير في جوهره **المطلق** والتفكُّر في ماله من الأتمان، وهذا لا ريب أنه، من غير استثناء، شرّ!

شرّ إذن هي هذه الأعمال التي تبعدنا عن التمركز في مطلقنا الأزلي، وإلى صورة بعد صورة تحولنا، وبين «النفس» والنفس منا تحول... من ثم فإن: جميع الأعمال، سواء منها ما كان خيراً في ذاته أم في ذاته شراً، كلها شر!

أيُّ الطرق إذن طريق الخلاص من الصيرورة؟ تجيب اليوبانيشادات أن؛ الخلاص من «الصيرورة» يتلخّص في: الاتحاد!

أيُّ الوسائل إذن يمكن بها للنفس، على هذه الأرض وفي نطاق هذه الحياة، الاتحاد؟

الوسيلة؟ الوسيلة إلى «الاتحاد» هي «أمر نرا» المتلخّصة في سعي النفس بالنفس للخلاص...

للتخلّص من شر «الصيرورة»، لا من الحياة كما وهمت للشرق وللغرب في صدد التفكير الهندي أقلام فإن النفس لدى اليوبانيشادات هي الحياة، استخلص العقل اليوبانيشادي خلاصاً...

للتخلُّص من شرّ «الصّيرُورة» بصورة بعد صورة، وكل الصور مهما اختلفت فكلها شر بل إن كانت تختلف عودة الخيِّر عن عودة الشرير إلى الحياة الأرضية إلا أنها في ذاتها شقاء وبائس وشقي الإنسان لأنه في كل مرحلة من مراحل حياته يعيش في طوايا السراب.. للتخلّص من شر الصيرورة لا من الحياة وإنما من وهم وأوهام الحياة، طلباً لحياة حقيقية تتحد بها النفس ببراهما، تعلن اليوبانيشادات أن أمامك، أيها الإنسان، طريقين هما:

المعرفة والاعتزال

المعرفة: معرفة النفس.. ترينا اليوبانيشادات الطريق الواجب لمعرفة النفس طلباً للنجاة..

فهو طريق تلخّصه اليوبانيشادات بقولها: «إنه يتلخّص في إخضاع الجسد للنفس إخضاعاً تاماً وتمرين النفس على التحرّر الكامل حتى تبلغ درجة الاتحاد بـ «النفس»!... وهذا الاتحاد بالمصدر والتسامي إليه يتم للنفس عن طريق تطويق نفسها بـ «النفس»!...

كيف؟! كيف يمكن للنفس أن تطوّق نفسها بـ «النفس»؟...لو استطاعت هذه القطرة المنبرة الصافية تبديد ظلمة الجسد وشقّ حُجب المادية الوهمية وتبديد غامر السراب!... لو استطاعت التغلّب على جسدٍ تشغلها شواغله عن مطلبها وعن عالمها! لو استطاعت التحرّر من نير الجسد ملاذ الغرائز وكلها من الأعراض الزائلة!... لو استطاعت النفس التحرّر من نير الجسد فحينذاك تكون قد ربطت نفسها بـ «النفس» وفي تطويق تكون ربطت منها النفس «بالنفس»!.. وحينذاك يكون قد تمّ لها «الاتحاد» على الأرض وهذه حالة يشعر المرء في غمرتها بأن حالته:

«حالة ليست بالوعي الداخلي ولا بالوعي الخارجي... وإنما الوعي الواعي الكامل الشاعر، تحت فيض من الشعور بالثقة فيّاض، إنه في حالة الاتحاد بـ «النفس»!».

٧ ـ «مندوكيا يوبانيشاد»

الحالة حالة بالنفس تحل كنتيجة لتغلّبها على العقبات فحين يتمّ لها، بالاستعلاء على الجسد، التغلّب على الجسد فحينذاك تشفّ شفوفاً تشق به سجف الحجب حتى رحاب «السر الأسمى»... وهذا الشفوف ينال عن طريق **تنويم الجسد وإطلاق طاقة النفس** وهذا يولّد؛ «**الغيبوبة اليقظة**» التي تسمى:

الجَذْبُ! حين يعمق التأمل في «الذات» وفي الذات في نشرٍ لطواياها تنطوي الذات وبواعي الغيبوبة عن الناس وعن الدنيويات تغيب، فحينذاك يضحى الواحد «والواحد» واحداً!.. هذه هي الوسيلة التي بها قد أطلقت النفس نفسها من قيد الأسباب الطبيعية، وطوّفت منها النفس بـ «النفس» فبنفسها النفس إلى الاتحاد بـ «براهما» في «عالم براهما» قد صعدت!

هذا هو طريق «المعرفة» أو الطريق الذي يطوّق بـ «النفس» النفس... الطريق الذي أصبح يسمى «يوجا» ليتحوّل إلى مذهب نعرفه باسم:

اليوجية.. مذهب اليوجية اعتنقته الناحية الروحية في الهند القديمة بل وما زالت «اليوجية» من أثر ذلك الماضي في هند الحاضر تعيش بتعاليمها منهجاً لإطلاق القوة المختزنة للنفس... وما زالت اليوجية في غير الهند تعزل ناحية من الناس إلى معزل عميق في أنفسهم لتبلغهم الذروة ببلوغها بتعاليمها الذرى!

والاعتزال: اعتزال الأعمال... بديهي أن إذا كانت الأعمال تؤدي إلى الصيرورة فإن اعتزالها يؤدي إلى الخلاص...

لهذا السبب سجّلت اليوبانيشادات أن، وجميع الأعمال البشرية شر دون استثناء، كل عمل من الأعمال لا يجدي نفعاً وفي حقيقته إنما سلبي لا إيجابي لأنه يُصرف الإنسان عن التفكير في الحقيقة الباقية... واليوبانيشادات إذ تقول القول فإنما تقوله مستندة إلى مساند قوية من حكمتها التي تغلغلت إلى ما وراء المظاهر للأشياء وأدركت أن ليس الظاهر في حقيقته إلا وهماً وأما الحقيقة فمحجوبة بحلم الحياة! وبدافع هذا السبب تنادي اليوبانيشادات الإنسان:

يا أيها الإنسان إنك متى علمت أن الوهم إنما كل ما تلمس وترى، وأن السراب كل ما تجيء به إليك الدنيا مما تحسبه أقصى السعادات، لتساءلت:

أي شيء له أملك وأنا من نفسي شيئاً لا أملك؟!

انتبه وتنبّه! إن الحياة حلم، فأفق وأدرك أنك إنما تعيش في حلم!..

تعقّل العقل الإنساني، يوبانيشاديا الحياة فأدرك أن الحياة الحلم... أدرك فأدرك أن سعيه إلى النجاة من ربقة صورة بعد صورة يتلخّص في الخلاص والخلاص طريقه ربط الجزء بـ «الكل» عن طريق تطويق النفس بـ «النفس» وحينذاك، على الأرض، تبلغ النفس «الاتحاد»!

وبلوغ «الاتحاد» بتطويق النفس بـ «النفس» وطرْق «اليوجا» طريقاً خلدت الناحية الروحية من الناس إلى اتخاذ طريق «تاباس» أو التوبة...

وبـ «تاباس» ارتسمت صورة الزهد في كل عمل واعتزال الأعمال اعتزالاً تاماً حتى يتم للنفس الاتحاد على الأرض وفي داخل هذا الجسد، وإن تكبّد المريد أشق الضنا!

من أصفاد الغرائز الرغبات والشهوات طلب طالب الـ «تاباس» التحرّر فهو ويرى أن «العمل» يبعده عن الحقيقة ويأتي إليه بعائق يجعله، وهو النفس منيرة الطبيعة، محتجبة النور بالجسد... بدافع هذا الشعور انسابت الفلول وراء الفلول تعتزل الأعمال، فكان السبب سبباً به عمرت الكهوف على هذه السفوح وطوايا الجبال بأهل الزهد من طالبي العزلة عن الناس، وتجنُّب الأعمال!

بنشدان الخلاص نشدت النفس الإنسانية بـ «براهما» الاتحاد، وسعياً وراء هذا «الاتحاد» سارت عبر الطريقين العملي والنظري؛ «يوجا» و«تاباس»، وكلاهما بمميزات يمتاز، فكلاهما إلى عالم الحقيقة بالنفس يرتقِي، وسواء اختارت النفس التقشُّف والإرهاق الجسدي عن طريق «تاباس» أو اختارت التركز الذهنيّ والهدوء النفسي وسبيلهما الدراسة والبحث عن طريق «يوجا»، ففي كليهما سيتلاشى العالم الخارجي وسيبرز العالم الداخلي...

وفي كلا الطريقين سارت الهند الزاهدة في سراب الحياة وإن رجّحت الناحية العقلية فيها على الـ «تاباس» الـ «يوجا» وطرقته طريقاً بها ينتهي إلى «عالم براهما».

أي شيء «عالم براهما»؟

«عالم براهما» خلي مما به «عالم إندرا» يمور!

بقدر ما تأججت من العقل الغريزة، حدثاً ومراهقاً وشاباً، كان سموّ التقى والتعفّف للعقل ناضجاً فبلغ أصفى ألوان الصفاء العقلي عن طريق إخضاع الجسد للنفس، ومن ثم غدا النعيم للعقل، ناضجاً، شيء يتخلص في سعادة الاتحاد للنفس بـ «النفس»...

هذا هو عالم «براهما» عالم النعيم الفكري واللذة الوجدانية والطهر النفسي!

وببراهما و«عالم براهما» هام الهُيّم بحثاً وبالهيم برحت تباريح وهوى به استطابت منهم النفس لذّة زاد من أوارها أواراً هذا الوله المتأجج للروح العطشى ومن حدّتها المرهفة حدّة سكون البلاد المرهف، وأصائله المتوّهجة وصاف لياليه!

حين تغرب الشمس.. وحين يغيب القمر.. وحين يخمد اللهب.. وحين تصمت الشفاه... حينذاك يسطع نور «الأتمان»!.. وحينذاك، بذلك التجرّد والتأمّل، تتحد بـ «النفس» النفس!

هذه هي العبادة الحقة لدين حق وما سواها من عبادة فعبادة لدين العوام!

من إصلاح في الهندوكية انسلخت اليوبانيشادات إلى مذهب بذاته قائم، وبهذه المناهج التي جاءت بها تحوّل الاهتمام الهندي إلى ناحية جديدة عن سابق تفكيره، به تحوّلت العبادة من مادية الطقوس إلى روحية محورها النفس فالمذهب اليوبانيشادي من تكاليف الديانة الكهنوتية خالٍ، بل إن المذهب اليوبانيشادي لا يختلف في تفكيره الإلهي فحسب عن التفكير الكهنوتي وإنما عن التفكير الإلهي للشرق القديم يختلف كل الاختلاف بلونه الصوفي الذي لن يفهمه تمام الفهم إلا الصوفي، فالصوفي يفهم اليوبانيشادات حين تقول:

أي بيت للإله يبنى والإله في كل مكان؟

أي وحي من الإله يتنزّل وهو المجرّد والمطلق وصوته الداخلي في الداخل ينفي المكالمة من الخارج؟!

بل على من يتنزّل الوحي؟

إن القول بهذا إنما حيدة عن الاعتقاد بعدالة الإله! إن الإله لا يختار إنساناً على إنسان وإنما الإنسان هو الذي إلى الإله **يصعد ويرتفع**!...

لا جدال إن اليوبانيشادات قد بلغت الشأو في السموّ التفكيري بهذا التفكير، كما بلغت

هذا الشأو حين لم تلق مسؤولية الشقاء والسعادة على الإله وإنما على الإنسان نفسه الذي جعلته سبباً لنفسه في لون الحياة التي يحياها، سواء أكانت شقية أم سعيدة فهو الذي بمحض إرادته قد اختار لنفسه حياته الحاضرة على الأرض!

كلا، لم تشق «الحقيقة» أحداً ولا لأحد عن الآخر أرادت تقريباً فالكلُّ لديها سواسية والكل لديها سواء وإنما: الإنسان هو الذي إلى «الحقيقة السرمدية» يرتفع وبها يربط منه النفس فينال الاتحاد.

قادت اليوبانيشادات الناحية الفكرية وأتت في تاريخ التفكر الديني بلون جديد، فعن اللون المادي تنأى هذه الصوفية الروحية وبدين الآباء لا تلتصق، لا تستند اليوبانيشادات إلى كتب مقدّسة ولا تدّعي لكتبها القدسية فما كانت وهي المستنكرة الوحي الهابط لتدّعي لأسفارها قدسية التنزيل، وإن كانت هذه الأسفار حَرِيّة بالتقديس!

أجل... عن الدين القائم بطقوسه وشريعته وشعائره وتكاليفه تحوّل التفكير اليوبانيشادي بالكائن الإنساني يقيم لمذهبه الصوفي قويم بناء لا يعتمد الآخذ به على شيء مما عليه يعتمد في ظلال الدين البراهمي من مظاهر، فاليوبانيشادات إنما مذهب لا يطلب من المريد فيه إلا طلب التحرر من الأثرة وذاتي المنفعة وسادر النزوة وعابر الشهوة، ووسيلة هذا التحرر إنما الاعتلاء بالنفس...

كلا! الدين الصوفي عن الحياة لا ينصرف، فانصرافه إنما ينحصر في الانصراف عن الحياة الوهمية التي نراها في صور التكالب على جمع المال وإفناء العمر في فاني بيداء الاهتمام فيها مقصور إلى البوارق عن الجوهر... فالصوفي، سواء أكان في صورته اليوبانيشادية أم في أية صورة غيرها، إنما عن الحياة، في زهده لا يشيح! لا يشيح الصوفيّ إلا عن الوهم من وفي هذه الدنيا **طلباً للحقيقة**.

وكيف تشيح الصوفية عن الحياة وهي لا ترى الوجود إلا **خالص الحياة**؟ وكيف يشيح الصوفي عن الحياة، ولديه ليس إلا: **للنفس وجود!؟**

إن الزهد الصوفي بصورتيه، العملية والنظرية، يرتفع بالإنسان ارتفاعاً إيجابياً فهو يجعله ينتزع نفسه من الوهم العالمي انتزاعاً، وليس هذا بالسهل الهيّن.. ولكن حين يرتفع الإنسان هذا الارتفاع عن طريق انتزاعه نفسه من الوهم الكوني فإنه يكون قد ارتفع إلى حيث يشرف على عالم يرى صبوه نحو السراب وتمرّغه على شاطىء عليه يلهو ومن رماله يشيد قصوراً... حينذاك لم تعد دنيا البشر له الدنيا ومعايير البشر لم تعد له المعايير! ومن ثم لا يستطيع هذا العالم الصابي نحو السراب أن يفهم الصوفيّ حين يناديه إليه:

أيها اللاّهي السائر نحو السراب، تنبّه!

أيُّ صرح له أنت مشيّد والموج الجارف لما تشيد جارف...

أيّ ملك له تطلب أو به تنعم وأنت للنفس لا تملك وبنعمة المعرفة لا تنعم؟!

تنبّه!.. كفاك تمرُّغاً في الوهم وظمأك إلى السراب وإلى الحقيقة بنفسك ارتفع!

بهذا اللون من التفكير الديني الذي تفجّر من ينبوع النفس عنه اليقين ماحياً صورة ألوهة صوّرها العهد الفادي بصورة بشرية، يطالعنا الأثر اليوبانيشادي في توجيه التفكير الديني فيما بين القرنين السابع والسادس ق.م كما سجّلت للعقل الإنساني هذا التوجيه هذه السجلات التي لا تنسب إلى نفسها وحياً هابطاً وكلاماً منزّلاً وإنما بصورة غير مباشرة تنفي فكرة الوحي الهابط والكلام المنزّل وتدحض عقيدة التنزيل!..

أجل.. سجّلت للعقل، ناضجاً، سجلات اليوبانيشادات فلسفة وقفت بين الفلسفات في القمة فإلى أعماق نفسه عمق العقل ولها تأمل... تأمل به برزت إلى صفحة الذهن منه فكرة الوحدانية التي تطورت إلى «أتمان» أو «نفس واحدة» كحقيقة متكثّرة في نفوس متعددة كلها جوهرياً واحدة ونفس «النفس»!... بهذه الفكرة نبتت لديه عقيدة «حلول الحق المطلق في الباطل الشخصي» فكانت تعاليمه تلك التعاليم التي رجّت أرجاء عالمه قاطبة ودوياً سرّت في المجرى الديني وما غاير هذا المجرى من ألوان الفلسفات التي عرفتها الهند، بل انسابت إلى الخارج أصداءً تردّد تعاليم هذه الفلسفات فرفّت على زمن ذلك الزمن:

عقيدة الوحدة الحلولية

تعهّد التفكير اليوبانيشادي في تربة النفس البشرية عقيدة الوحدة الحلولية فأنماها حتى التمام كما إلى ألوان مختلفة من العقلية البشرية امتدّ التأثير اليوبانيشادي، بل بعبارة أدق يمكننا القول بأنه هو التفكير الذي كان له الأثر في تحويل التفكير الإنساني وتوجيهه إلى وجهة نفسية وروحية خالصة تجافي مادي العبادات، فإن عن كل ما قد عرفه من تفكير ديني قد تحوّل العقل تحولاً تاماً أفقد القرابين والطقوس قيمتها المادية... فإن من جراء التفكير اليوبانيشادي القائل بأن السعادة الحقيقية إنما مطلب لا يتحقق إلا عن طريق ربط الذات «بالذات» فيتحد في غير فناء «المطلق البشري السرمدي» بـ «المطلق الإلهي السرمدي»، أن أصبح هذا المطلب أساساً لمثالية أخلاقية جديدة ليس لها قط صلة بما فرضه الدين القائم من فرائض والتزامات، فليس للعبادة من صيغة سوى **ترويض النفس على استعمال قواها، وإطلاق كامن هذه القوة من مكمنها للتوصل إلى الاستزادة من معرفة «براهما»** ولذلك أصبحت العبادة منحصرة في:

الانصراف إلى المعرفة..

صورة جديدة للعبادة وتفكير ديني جديد كانت نتائجه تلك المذاهب التي بدأت تتخذ طريقها إلى الظهور متخذة الطريق إلى المعرفة.

أجل... بدأت التعاليم اليوبانيشادية تبرز في صور شتّى، فمن أثرها كانت الاتجاهات الفكرية والفلسفية وفي مقدمتها «الفلسفة السانخية»، ومن أثرها أن تعددت المذاهب الصوفية ومن أثرها بل بالأحرى عنها نشأت البوذية فلسفة قبل أن تتحول إلى دين في أعقاب دين آخر عرفته الهند وما زال في الحاضر ديانة بها تدين نواحٍ من هذه السفوح:

الدين الجيني

في شبه جزيرة «كيثاوار» في سفح الجبل المقدّس «استرانجايا» والفكر الإنساني بـ «تعاليمه السرية» يقيم لصوفيته صرحاً على أسس مذهب «نيرجرانتهاس» انبثق الدين الجيني طالعاً بمعتقدات تجمع بين تعاليم اليوبانيشادات وتعاليم فلسفة السانخية أو هذه الفلسفة التي وقفت أمام وجود رأت أن فيه جلية ظاهرة التطوّر فجرى منطقها بأن:

كل عمل إنما لعامله عاكس... من ثم فالكون إنما من عمل عاملٍ يتطوّر وينمو!.. ولما كانت الألوهة إنما مرتبة ترتد عنها صفة التطوّر وسمة النمو، فخالياً إنما الكون من إله أو «نفس كبرى» وليس هناك حقيقة وجود إلاّ؛ للنفوس!

إلى السانخية، كفلسفة، مالت الجينية واستهوتها عقيدتها المؤكدة فكرة تحقيق الحرية الشخصية والمسؤولية الأخلاقية، النافية «الوحدة» والقائلة بـ «التعدُّد».

وإلى اليوبانيشادات، كصوفية، مالت الجينية وبهرتها إعجاباً عقيدتها القائلة بـ «الصيرورة»!

بين فلسفة تقول بالتعدد، وصوفية تقول بالوحدة... بين سانخية تنفي وجود «نفس كبرى وتأبى إلا للنفس الصغرى وجوداً، ويوبانيشادية تؤكد وجود نفس كبرى» وتجعلها مصدراً وسبباً لوجود «النفس الصغرى» وقفت «الجينية» تجمع بين الاتجاهين ومن كليهما تتخذ لمذهبها أساساً.

أخذت «الجينية» باليوبانيشادات وبالسانخية معاً، و«بالصيرورة» إلى جانب «التعدد» قالت، بل رجح ميلها إلى اليوبانيشادات ميلها إلى السانخية فذهبت مذهب الزهد الساعي إلى إطلاق النفس من عجلة «الصيرورة» ومن ثم تتخذ مبادىء المبادىء الأربع لمذهب «نيرجرانتهاس»: **الصدق والأمانة والطهر وتجنّب القتل**

بيد أن رأت «الجينية» أن التجرّد التّام لا يتمّ إلا بمبدأ آخر إضافته إلى المبادىء الأربعة فكان:

مبدأ التخلي الكامل عن جميع الممتلكات الشخصية!

فرضت «الجينية» على معتنق مذهبها هذا المبدأ الخامس الذي شرّعته فهي مذهب قام على فهم «عقيدة الصيرورة» فهماً استيعابياً ومن ثم كان شرحها لهذه العقيدة شرحاً هو الذي جاء في نظرة هذا الدين إلى الطبيعة بنظرية «الجوهر الفرد».

أجل... على أسس تعقّلها رأت «الجينية» أن الـ «كارما» أو الأعمال تحيط النفس، المنيرة الطبيعة، بكثافتها ومن ثم كان تفسيرها أن: كل «كارما» أو عمل يضاهي «جوهراً فرداً» ينحدر إلى الجسم الإنساني على أثر إعلاء صوت الجسم على النفس، فتتكاثف هذه «الجواهر»، وتحوط النفس... ويشتدّ هذا التكاثف بإمعان الإنسان في خطاياه الناتجة عن «الأعمال» حتى تحجب الكثافة، بظلمتها، النور! وهكذا متى غشت النفس الغواشي ألزمتها بالعودة إلى حياة أخرى تعاقب فيها... ولكن في هذه الحياة الجديدة تعود النفس ومن جديد تستأنف جديد الأعمال!.. ومن ثم يجب تحصين النفس بإحاطتها بسياج يحول وتسلل هذا الجوهر المادي الكثيف!... أي السياج هذا السياج؟..

كلا! ليس هذا «السياج» في طقوس الدين الهندوكي المادية الصبغة التي يسجلها «البراهماناس»... كلا ولا هذا «السياج» في المسؤولية الأدبية التي تعلنها «اليوبانيشادات» وإنما هذا «السياج» ينحصر في:

التخلّي الكامل عن كل الماديات!

لسائل الجينية؛ كيف يمكن التخلّي عن كل الماديات؟

تجيب الجينية؛ بالإغضاء الإغضاء الكلي عن نداء للغريزة الملحة ملح! بتحطيم أهواء الجسد يبنى صرح النفس!.. تلك هي طريق التخلي الكلي عن الماديات وسبل النجاة من «كارما» والخلاص من «الصيرورة»!

بيد أن المريد ليتساءل:

وما العمل إذا كان الـ «كارما» من قبل قد تسلّل وبكثافته قد أحاط النفس؟!

وللمريد يأتي من الجينية الجواب:

لا تيأسنّ! تحرّر! بالتحرّر من الأهواء تستطيع إبادة ما قد تسلّل... ازهد!.. ازهد فالزهد نار معاً ونور!.. نار تحرق الـ «كارما» فتبيد، ونور لظلام الحياة مبدّد!

إن باب «تاباس» أو التوبة، أمامك غير موصد وعلى مصراعيه مفتوح!

للانطلاق من بيدق الصيرورة شرّعت «الجينية» التخلّي الكامل عن الممتلكات الشخصية فارتفع هذا الدين إلى مستوى أخلاقي قلّما داناه فيه دين، بل إن في أحضان مجتمع أدركت «الجينية» فيه فقر واختلاف طبقات والسبب هو ما قد ابتدعه الكهنوت من نظام الطبقات، قامت تشرِّع شريعة اجتماعية جديدة عرّضت فيها للتقليد البراهمي القديم معلنة:

سخف الطقوس وإلغاء نظام الطبقات والمساواة التامة!

امتداد اليوبانيشادات من قبل ومهاجمتها الطقوس تمتد «الجينية» فتستنكر الطقوس وتلغي نظام الطبقات على أسس أنها بدعة والبدعة يجب أن تلغى! واستنكار اليوبانيشادات نظام الطبقات استنكرت «الجينية» نظام الطبقات بل واتّسعت في هذا المضمار نظرتها فساوت الجنسين، المرأة بالرجل، في كل فرع من فروع العبادة، فقد شرّعت للنساء رهبانية بجانب الرهبانية التي شرّعتها للرجال...

أجل... إن الرهبانية لم تك حينذاك بجديدة ففي «اليوجية» رهبانية، وإنما الجديد في رهبانية، «الجينية» إنها لم تك كرهبانية «اليوجية» فردية، وإنما هي رهبانية اجتماعية أساسها تكوين جماعة خاصة تدين بهذه التعاليم وتطبّق تعاليمها تطبيقاً قانونياً، فتلزم المريد المنخرط في سلك ديانتها بالتمسّك بمبادئها الأربعة التي يقف بينها المبدأ المهم: «أهِمسا»

أو تحريم القتل!.. حرّمت الجينية القتل في أية صورة كان عليها الكائن الحي مِن صور الحياة، وبعد أن كان قتل الكائنات الحية تجنّباً أضحى محرّماً... وهذا أهم مستحدثات هذا الدين وأسمى ما إليه وصلت في تاريخ الصوفية صوفية!

تلك هي المبادئ الأساسية التي أسسها «فاردامانا» من حول مولده وصباه ودعوته راحت السير في مسير الزمن تحدّث عنه أنه حقاً كان المتغلّب على الجسد فلقّبته «جينا» وأضحى لقبه على تعاليمه علماً طلعت بها هذه التعاليم ديناً هو هذا الذي نعرفه تحت اسم؛ الدين الجيني...

دين تغلغلت مبادئه، في فجر الامبراطورية الهندية، في نفس مؤسس هذه الامبراطورية «شاندرا جوبتا»، فاعتنقه وتبعته طبقة النبلاء... وبهذا دُعّم وانتشر بين الخاصة وخاصة الخاصة ديناً جافى تمام المجافاة البراهمية أو الدين الهندوكي!

وعلى هذه السفوح رفّ ردحاً من الزمن هذا الدين الذي حارب نظام الطبقات وبشّر بالتسوية العامة بين الإنسان والإنسان وأمر بالانصراف عن النضال إلى السلام فلديه أنه قلّما أنتج النضال إلا النضال وأن السلام يولّد السلام!

ولكن... الدين الجيني، رغم طهره بارتفاعه إلى ازدراء مظاهر الحياة على اختلاف أنواع بريقها بإخلاده إلى الحقيقة الخالدة في النفس ورغم استيعابه للفكرة اليوبانيشادية الخاصة «بالصيرورة»، دين ناقص في فهم اليوبانيشادات فهماً صحيحاً فهمته تلك الفلسفة التي جاءت في أعقابه قبل أن يحوّلها التبغ إلى دين جديد نعرفه باسم:

الدين البوذي

بوليد حدائق لومبيني (٥٦٠ ـ ٤٨٠ ق.م)، الناشىء في أحضان اليوبانيشادات، الطارق الـ «يوجا» إلى المعرفة اليوبانيشادية طريقاً الممتلئة رئتاه بنسائم «لاوتسية»[١] آتية من الصين، المتطبّع بالطبيعة الجينية، من عليه علماً غدا اللقب الذي خلعته عليه مجامع التُّبَّع في القرون الأوَّل ق.م غداة لقبته بذي البديهة ليطلع علينا الـ «بودها» أو البوذا وليطالعنا في سجّل الأديان ديناً يقف، وقوف صاحبه في القمة، في القمة!

أجل... إلى ما وراء البوذية، كدين، نعود فيعود بنا الزمن إلى تلك الشخصية التاريخية الطالعة من العنصر الآري ومن طبقة الخاشترية من قبيلة الساكيا الواقعة شمال شرقي الهند وجنوب نيبال في عاصمتها «كابيلا فاستو». نعود إلى هذه الشخصية التي ولد صاحبها لبيت جوتاما، من «مايا» لـ «سودو هنا»، مهراجا قبيلة الساكيا، أميراً تحت اسم:

سِدَارتها... في قصر كانت الـ «مايتري يوبانيشاد» ترجع فيه «للبريهدرانيا كا يوبانيشاد» أنغاماً عمّرت الكهوف بالباحثين عن «براهما»، وخضّبت مروج، «كابيلا فاستو»، الثياب الصفر، لتعمر كهوفها بأتباع مذهب «نيرجرانتهاس» المشترط على المريد ألا اعتزال إلا بعد وصل سلسلة الحياة بخَلَف، نشأ سدارتها وسأل... سأل فأجيب أجوبة تدافعت في أرجاء نفسه والزمن به يجري حتى قبيل الثلاثين من العمر لتدفعه، في اكتمال الشباب، إلى ترك زخرف الحياة، تاركاً في قصر أبيه «راحولا» خلفاً، أضحى له من بعد تابعاً... وإلى كهف بعد كهف، تحت رداء من أردية الصوفية، إلى صوفي بعد صوفي راح سدارتها يصغي فأصغى إلى «آلارا» فإلى «أدوكا» فإلى «أورفيلا»...

إلى أقطاب صوفية عصره أصغى، «سدارتها» ولكن ليصغي بعد ذلك بنفسه إلى نفسه ذلك الإصغاء الذي انحسرت عنه سنوات سبع من الزمن في المكان الذي إليه الحجيج الآن كل حول يحجّ ونعرفه تحت اسم: «بودهي ـ جايا» أو مهد البوذية... في هذا المكان فكّر «سدارتها» في أي الطرق إلى الخلاص أخلص؟... وهنا شق «الطريق الأوسط»... وهنا بلغ

(١) الدين في الصين من هذا الكتاب.

الاستنارة التي أرسلته إلى «سارناس»، بالقرب من بنارس، ليسير ظله على أضفة الجانجز مرسلاً صوته يعلن:

إن التأمل الحسي.. طهارة التفكير الصهر النفسي شرف القول والعمل هم؛ «هاما» أو مبادىء سرمدي قانون الوجود...

بهذه التعاليم، المتخذة لـ «دهاما» محوراً، طاحت عن سدارتها لها معلماً حتى الثمانين من العمر أعوام انتهت في كوسينارا، حوالي ٤٨٢ ق.م، تاركاً للدنيا بها تعاليم صوفية تمثل أصفى فلسفة أخلاقية عرفتها البشرية، فإن من خضم السراب الحواسي انتزع سدارتها نفسه انتزاعاً، ومن قمم السؤدد المادي هبط ليرتقي الجانب المخالف استجابة للنداء الداخلي الهاتف به أن يستفيق من هذا الوهم الذي يسميه الأرضيون الحقيقة!

من ثم فإذا إلى ما وراء البوذية كدين نعود فليس إلا ليعود بنا الزمن إلى «سدارتها» هابطاً، من معتليات نيبال، مهابط بنارس يدفعه إلى أضفة الجانجز صوت يوبانيشادي أسرّ له بالسري من التعاليم التي انسلخ بها إلى دنياها عن دنياه! عن دنيا التاج تخلّى وإلى دنيا المعرفة خلى... خلى فخلى نفساً يوجية عطّرت أرجاؤها أرج اليوبانيشادات!

أجل... استهلت البوذية تاريخها، في أحضان صوفية اليوبانيشادات وفلسفة السانخية والجينية دين عهد الصفْو النفسي والتأمل والسير اليقيني واستعمال «تاباس» وتطويق النفس بطوق الاتحاد عن طريق استعمال اليوجا!.. في عهدٍ بأريج الصوفية عبقت منه أرجاء زادتها على صفو صفواً النسائم الآتية من الصين، استهلّت البوذية تاريخها كمذهب إصلاحي لم يحد عن الأسس الأخلاقية التي دعمتها الجينية بوحي اليوبانيشادات، ولم ينحرف عن الغاية التي رسمتها اليوبانيشادات، بل إن من الخطأ أن تقول هذا القول فما البوذية إلا:

إيضاح للتعاليم اليوبانيشادية!

من شفاه «سدارتها» راحت على صفحة بنارس وأضفة الجانجز التعابير اليوبانيشادية خاصة الـ «شندوجيا» و«المايتري» من السجلات اليوبانيشادية المعاصرة تعلن «التعاليم السرية» ولكن... لئن كان هدف اليوبانيشادات في الخلاص «معرفة براهما» فإن البوذية اتخذت هدفاً، **الخلاص**!...

اتخذت البوذية الخلاص هدفاً فتعاليمها تنادي؛ إن حياة الإنسان إنما سعي في سفر، ومن ثم على الإنسان الاتجاه إلى حياة داخلية أقوى من الخارجية وأعمق، فهي حياة تقف مكان الحقيقة من الوهم والحق من الباطل... على الإنسان أن يحيا هذه الحياة الداخلية

حتى يستطيع بلوغ الهدف اليوبانيشادي «أمرنْزَا» المتلخص في سعي النفس بالنفس للخلاص من «الصيرورة» والانطلاق إلى الخلود النفسي الخالص وعلامة هذا الخلاص وبلوغ هذه الغاية هو:

أن تشع النفس بنور البديهة!

انحصر بحث البوذية في النفس وفيما وراء النفس ولما كانت هذه هي البحوث المميّزة «الشندوجيا» و«المايتري» من السجلات اليوبانيشادية الأولى فالأدلة تتضافر وتقود إلى دليل يدل على أن البوذية إنما الامتداد الإنمائي للتعاليم اليوبانيشادية والتوسّع بها حتى الوصول إلى الغاية التي رسمتها اليوبانيشادات لخلاص النفس من عجلة «الصيرورة» ومن ثم لئن كانت «الجينية» مذهباً قام على فهم عقيدة «الصيرورة» فإن البوذية مذهب قام على فهم **الانطلاق من الصيرورة!**

إن البوذية، توافق اليوبانيشادات فهي مثلها ترى:

إن «الأتمان» حقيقة والاعتراف بوجوده لا يقبل الجدل والشك والمناقشة وأنه «النفس الكليّة» والخضم النوري حاوي الكلّ معاً، وأن لا شيء في الكائن الحي ما عدا هذا «النور» هو الحقيقة...

رأت البوذية هذا الرأي عندما علا همس «الشندوجيا» و«المايتري» من السجلات اليوبانيشادات لج «سدارتها» طريق «اليوجا» طريقاً إلى النفس فوجدها؛ **لا ينالها زمن ولا مكان! لا ينالها ألم وطبيعتها الفرح!** وجد سدارتها أن النفس تقف وراء نسبية الخير والشر وعنها ترتد أكدار الكدر وسحائب الحزن.. فعاد يهتف بمحو التمييزات بين «النفس الكبرى» و«النفس الصغرى» معلماً:

لا شيء حقيقياً إلا هذا الشيء المطوي في انتشار وراء كثافة الماديات وسراب مظاهر الجسد؛ النفس الصغرى في «النفس الكبرى»!

هذه تعابير يوبانيشادية خالصة وخاصة شندوجية ومايترية، من السجلات اليوبانيشادية المعاصرة لعهده، وكلاهما سجل يمحو التمييزات الوهمية بين النوع والنوع والجنس والجنس والشيء والشيء، فلا تعتبر شخصية كل شيء حداً فاصلاً بذاته فاصلة إياه فصلاً مطلقاً عن شيء آخر، وإنما هي: وحدة الواحد الأحد.

وهذا «الواحد» هو الحق ولك ما عدا الحق فالباطل وهذا «الحق» هو الحقيقة الكائنة في الكائن الحي التي تتخذ مظهرها المحسوس في صورة الضمير.. والضمير إنما البرهان على أن هذه «النفس الكبرى» إنما حالة في «النفس الصغرى» لا بمعنى أن في «الكل» الكل يمور وإنما

بمعنى أن في الكل حالاً «الكلّ» بمعنى أن «الكل» هو الكل فهو روح الأرواح ونفس النفوس فإنه: «الأتمان!»

بـ «الأتمان» كحقيقة لا تقبل الجدل والشك تعترف البوذية في صحيح رسالتها في الدور الأول قبل أن تتطور تطوراً تحوّلت به، بالإضافات، إلى دور ثانٍ فثالث.. قبل أن تتلقّفها من شفاه «سدارتها» شفاه تجري بأسدائها الأجيال فتحوّل منها المعاني إلى معانٍ جدّ مختلفة عن تعاليم لسدارتها واضحة وجلية عن «النفس» وعن النفس...

أجل... إن «أتمان اليوبانيشادات» كروح عام أو كنفس كونية مطلقة هي الحياة في الكل وليست لأحد خاصة أو ملكاً إنما الأساس الذي تقف عليه البوذية في صحيح دعوتها والذي منه تتخذ لها قاعدة لتدلي برأي لها أساءت فهمه الأجيال وخاصة في الدور الثالث للدعوة حين قالت بها مفكرة «للأتمان وللأتما» وما إنكارها إلا إنكار ألوهة على النحو الذي يصوّره الدين الهندوكي وما إنكارها إلا نفس فردية على النحو الذي إلى «التعددية السانخية والجينية» هوت إليه «الوحدة اليوبانيشادية»، فإن البوذية الصحيحة لا تنكر النفس ففلسفتها إنما تنحصر في الرّد على تعريف العدد المقسّم «الوحدة» إلى «تعددية» فهي في التصاق باليوبانيشادات تخلد وعلى نفس الأساس اليوبانيشادي أقامت صرحاً منه أعلنت:

إن كل شيء من الحقيقة خلى ما خلا:

«الحقيقة السرمدية!»

على همس الـ «شندوجيا» والـ «مايتري» من السجلات اليوبانيشادية طرق «سدارتها» الطريق اليوجي الذي رسمته اليوبانيشادات، طريقاً إلى النفس فأقام على نفس الأسس صرحاً منه أعلن:

أن كل شيء من الحقيقة خلى ما خلا «**الحقيقة السرمدية**».

ولكن!.. أمام تعريف هذه «الحقيقة السرمدية» وقف «سدارتها» صامتاً!... كيف يصوغها؟! كيف يصوغها وهو، الذي يراها في كل شيء، يراها كل شيء؟!...

من ثم فتعريف سدارتها «للحقيقة السرمدية» بأنها؛ كل شيء ولا شيء!

ومن ثم فوصف سدارتها «للحقيقة السرمدية» بالنور الداخلي في الكائن الحي الجاري فيه بصفة الحياة بل هي الحياة ولا شيء في الكائن الحي حقيقة ما عدا هذه الحياة أو هذا النور...

وتحوّل سدارتها يُعرِّف الإنسان بنفسه؛

يا أيها الإنسان إن الحقيقة السرمدية حقيقتك!.. العالم الداخلي عالمك أما المظهر الخارجي منك فمنك ليس بشيء!..

ما أنت في حقيقتك إلا «الحقيقة السرمدية».. ما أنت إلا ذلك النور، وإنما بأغلفة من وهم الجسد والمكان والزمن أنت مغلف!..

إن حقيقة الكائن الحي هي عالمه الداخلي.. وهذا العالم الداخلي هو الحياة فيه؟

والحياة؟! الحياة أبداً في تشكّل!..

من ثم يقيناً أن واحدة إنما الحياة **غير منقسمة!**

بهذا اليقين يلجّ بنا سدارتها لجّة النفس لنرى أن عن الحياة ترتد أردية الردى وعنها ينتفي الفناء!.. وأن ليس هناك موت بمنعى العدم فالموت إنما موت الجسد؛ والموت قط لا يمثل إلا: **حدثاً في حياة النفس:**

المظهر الخارجي سيفنى وأما النفس فستنطلق وستتحرر حتى تبلغ الغاية التي رسمتها «اليوبانيشادات» فتخلص من نطاق وجود وهمي سرابي!.. وجود حيثما فيه تلفّت وفي أرجائه دقّقت النظر فلن ترى إلاّ:

العلامات الثلاث للكينونة

حيثما في أنحاء الكون صرت وسار منك البصر طالعتك الحركة... سمة الوجود، وسمة الحركة: **التغيير...**

منْ هذه التلال البعيدة بادية الهدوء، إلى هذه القمم الشوامخ المترامي لها على هذه السفوح ظلال، فاللاسكونِ ساكن مظهرها!.. إن قانون التغير ينطبق على كل شيء مركب حتى نتاج الإنسان من فِكر وقوانين وأعمال!

كل مركَّب يتناوله التغير وينالِه الفناء... كلّ مروره في رحاب «الحقيقة السرمدية» مرور السُّحب في صفحة الفضاء!

من ثم يقيناً إن أولى العلامات الثلاث للكينونة: «أنيكا»=التغير!

القانون، قانون الوجود! بدء لا بدء له، ونهاية لا نهاية لها! إن «رُنا» لتجري بأربع بيادق هي الحقائق الأربع الكبرى: ولادة، ونمو، ووهن، وموت! عجلة دورتها هذا التغير... وصريرها؟

الألم! هدف الإنسان في هذه العجلة، عجلة الحياة؛ السعادة... والسعادة؟ السعادة سراب في حياة يحفّها من الألم محقق آلام وكل فيها متراوح المصير، كهؤلاء!

كهذا الشيخ الفاني وذاك العليل المعذب وهذه الجثة الهامدة!.

السعادة من ثم سراب لحقيق ألم! فالولادة ألم الوهم ألم الفراق ألم إخفاق الأمل ألم، الموت ألم!

الألم لا يلم بقلب دون قلب، بل هو قسم مشاع تتقاسمه كل القلوب! الحياة من ثم ليست، في واقعها، إلاّ ألماً واقعياً!

الألم شيء واقعي! ملموس، كلّ به معترف أو به سيعترف، فقانون التغيّر على كل حي يسير... كل حيّ فصيحته الألم مما يؤكد أن ثاني العلامات الثلاث للكينونة:

«دوخة» = الألم!

لئن كان قانون الوجود التغيّر فصرير عجلته إنما الألم... من ثم الألم طبيعة الوجود؟..

.. الألم طبيعة الوجود.. فما أصل الألم؟..

أصل الألم هو: الرغبة المتكالبة على التمسّك بعجلة الوجود فإن الألم ينحصر في انصراف النفس عن الحقيقة إلى الوهم إلى التمرّغ في حمأة السراب والاستزادة بالوهم من الوهم؟.. الألم سببه اللاشعور بالوحدة الكونية! ووهم الشعور بالتفرقة سبب النضال والشقاق والحروب!

أصل الألم ينحصر في شعور الفرد بفرديته، و«الأنا» بأنّينها وبأنانيتها وانصرافها بوهم «التعدّد» عن «الوحدة»!...

أصل الألم ينحصر في قبول النفس وهماً وهمت، تحت تأثيره، انفصالها كشيء، عن «النفس الكلية» أو «الأتمان»!

عن «الوحدة» وهمت النفس لنفسها فصلاً، والحقيقة أن ليس لـ «أتما» أو النفس الفردية وجوداً مستقلاً، فإن هي إلاّ «وحدة الأتمان» وفيها الكلّ يمور موراً!. ومن ثم، والحقيقة هي «الوحدة» والوهم هو «التعدّد» فإن ثالث علامات الكينونة: «أناتا» = اللانفس!

تحت هذا المعنى وبهذا المعنى نفت البوذية وجود «النفس الفردية» لا كموجودة وإنما كمستقلة!

وتحت هذا المعنى جاءت البوذية بهذه العقيدة الأساسية لفلسفتها واجبة الفهم على الوجه الصحيح لا كما جرت أقلام ترميها، وهي فلسفة النفس، بإنكارها النفس!

كلا!. قط لم تنكر البوذية وجود النفس الفردية وكيف للنفس تنفي والنفس محور وأساس فلسفتها؟ بل كيف تنفي البوذية للنفس وجوداً وهي التي عنها تتكلم ذلك الكلام الذي يطالعنا في تحدّثها عن:

طبيعة النفس

يقيناً، إن للنفس الفردية وجود ولكن.. وجود النفس الفردية ليس استقلالياً فإنما هي تمور في وحدة هي ذات «الحقيقة السرمدية».. وهي في هذه «الوحدة» تمثل فيها ومنها جزءاً غير مجزأ!... وتحت هذا المعنى ليس للنفس الفردية حقيقة قائمة بذاتها لأن الحقيقة تنحصر فقط في ذات تلك «الحقيقة السرمدية» ومن ثم يقيناً أنه ألا نفس إلاّ «**النفس**».

ومن ثم، وليس هناك للنفس الفردية وجود استقلالي، ليس هناك إلا وحدة النفس في «النفس» هي جزء غير مجزء، من هذه «الوحدة» فيها وبها تعيش وتستمد من وجودها لها حياة... ومن ثم **فالنفس بطبيعتها خالدة** لا يصيبها ما يصيب الجسد من محتم فناء قد تنتقل إلى غيره إذا ما اشتد منها التعلّق بالعجلة الدائرة الرحى فتحملها من صورة إلى صورة تبعاً لقانون «الصيرورة»...

أجل.. إن البوذية قد اعتقدت بالـ «سامسارا» أو «الصيرورة» فالبوذية ليست إلا مذهباً امتدادياً إيضاحياً للتعاليم اليوبانيشادية، ومن ثم فالعقيدة اليوبانيشادية عقيدتها التي رأتها قانوناً تحتّمه العدالة، فقانون العدالة المحتِّم الثواب والعقاب ليحتم هذا المصير في وجود لا مكان فيه تراه البوذية فيما وراء الطبيعة الذي لجته فرأته لجّة من نور، لبعث جسدي...

ومن ثم فلا مكان لمكان هذا الثواب والعقاب أوفى إلا في «الصيرورة» التي أيّد للمنطق اليوبانيشادي لها منطق رأي في الصور المشوّهة والرزايا والأرزاء والبلاوى والبلايا صوراً لو لم تكن عقاباً لتنافت والعدالة!

كل صورة صائر إليها كائن أو فيها كائن كائن فهي للعدالة صورة، وبالكائن الحي ترتحل الحياة عبر ظاهرة الموت من واحدة إلى أخرى... وكلها؟ كلها إنما حياة في نطاق الوهم وغلاف الجسد، عن حياة النفس الخالصة جد مختلفة.. من ثم من هذه العجلة **يجب الانفلات**، ومن الألم يجب الخلاص! لهذا أصبحت الغاية هي:

الخلاص!

يجب تخليص «النفس» الخالدة من هذه الدورة ومن قيد جسد فإن لإطلاقها من عجلة الصيرورة الآتية بالألم... الألم الذي أدركنا أنه وهم سببه الوجود الشخصي وليس الألم إلاّ عنه ناتج.. ويقيناً **أن ليس للألم هناك حقيقة وجود**، فإن:

«المظهر الخارجي ليس بخالد فليس بخالد الألم فإن الذي يتألم ليس النفس ـ وما ليس النفس فلا يخصني لأنه ليس بأنا، لأنه ليس بنفسي!».

من «ساموياتا ـ نيكايا»

الألم وهم والوهم وليد الجهل!... الألم وليد «أفيديا» أو الجهل... «أفيديا» سبب «دوخة» أو الألم في كل صورة من صوره!... والألم، بجميع أنواعه، سببه الهوى الهاوي بالمرء إلى بؤر رذائل الجسم ورذائل الفكر وهذه كلها تؤلف:

القيود العشرة

إلى عجلة «الصيرورة» الداوي صريرها بما يصمّ المسمع عن العمل بوحي القانون الحقّ «دهاما» أو الذمة تقيِّد الإنسان قيوداً عشرة خيوطها الجهل!

الجهل ينتج الرغبة، والرغبة تنتج الانصراف إلى الشهوات المنتجة الصيرورة المنتجة التوالد فالمنتج، من جديد، الألم.. ومن ثم للانفلات من هذه الدورة يجب: إطفاء الرغبة **بتحطيم الجهل**! يجب استئصال الداء والجهل إنما الداء!

ولهذا الداء دواء فإذا كنا «للعلامات الثلاث للكينونة» قد أدركنا فحري.. بنا أن ندرك:

الحقائق الأربع الكبرى

إن طبيعة الألم هي هذا الوجود نفسه! وإن أصل هذا الألم هو **الجهل** وأن الطريقة لإبادة الداء قد اكتشفت باستئصال العامل الموجِد الألم... وإن العلاج هو تحطيم الجهل!

إذن أداة تحطيم الجهل هي؛ «أبهى سامبادهي» أو **المعرفة!**

ولكن!... لئن كان من «أفيديا» إلى «أبهى سامبادهي» بِعْد شاق وشائك طريق لطريق بعد طريق رسمته اليوبانيشادات فإن إلى ما قد رسمته اليوبانيشادات من غاية شق «سدارتها»: **الطريق الأوسط**

في نهاية هذا الطريق وقف «سدارتها» إليه ينادي الإنسان هادياً إلى ما إليه قد اهتدى نفسه من سعادة الخلاص وجهراً يعلن «التعاليم السرية» لتردد أضفة الجانجز وأنحاء بِنَارس وبرجع الصدى تدوي الأجواء الهندية بأن: «ساتهار سدارتها» أو المعلم سدارتها، يعلِّم:

«شيئاً واحداً أُعلِّم: الألم والخلاص من الألم!».

«البودها»

إلى الخلاص كغاية «الطريق الأوسط» طريق... طريق يقودك من الرغبة إلى السلام ومن الجهل إلى المعرفة ومُعَبّداً هذا الطريق سهلاً، فسمته: **«الاعتدال»**

لا زهد في «الطريق الأوسط» ولا عزلة... فالزهد للجهل غير مُبيد والجهل إلى المعرفة غير موصل، وإنما مسيرك فيه سيكون: **بالعمل!**

إن «الطريق الأوسط» طريق عملي إيجابي غير سلبي ـ طريق بالحياة نابض، فإن تحطيم

الجهل إنما يُنال لا عن طريق الكف عن الأعمال قاطبة والقسوة كل القسوة على الجسد، فهذا إفراط، وكالتفريط الإفراط!

كلاهما، الإفراط والتفريط، منحرف عن طريق «الاعتدال» المحتم على السائر فيه إتيان أعمال تضمن منشود الانفلات من نطاق الوهم وحركة هذه العجلة! في «الطريق» الأوسط سيكون مسيرك بالأعمال الآمرة بها: **النفس!**

وفي «الطريق الأوسط» سيكون مسيرك بالكف عن تلك الأعمال الرادع عنها: **الضمير**

والنفس والضمير؟

لا تأمر النفس إلا بعمل الخير، والضمير لا يردع إلا عن عمل الشر!..

يقيناً إذن أن الحياة في جوهرها ليست بألم وإنما الألم في الحياة ينحصر في الوهم وأن الإنسان لمرتحل وعمله الحقيقي يتّجه به نحو حياة داخلية أغنى وأعمق... حياة هو عنها في غفلة بوهم الشهوات ومن ثم فاصطباغ الحياة بألوان الكدر والحزن...

هكذا رأت البوذية، الإنسان والحياة... وقط!.. قط ليست البوذية بفلسفة تشاؤمية وفلسفتها فلسفة الألم فهذا القول إنما بها جهل!... إن البوذية لم تر الوجود شراً وإنما رأت وهم الشر في الوجود فأرادت منه التحرّر!..

قط ليست البوذية فلسفة الألم وإنما فلسفة **التخلّص من الألم**... فلسفة، قط لم تُعلّم التشاؤم وإنما **علّمت حقيق التفاؤل**... فلسفة أرادت أن تقود الإنسان إلى طريقة عملية للحياة الصحيحة وهذه لا تتوفّر، وهي المُعترفة بالنفس الكونية، إلا إذا سار الإنسان وفقاً لمبادىء قانون هذه «النفس»... وقانونها في الأفق الداخلي مسطور عنوانه «دهاما»!

إن «دهاما» أو الذمّة أو الإحساس بالحق، كلمة كانت في القرن السادس عشر ق.م على هذه السفوح تعني: الواجب. فنحن نجدها في اليوبانيشادات تأتي تحت وصف: إن الطريق المستقيم هو: «السير وفق أوامر ومقتضيات دهاما» أما ما هي، «دهاما اليوبانيشادات» فالبوذية تتولاها بالإيضاح، فلك «سدارتها» يقول:

«اجلس وأنا أعلمك ما هي دهاما.. إن دهاما **هي الحياة الفاضلة!**».

«البودها»

أتساءل كيف تعلم «دهاما»؟... إنك تعلمها!

إنك تعلم «دهاما» فإنك النفس!... فإن:

«النفس تعلم ما هو الحق وما هو الضلال»!

من «تيبيتاكا»

إن «المعلم» لك يعلم: «عش كمن يعيش من له النفس نبراس» وإن «المعلم» بك يهيب:

«أصغ إلى المُنْذر الداخلي فإنه صوت الحق»! لا تخف وأصغ إلى النفس فإن النفس قط لا تأمر بالسوء!... تنبّه ولا تخلط، وفرّق بين جنح الرغبة وصوت النفس ... إن النفس قط لا تأمر بسوء لأنها هي؛ «هو»!

إلى النفس أصغ فإصغاؤك إليها «لصوته» إصغاء أما رأيت أنك متى أتيت سوءاً أنّبتك ولاحقك بالتبكيت منها صوت تسميه؛ الضمير؟!

إن العمل بـ «دهاما»، أو الذمة، إنما السبيل الوحيد للانفلات من عجلة الصيرورة، فالانفلات يُنال **عن طريق العمل** لا في الكف عن إتيان الخير من الأعمال!.

إتيان الخير من الأعمال لن يتوفّر لك إلا متى نمت منك المدارك واتّسع بالمعرفة منك الإدراك. إلاّ متى تحطّم الجهل واتّبع المرء القانون الأخلاقي المُشرّع في الداخل وطرق «الطريق الأوسط!».

أجل... إن لهذا الطريق، ككل طريق، نهاية... ونهاية «الطريق الأوسط» تنتهي إلى الغاية التي رسمتها اليوبانيشادات فتُنال عند ذاك تلك الحالة التي تستقر فيها النفس وتعرف، لأول مرة، معنى **السعادة**!... فهناك!.. هناك وراء التغيّر وتحوّل الأحوال تقف النفس تغمرها من الطمأنينة لجّة تفنى فيها ذلك الفناء المستطاب في فناء النور!... النور الذي تعرّفه البوذية، بالبالية، «نيبانا» وبالسنسكريتية نعرفه تحت اسم: نيرفانا!

هذه هي الحالة التي تبلغها النفس متى إلى نفسها خلصت النفس وتبعت «دهاما» فتحملها ظاهرة «الموت» لا إلى صورة جديدة تبدأ بها دورة جسدية جديدة، وإنما إلى غمرة ذلك الخضمّ النوري حيث تنطوي في انتشار فيه عن حالة ينعدم فيها الإحساس بالوجود الشخصي ويتبلور فيها الإحساس بالوجود النفسي!.

حالة، تذوب فيها الأنانية وتبرز «الوحدة» في فيض غامر من غامر السعادة!... «حالة» هي تلك الحالة التي بعد شاق الطرق شق إليها «ساكياموني» «الطريق الأوسط» ذا: السبيل الثماني المعارج.

ينحصر هذا «السبيل الثماني المعارج»: في السعي للوصول إلى الكمال ومن «أفيديا» إلى «أبهى سامبادهي» تقود له درجات ثمانية أولها: «سامادينتي» = الإدراك الحق.

الإدراك الحق إنما المنحصر في فهم تعاليم «دهاما»... ينحصر في إدراك «العلامات الثلاث للكينونة» و«الحقائق الأربع الكبرى» و«طبيعة النفس» وقانون الـ «كارما» أو الصيرورة، فمتى تمّ لنا هذا الإدراك ارتفعنا إلى ثاني الدرجات: «ساماسانكايا» = التفكير الحق.

التفكير الحق إنما ينحصر في توجيه التفكير المتّجه الصالح لمساعدة الغير وهذا مظهره ينحصر في التضحية والبذل والعطاء في غير أخذ!

إن هذا الطريق هو طريق الخير الذي يقود من خلال اللاأنانية إلى الـ «نيرفانا» أو خالص الحياة فإن الـ «نيرفانا» هي خالص الحياة والدافع إنما: العقل!

إن من لم يسيء استعمال العقل عرف قلبه حب الكون والكائن وكانت له القدرة على تطبيق فكرة «الإخوة العالمية» عملياً.. وعنداك، بتطبيع فكرة «الإخوة العالمية» عملياً، نكون قد ارتقينا إلى الدرجة الثالثة: «سامافاشا» = القول الحق.

القول الحق إنما هو القول المنحصر في عفة اللسان والترفّع عن النمائم والصمت عن الوشايا... ومتى تمت لنا المقدرة على القول الحق ارتفعنا إلى الدرجة الرابعة: «ساماكامانيتا» = العمل الحق.

هذه هي الدرجة الممثلة محور التعاليم البوذية لأن البوذية، كفلسفة وكدين، فلسفة عمل ودين عمل لا معتقد نظري ونظر.. وهذا العمل إنما ينحصر في تكاليف، منها السلبي ومنها الإيجابي، فالتابع «السبيل الثماني المعارج» مقيد «بالدهاما»، بالقانون الأخلاقي الداخلي الذي تكلف تكاليفه في هذه الدرجة، الدرجة الرابعة من السبيل الثماني المعارج، اتباع:

السنن الخمس

السنن الخمس تنحصر في اتباع هذه المبادىء؛ لا تقتل، لا تخن، لا تزن، لا تكذب، تجنّب الخمر!

أجل... قلّما خلا دستور أخلاقي من هذه السنن بيد أن في غير هذه المعاني فإن النهي عن القتل الذي يأتي في مقدمة هذه السنن الخمس نهي شامل فإن «سدارتها» يرى أن الحياة نفحة قدسية في كل صورة من صورها من الإثم مسّها بسوء، فكما أنت حي فالآخرون، مهما دنت مرتبتهم في سلم الكائنات أو علت، أحياء!

ومن ثم رددّ لسدارتها تعاليم نصّ أن:

«كما أنا موجود فهؤلاء!... وكهؤلاء أنا... هكذا وحّد نفسك بالآخرين! إن الحكيم

قط لا يقتل ولا لأحد يسبب قتلاً!...».

من «سوتايا ـ نياتا»

اجعل العطف بدل القتل واجعل العاطفة منك تنعطف إلى كل صورة من صور الحياة، ضعيفها وقويها، فإن الرحمة «قانون القوانين»!

ولما القتل وال «تمان» في الكل والحياة في كل صورة من صورها وحدة؟!

إن جهل الإنسان بهذه «الوحدة» سبب شقائه، ففكرة «التفرقة» هي سبب الأنانية والأنانية سبب العداء والشقاء والحروب الدينية والاخوية والاقتصادية والسياسية..

أما للمعترض القائل بأن في التنافس والتزاحم والتسابق تقدم فالجواب يأتي بأن هذه الدوافع دوافعها الأنانية والأنانية بالسعادة لا تعودا.. ومن ثم، فمن التنافس والتزاحم والتسابق، التعاون والتعاطف والتراحم أسلم وأجدى!... مطلب الإنسان في هذه الحياة يتجه إلى غاية وهذه الغاية هي أن يجد الإنسان نفسه، ولن يجد الإنسان نفسه إلا متى أدرك أنه يمثل جزءاً من «الوحدة السرمدية» فجهل الإنسان بهذه «الوحدة» هو سبب الأنانية فسبب الحرب والتنافس وسبب الاستعلاء بين طبقة وطبقة!

وعلى هذه الأسس امتدت البوذية فسخّفت من تلك القصة الدينية القائلة بفكرة الخلق الفدائي، وأعلنت المساواة التامة، مساواة تلغي فيها الممتلكات الشخصية ويضحى الفرد للكل الكل للفرد، ونادت أنها:

الأخوة العالمية!

إن الأخوة العالمية، في البوذية، نظرة إصلاحية لا تقوم على أسس فلسفة اقتصادية وإنما على أسس صافية من صفو النفس..! نظرة بها أتت هذه الحكمة الحكيمة التي جاءت تحرّم على الفرد اعتبار نفسه جزءاً منفصلاً عن الكل! إذا اعتبر الفرد نفسه جزءاً منفصلاً عن الكل فإنه قد ارتكب «إثم التفرقة» الجلاب للشقاء في كل صورة من صوره!

هذه أولى السنن الخمس، عقيدة الأخوة العالمية... وعلى نفس الأسس من عقيدة «الأخوة العالمية»... تجري السُنَّة الثانية المحرّمة الخيانة فتكلّف المريد أو المتخذ البوذية ديناً أن يعد:

«إني أعد ألاّ أستولي على ما ليس لي فيه حق» وعد يشتمل على كل صورة من صور الخيانة في القول والنية والعمل ولما كانت هذه الصور من الوسائل إلى الإثراء المادي فقد أعلنت البوذية:

تحريم الثراء المادي على البوذي

حرّمت البوذية على البوذي الثراء المادي ولكن ليس بمعنى تعطيل الحياة الاقتصادية وشلّ حركتها وإنما بمعنى تحريم استعمال الفرد لماله الخاص لمتعه الشخصية فإن على البوذي غير محرّم طَرق الطرُقْ المشروعة للإثراء وله أن يثرى حتى إلى أي مدى شاء وإنما حرام عليه صرف ماله الخاص في خالص متعته طالما يذكر قول «سدارتها»:

«ليس في الثراء للإنسان استعباد وإنما في التمسّك به... إن الممتلك لثروة إنما في وجوهها الصحيحة لصالح المجموع لها يجب أن يستعمل...».

هذه هي تكاليف «السنّة الثانية» التي يقطع فيها المريد الوعد بألاّ يستولي على ما ليس فيه حق... ثم إن هذا الوعد القاطعه المريد على نفسه ليلزمه باتباع السنّة الثالثة المتضمنة كبح جماح أقوى نواحي الغرائز الحيوية طُراً:

«فليس هناك بين كل الشهوات والرغبات أكثر قوة من الميل الجنسي».

«سدارتها»

إن الرغبة الجنسية شهوة جسدية طبيعية، كطبيعة شهوة الأكل، وهي من الدوافع الطبيعية دافع طبيعي لجنس نحو جنس، فهي إنما القوة الموجدة والسبب في وجود الإنسان نفسه ولكن... الرضوخ للرغبة الجنسية يهوي بالإنسان إلى الهاوية ومن ثم يجب إطفاء هذا الجمر المتّقد في الخفاء، بالاستعلاء بهذه الرغبة!... والاستعلاء بهذه الرغبة لا يتسنى إلا عن طريق فهمها على حقيقتها، وفهمها على حقيقتها يؤدي إلى الانسحاب من الدائرة الغريزية البحتة إلى المستوى العاطفي، فالارتفاع بها إلى المستوى العقلي عن طريق ضبط النفس.. وبهذا الاستعلاء تخرج هذه القوة الموجدة من دائرة الشهوة إلى دائرة الحب العاطفي والعقلي.

ولكن!.. هذا الميل الجنسي الآتي به العنصر الجنسي، والعنصر الجنسي لدى البوذية أثر من آثار الـ «كارما» ومن ثم نفسه أثر من آثار الصيرورة، إنما أثر سيتلاشى في خضم الـ «نيرفانا» ولهذا تساوي البوذية المرأة بالرجل وتراها صنوه ساعية في سفر ونحو «الحقيقة السرمدية» مثله هادفة... ومن ثم كان تكليف البوذية للمرأة بالتزام التكاليف التي بها قد ألزمت الرجل وتحتيمها عليها وتحتيمها عليه اتباع السنّة الرابعة المحتمة عفّة الجسد وعفّة اللسان وأهم مستلزمات عفة الجسد؛ الطهر، وأهم مستلزمات عفة اللسان الالتزام بالسّنة الرابعة.

تحريم الكذب!

تحرِّم البوذية الكذب وتنادي إليها الإنسان قائلة؛ حرِّم على نفسك الكذب في كل صورة من صوره، فحتماً على المرتقي الدرجة الرابعة من «السبيل الثماني المعارج» أن يكون قوله

القول الحق!.. أن يكون إنساناً واقعياً يقول الحقيقة أبداً وأبداً لا يخدع إنساناً، ومن ثم فإليك مسنداً هذه القاعدة التي بناها لك في الدين الصوفي «سدارتها»:

«لا تسمع شراً، لا ترَ شراً، ولا تتكلم شراً»!

«سدارتها»

هذا هو الشيء الذي تتطلّبه منك الدرجة المحتمة عليك استعمال العقل في كل أمرك... وليكن العقل أداة صالحة للحكم استنّت البوذية السنّة الخامسة فقالت: تجنّب الخمر!

الخمر للغرائز وقود.. لا تفرط في الخمر فإن الخمر عن «الغاية» إنما انحراف!.. هذه هي السنن الخمس..

علينا الالتزام بتأدية هذه السنن الخمس، فإننا متى أديناها تمام الأداء ارتفعنا في «السبيل الثماني المعارج» إلى الدرجة الخامسة: «ساما ـ أجيفا» = العيش الحق

العيش الحق إنما ينحصر في أن يحيا المرء الحياة المتفقة والدرجة الرابعة وهذه حياة تقودنا إلى الدرجة السادسة: ساما فاياما = السعي الحق

والسعي الحق يرتسم في أربعة مناهج: صدّ الشرّ عن ولوج أفق التفكير ـ اقتلاع بذور الشرّ المسممة تربة العقل ـ غرس الخير في تربة العقل وإنمائه حتى الإثمار...

السعي الحق يحتّم حسن استعمال القوى العقلية والاتجاه بها إلى الذروة من الفضائل طراً حيث يصفو العقل من كل كدر في أفق له يتّسع ليجد نفسه فيه على مدارج الدرجة السابعة: «ساما ـ ساتي» = التركيز الحق

والآن!... الآن قد شارف المُريد الطريق المنتهي وأضاءت ظلمة الدَيجور أنوار اللانهاية!..

على هدي هذه الأنوار على المُريد الآن أن يسعى وعلى هديها الآن عليه أن يواصل السعي، فإن ارتقاءه هذه الدرجة قد أكسبه المقدرة الكاملة على مواصلة السعي، فعلى الجسد قد تغلّبت في هذه الدرجة منه قوى بها من الفضائل يرتقي مشرفاً يخوّله استيعاب معنى:

«لسنا نحن كما نحن إلا لأننا لتفكيرنا نتاج»!...

«دهامابادا»

في هذه الدرجة يكون قد تمّ للعقل تمام التركُز والتمكُّن من القوى التفكيرية! ومتى تمّ للعقل تمام التمكن من قواه فإنه لمختلط التيارات يصمد، ومتى لمختلط التيارات صمد، فهذا دليل على ارتقائه الدرجة النهائية:

«ساما ـ صمادهي»

ولكن... هذه الدرجة ثنائية، فالأدنى: «ديانا»= التأمل الحق ـ وأما العليا ـ فأعتاب:

النيرفانا!

عن طاقة مختزنة فجّرت العصمة الأخلاقية لها قوى فتفجّرت عن مقدرة لا يفهمها من عن هذا الطريق بعيداً يعيش ولكن!... إنك لواهم إذا ظن منك الظن أنك للغاية قد بلغت وللّجة قد لججت، فإنك ما زلت على شاطىء «النيرفانا»!..

على شاطىء «النيرفانا» الآن تجد نفسك لتجد حقاً أنك كنت المحارب في حرب شنّه «البودها»، كما للتبّع بهذه الصفة نادى عندما من حوله تنادوا سائلين:

«المُحَاربون، المحاربون هكذا، أيها السيد، اسمينا!...

ـ أيها الإخوان، إننا نشنّ حرباً ولذلك فاسمنا المحاربون!

ـ لأي شيء أيها السيد نشنُّ الحرب؟

ـ لأسمى الفضائل لأمثل المُثُل.. للحكمة العليا!

لهذه الأشياء أيها الإخوان نشن حرباً ولهذا فاسمنا: المُحاربون!

من «أنجورانا ـ نيكايا»

في ساحة الجهاد قد كسبت منك النفس المعركة ومن ثم ارتقاؤك «الدرجة الثامنة» من «السبيل الثماني المعارج» وهذا الارتقاء دليل على انتصار بلغ بك هذه المكانة التي تجلّت فيها لك غاية إليها بعد لم تصل ولها بعد لم تبلغ فإنك ما زلت على شاطىء النيرفانا وبينك وخضمّها، كغاية، تقف: المستويات الأربع

لا يفصلك عن هذه «الغاية» إلا هذه «المستويات الأربع» الممثّل كل مستوى منها عن الآخر اتساع الوعي وامتداده وسعة الإحاطة بالحقيقة وليس عليك بعسير ارتقاء أول مستوى، فإن بلوغك «ساما صمادهي» قد دفعك إلى أول مستوى:

«سوتا ـ بانا» أو الخوض في مياه الخضمّ

إن هذا المستوى هو نهاية «السبيل الثماني المعارج»! المستوى هذا الشاطىء الممتد منه قوياً المدّ الجارف إلى حيث لك يجترف منه التيار المتّجه إلى أعماق الحقيقة بعيداً عن دنيا البشر.. فبعيد أنت في هذا المستوى عن صخب الحياة الخارجية، وحياتك قد غدت الحياة القدسية في الداخل ـ أصبحت حياتك نفسية محضة فاضمحلت لديك إلا للنفس لذة ـ للحقيقة، للنفس، أصبحت حياتك مكرّسة فنأيت عن أوضاع البشرية!.. معايير البشر لم تعد لك معايير!. عما يفنون العمر عبثاً في السعي إليه أو في جمعه أنت قد نأيت!.. ووهماً من

البشر، وأنت الزاهد في سراب فيه يتمرغون، ينسبون إليك الزهد في الحياة ويرمونك بالسلبية وبتعطيل الأعمال فأجبهم، كما لسمحة أجاب البودها:

«حقيقة، إني أنبذ الأعمال، ولكن! أيّ الأعمال؟!.. الأعمال التي تقود إلى الشر في الكلام والفِكْر والعمل! حقيقة، إني أعلّم التعطيل، ولكن!

أُعلّم فقط تعطيل الكِبْر، الجشع، التفكير السيىء، الجهل! لا أعلّم تعطيل: التسامح والتعاطف والحقّ والحبُّ»!

«البودها»

فارقت منك النفس الآن دنيا السراب.. وللحياة الفاضلة أنت الآن مثل فإنك في هذا المستوى قد حطّمت، من «القيود العشرة»، قيوداً ثلاثة: وهم النفس والشك في حقيقة «دهاما» وضلال الطقوس.

لقد جرّبت الآن!

عن طريق «التجربة» تحققت الآن وهماً يقول بنفس فردية مستقلة عن «النفس الكليّة» تحققت، فتحققت أن التمسّك بالـ «أنا» سبب الأنانية والأنانية سبب الألم!

عن طريق التجربة تحققت الآن ألا شك في حقيقة «دهاما»... وبالتجربة أدركت أن ليس لك أن تؤمن بشيء ما لم تقدك إليه المعرفة.. إن «سدارتها» لك يُعلّم:

أن الواجب يقضي بألا يؤمن الإنسان بأي قول من السلف إليه دلف، أو بنصّ مكتوب في صحف أو مؤكد بموروث التقاليد ما لم يعمل فيه العقل بالتقصي.. والسبر!

كلا... لا تدن لمحض أنه لآبائك دين!.. لا تُقدّس كتاباً أورثه مقدّساً لك الآباء..!

كلا! لا تكن في أمرك مُقَلّداً بل متحرراً ابحث وامحص وفكّر بنفسك لنفسك!

إنك عن طريق «التجربة» قد تحققت بنفسك «الوحدة» الرابطة بين «الكل» والكل ومن ثم فعن طريق التجربة قد تحققت ضلال الطقوس.. وإلى من تذبح الضحايا وتؤدى الطقوس؟

الغفران إثم ومحو ذنب ومطلب يُطلب؟!

إذن فاعلم؛ أن الحكمة من هذه المعتقدات تسخر ولك متسائلة تسأل: كيف تريد فصل السبب عن المسبب والنتيجة عن العمل؟!

إن الخطيئة لا تذهب بها محرقة ولا للإثم يمحي قربان! وإذا اعترضت وقلت إن في هذا ردعاً.. فالجواب إن هذا ردع صبياني لصبي!

«إني لا أضع حطباً، أيها البراهمة، للوقود على المذبح، إن في داخل النفس إنما النار التي لها أشعل.

أبداً في داخلي نار مشتعلة.. أبداً مضطرمة متوهّجة! فإني أحيا حياة قدسية، والقلب مني لبراهما المذبح!».

من «ساميوتا ـ نيكايا»

سواءً أردت أم لم ترد، استغفرت أم لم تستغفر، فلثمر ما قد بذرت في تربة الزمن من بذور أنت الجاني!...

أم حسبت أن قربان ضحية سيطلقك من دقيق حساب؟... أني والمُحاسب الحق إنما:

«الألوهة في داخلك»

كلا! ليس هناك غفران فالوجود إنما محكوم بقانون الـ «كارما»! أعمال الإنسان في ماضيه تُحَتِّم حاضره... ولما كانت هذه الأعمال صادرة من الإنسان نفسه فإن الإنسان هو الذي يقدِّر قَدْر نفسه بنفسه، بأعماله!

وأي شفيع لك يشفع وأي وسيط لك يتوسّط لدفع إثم يدك له قد اقترفت؟!

كلا لا شفيع ولا وسيط يتوسّط فإنك أنت وحدك الذي تفعل حياتك!

كلا!.. غيرك لوزرك غير حامل، فلا أحد لوزر آخر يحمل ولا على الأبناء تقع جريرة الآباء! فإن البوذية التي لديها الكل سواسية تجعل كل عن عمله المسؤول!

كلا! لا تغسل دماء الضحايا منك الخطايا، ولا لأثقالها عنك رافع منك أداء طقوس، قربانك للتقرّب ليس دماً وإنما عمل وليس صوماً وإرهاق الجسد، فإن التناهي والتشديد في «تاباس»، خطر قاساه «البودها» ودون جدوى له وجد... وإنما إذا أردت التقرّب فعليك ألا تأخذ النفس بالشدّة وأن تسير في طريق الاعتدال!..

كلا.. ليس بصلاة يؤديها الجسد تنال القرب فبون بيِّن بين صلاة اللفظ فيها مصطلح صيَغ والحركات فيها قيود، والصلاة من عميق التأمل يرسلها تأمل عميق!

عن مصطلح الصيغ أشِحْ ومن أسر مادي الحركات تَحَرَّر فالعبادة الخالصة إنما التأمل! تأمل الكون والكائن حتى يصبح منك المظهر الخارجي مرآة تعكس النفس منك في الداخل!..

هذه هي الصلاة الصحيحة... التسبيح فيها السَبْح في لجج الوجود! كلا... لا مكان هناك تؤدى فيه العبادة فليس للإله مكان ليست البيوت، التي تضعها وتقيمها معابد، لبراهما مكاناً فمكان براهما: «عالم براهما» وعالم براهما هو: **أنت**!..

من ثم.. إذا إلى عبادة الإله هزتك أشواق وإلى الاتصال به انعطفت منك العاطفة وتأججت منك النفس بحبه ولهاً فلجّ من نفسك لجّة النفس!

كلا... في طيات النفس لا تنطوي بل لطياتها انشر وأمعن الفكر في المعنى اليوبانيشادي:

من له يصبح براهما كل شيء فقد نال من النعم «باراما ـ جاتي» أو أعلاها!.

«ليس هناك أسمى من هذه الغاية غاية!».

٣٢ ـ ٣ ـ ٤ «بريهادرانيا كايوبانيشاد»

هذه هي اللذة، لذة «الاتحاد»، التي أصبحت لك لذة والتي تدفعك من هذا المستوى إلى المستوى الثاني:

«ساكاد أجامين»

في هذا المستوى ستقتصر عودتك على الحياة الأرضية على مرة واحدة فإنك في هذا المستوى تهوي بمعول التحطيم على أصفاد الشهوات في كل صور من صورها... فإذا ما حطّمتها تماماً وجدت نفسك في المستوى الثالث:

«أنا جادين»

في هذا المستوى ستعصف قواك بباقي القيود من «القيود العشرة» وأهمّها ذلك الشعور المنبعث من وهم التفرقة!.. وهم الانفصال عن «الوحدة العالمية»... وهم الشعور المتخلّص في كلمة: العداء!

«لا يكف العداء العداء..

العداء، يكفه الحب!.. هذا هو القانن السرمدي!»

«دهامابادا»

العداء وهم!... ومن «إثم التفرقة» هذا الوهم!

متى هويت على وهم التفرقة هادماً، بلغت هذا المستوى الذي يحول بينك والعودة إلى الأرض مرة أخرى، وإلى صورة من «الصيرورة» كرة أخرى لن تصير...

بيد أن حذار فإنك بعد لم تبلغ «الغاية»... إنك بعد لم تبلغ «النيرفانا»!

أجل... إلى العالم الأرضي لن تعود من هذا المستوى وإلى نطاق جسدي كهذا لن تصبر، بيد أن ما زلت، بهذه المكانة، في داخل الحدود وإلى فسحة الحقيقة بعد لم تنطلق!. ما زلت في داخل تيار وهمي فهذا المستوى إنما مكان وكالعالم الأرضي عالم، له، كزمنه،

زمن... وله، كمكانه، مكان، وليس عن الأرض بمختلف إلا في طبيعته فطبيعته، النعم والنعيمِ وفيه ستحيا بجسد كالجسد الذي ألقاه عنك هنا البلى ولكنه أشفّ وأبقى وأكثر احتمالاً فدهور عنك في هذا المستوى ستنقضي مرحاً في ظلال النِعَم والنعيم.

ولكن!..

لا يتسرّبن ظنك إلى جنة، كجنة إندرا، وبك الظنون إلى جنة كالجنة تطيح فهذا إثم قد غدا لفكر عرف قيمته وأدرك للفكر قيماً وسبر للفكر لذة ونعيماً!

بيد أن الحياة في هذا المستوى، التي إذا قيست بالأرضية فالمنتهى، إنما في نطاق التيار الوهمي فما زالت فا زالت منك النفس فيها بغلاف من وهم الجسد مغلّفة وبها سراب المكان والزمن محيط... بينما وراء هذا المستوى يقع:

عالم الحقيقة

عالم الحقيقة هو عالم اللامكان واللازمن واللاشكل!... هو؛ عالم النفس!.. هو الخضم النوري، لجة اللانهائية!..

لهذا العالم، عالم الحقيقة، ستبلغ حين تكف تماماً عن ارتكاب «إثم التفرقة» وبهذا يتم لك تحطيم عقدة القيد وأصل الألم «أفيديا»... متى حطمت «أفيديا» فقد أطفأت نار الأنانية والعداء والألم، ومتى أطفأت هذه النار فقد تحررت تماماً من تيار «سامسارا»!.. عن النور في داخلك قد حطّمت الأغلفة فأنار وبذلك بلغت الغاية والغاية هي: النيرفانا

أطفأت النار فأضأت النور!.. بلغت الآن تلك الحالة التي تلقى فيها الراحة!.. بلغت حالة «أراحات»... والأراحات مكانة لمن قد بلغ «النيرفانا»...

إلى «النيرفانا» صرت فصرت نفساً خالصاً، ومتى صرت نفساً خالصاً لا يبدو مستغرباً أن تستطيع مخاطبة ورؤية تلك النفوس التي عنها الجسد قد أُلقي على اختلاف أمكنتهم ومكاناتهم في العوالم الأخرى... بلغت «النيرفانا» فبلغت «أناندا» أو الاستنارة الروحية، أو بمعنى أكثر إيضاحاً بلغت حالة استكمال نموٌ الجزء النوري الكامن فيك كمونه في كل كائن في غير اختلاف لصورة عن صورة!... بلغت حالة الاستنارة الروحية فنما منك الوعي نمواً بلغت به درجة الوعي العالمي الذي يصبح فيه الشعور بالنفس أحدّ وأرهف وأشدّ توهّجاً!

شعت اللّجة الداخلية فطمست التمييزات الفاصلة بين النوع والنوع والجنس والجنس والشيء والشيء!.. تلاشت دنيا الجسد فتلاشت لدنياه صور وحجوم وأشكال وزمن ومكان وانحسرت للنفس دنيا زمنها اللازمن ومكانها اللامكان!.. دنيا، حدودها اللاحدود ومنتهاها اللامتناهي وطبيعتها المطلقية!.

في هذه الدنيا دنيا النفس حللت أنت منك «الشخصية» فذابت.. كل شيء تلاشى ما عدا النفس!.. ولكن!.. أين، وما النفس؟

عبثاً عن النفس تبحث النفس وعبثاً تحاول النفس لنفسها لمساً فلا تلمس لنفسها إلا: اللاكيف وإلا اللاكم!.

ليس للنفس كم ولا كيف!.. ليست هي بالجوهر وإنما نور!.. ليس النور شيئاً محدوداً له كم وكيف وإنما هذا النور هو كل شيء ولا شيء!.. فإن هذا النور إنما في «نور» نفسه كل شيء ولا شيء!.

مزيج عالم «الأتما» وعامل «الأتمان»، وغير مفصول!

بوهج الوحدة اللا فاصلة توهّج الوجود!.. لا فواصل تفصل بين «نفس كبرى» و«نفس صغرى» ولا حواجز عن «النفس الكبرى تحتجز وتحجز» «النفس الصغرى»، «بالنور الكلي» امتزج «القبس النوري» وفي الخضم شعّ فشعّت من الإنسان الحقيقة!.

احتوتك الآن «النيرفانا» تمام الاحتواء وفي رحاب «النيرفانا» صرت فخلصت تماماً من عالم الأضداد!..

كلا... لم تنطفىء منك، في هذه اللجّة، الحياة فليست «النيرفانا» إطفاء الحياة!... ليست «النيرفانا» إطفاء الحياة الفردية في «الحياة الكلية»!.

بيد أنك لتسأل؛ من ثم ما هي «النيرفانا»؟ «إنها حالة، أيها الإخوان، عدمٌ فيها الأرض والماء والنار والهواء!.. عدمٌ فيها لا نهائي الفضاء، وعدمٌ فيها أيضاً الفراغ...

حيث لا يوجد هذا «العالم» ولا ما وراء هذا العالم من عوالم... حيث لا يوجد قمر ولا شمس... هناك النيرفانا!..

بأي المسميات أسمي هذه الحالة أيها الإخوان سوى أنها بدون تغيّر... وأنها نهاية الألم!»[١].

«البودها»

هذه هي النيرفانا البوذية في صورتها القديمة اليوبانيشادية كما نراها من «قانون بالي» التي تعتمد عليه هذه الرسالة في صورتها الأصلية قبل أن تتلقفها من شفاه «سدارتها» شفاه تبدّل فيها ولها تغيّر فبدلت هذه الرسالة الإيجابية وغيرت من تعاليمها التي نادت بالاستزادة من الحياة... فالنيرفانا في معناها الصحيح توهّج الذات وشعور النفس بالنفس شعور يشعر ولا

---

(١) في «أودانا».

يوصف، فإنها الغاية التي لا يلحقها المرء تماماً وهو في داخل نطاق الجسد إذ لا يمكن أن تكون كاملة تماماً وهو في داخل هذا النطاق، وهذا على عكس ما تقول به البوذية الحديثة لا البوذية القديمة التي تقول حتى إن «البودها» إليها داخل النطاق الجسدي لم يصل فليست هي إلا الغاية التي على الإنسان أن يسعى إليها في حياته الأرضية، وهذا السعي يتلخّص في:

«أن يصبح الإنسان ما هو بالفعل!».

ليصبح الإنسان ما هو بالفعل تنادي البوذية الأصيلة الإنسان؛ إن فيك يا أيها الإنسان، كامن ما هو فيك سينمو فإن النور في داخلك هو أنت! إنك النور فحطّم الغلاف ودع النور ينير!..

مهما طال في نطاق الوهم للنفس عمر، فالنهاية للكل واحدة... إلى هذه النهاية حتماً سينتهي الكلّ وعند ذاك من غفلة الوهم تستيقظ النفس، وشيئاً فشيئاً تنال البديهة ويشع تماماً منها النور وتبلغ النفس «الغاية»!

كلا...! لا أحد لك إلى هذه الغاية يقود إلا؛ نفسك!

كلا!... لا مخلّص لك من ربقة «الصيرورة» سوى نفسك، فإن «البودها» ليس بمخلص وإنما للخلاص قد أراك الطريق.. أراك طريق وسائل ولوجه تنحصر في إنماء المبادىء المنيرة في الداخل حتى الإشعاع وبلوغ الكمال عن طريق الإعداد النفسيّ... فخذ النفس للطريق مشعلاً:

«وعش كمن يعيش من له النفس نبراس!».

«البودها»

من الإمكانات إلى الفعل وإلى تمام الاستنارة للنفس يقع الطريق الذي شقّه البودها، فإن البوذية لا تعتمد في جوهرها على معونة قوة خارجية يُنتظر إلهامها أو تجلّيها وإنما تعتمد على المجهودين النفسي والعملي للفرد، فالبديهة تكمن في كل كائن لأن كل كائن إنما من تلك «الحقيقة السرمدية» قبس، فليس في البوذية فكرة وحي خارجي أو وحي مُنزَّل، فإنما الوحي لديها يتلخص في أنه للنفس تفتّح وصعود حتى تنمو وبعد «أفيديا» تنال «أبهى سامبادهي» كما نال البودها بعد أفيديا «أبهى سامبادهي» أو المعرفة!

بهذا التحديد تدلف بنا البوذية إلى: مشكلة الوحي الهابط والوحي الصاعد.

الوحي في البوذية هو تفتُّح البديهة والاستجابة إلى **ما هو موجود في الكون أصلاً** ـ الوحي إنما ارتفاع بالنظر إلى ما هو موجود أصلاً في الكون ـ الوحي، تماماً كالمعرفة، غير

مقصور على واحد دون واحد فالمنطق العقلي ليأبى للألوهة أن تختار فرداً بين أفراد وعن أفراد تُفضِّل فرداً، والعدالة الإلهية تتنافى وهذا القول ومن ثم، والكلّ في «الكل» سواسية، الفرد هو الذي يختار وهو الذي يرتفع بنفسه حتى ينال المعرفة وبنفسه إلى الإله يصعد!

بِنَبْع الوحي من الداخل تقول البوذية.. وهذا القول القائل بنبع الوحي من داخل النفس، في عهد كان الكهنوت البراهمي يسنده إلى عمل السماء وجهراً تعلنه البوذية للبراهمة فتعلن قولاً لم يك للبراهمة لهم به عهد من قبل، إنما يُكوِّن أهم مستحدث ديني بعد ذلك المستحدث الذي أعلن التحرر الكامل من الطقوس.. ومن ثم لئن كان إلغاء الطقوس أهم مستحدثات التفكير اليوبانيشادي، وكان التحرر الكامل من الطقوس أهم مستحدثات الدين الجيني فإن أهم مستحدثات الدين البوذي:

نفي الوحي الهابط!

فريد في عالم الشرق القديم يقوم «سدارتها» يعلن هذا القول في دين يقف بين الأديان الفريد!

فريد بين أديان الشرق القديم يقف الدين البوذي فالدين دين لغيره من الأديان طرأ يخالف فهو دين ينفي الوحي المنزل!..

أجل... بالوحي الهابط والتنزيل لا يعترف هذا الدين فالشريعة لديه سرمدي شريعة وعلى صفحة كل قلب القانون منها بسننه مسطور.. وإن وجود هذا القانون في الداخل ينفي الحاجة بالإنسان إلى قانون خارجي، فاتباع «دهاما» أو القانون المسطّر على القلب يضاد تمام المضاداة فكرة الوحي الهابط!

عقيدة فجّة مادية عقيدة «الوحي الهابط» فإن الألوهة لا تتكلم كلام البشر ولا للبشر تتجلّى.. وللبشر برسائل خارجية الألوهة لا ترسل!

إن هذه «الرسالة» بأدائها قد صدع سدارتها لا بأمر خارجي ووحي منزّل وإنما بوحي داخلي.. من منبع النفس!

هذه هي الرسالة الدينية التي قضى «سدارتها» نيفاً وأربعين عاماً على هذه السفوح بتعاليمها مبشراً، لا كما تطورت من بعد وإنما كما تركها للناس عامة تعلن جهراً «التعاليم السرية»، فأقامت صرحها على أرسخ قواعد صوفية تقوم منها الأسس في أعماق لجّة النفس.. رسالة جاءت، للناس عامة، بالحب وشقّت لهم طريق الخلاص من الألم، ولهذا أتى منهجها الفلسفي ومذهبها الروحي بدين واقعي إيجابي ترك خياراً لمن بينهم طوّف من قد أرسلهم «سدارتها» من مبشّرين يهدون إلى «الدهاما» أو الحق باسطين يد المساعدة لمن قَبِلَ

«الدهاما» واستعد لاجتياز «الطريق» مردّدين لسدارتها تعاليم... تعاليم سجّلت على شفاه التبّع كما تركها سدارتها بينهم شفوياً.

أجل... إن سدارتها لم يترك نصاً كتابياً ولم تدوّن له تعاليم إلاّ بعد حوالي ثلاثة قرون من الزمن، فحتى المدى ظلّت تحفظ بين التبّع تعاليمه لتتذاكر كما استذكرها علناً الحفّاظ الأول في «المجمع الأول» الذي عقد بمجرّد وفاة سدارتها تحت رياسة التابع الأقدم «كصابا»...

كلا... لم يتنازع «المجمع الأول» أمراً ولا اختلف شأناً وأمراً في خلافة.. وإنما تلا «أوبالي» الناحية الخاصة بالقوانين أو المبادىء التي جمعت من بعد على حدة في سلة واحدة، كما جاء عنها التعبير، فكانت هذه المجموعة التي نعرفها تحت اسم: «فينايا ـ بيتاكا».

وتلا «أناندا» الناحية الخاصة بالأمثلة التي جمعت أيضاً من بعد على حدة ليجيء عنها نفس التعبير فكوّنت السلة الثانية الحاملة للأمثلة: «سوتا ـ بيتاكا»

وعاد «كصابا» نفسه فتلا الناحية الخاصة في ما وراء الطبيعة والنفسية، والفلسفية فكانت السلة الثالثة: «أبهى دهاما ـ بيتاكا»

وبهذا الجمع طلع، في عالم الكتب الدينية بما يتألف من أجزاء، كتاب الدين البوذي: «تي ـ بيتاكا» أو السلال الثلاث.

على أوراق النخيل وعسفه سجّلت «السلال الثلاث» فسجّلت لسدارتها صوتاً راح يدوّي في مسمع الأجيال ليشتد دويه في مسامع الهند وعلى عرش امبراطوريتها «بيادازي» من نعرفه في التاريخ السياسي باسم «أسوكا» ليعقد في عهده «المجمع الثالث» في «باتنا» ويطلع سدارتها تحت لقب:

«بودها!»!

بانفضاض «المجمع الثالث» طلعت «السلال الثلاث» كتاباً مقدّساً ولكن! لا بمعنى التنزيل فالكتاب لا تسيّجه قدسية التنزيل وإنما بمعنى أنه ضام لصحيح «الحديث السدارتهي»... ولكن لتتطور بهذا الكتاب عن سدارتها الفكرة والعقيدة، فإن سدارتها الذي ظل حتى عهد أسوكا لا يعرف له من الألقاب إلاّ ألقاباً قط لم يرد بينها لقب «البودها»، فقد اقتصر المجمّع الأول والثاني على تعريفه بساكياموني أو حكيم الساكيا ومن النعوت المسجّلة له غضون تلك الفترة الزمنية، النعوت الشائعة المتداولة زمن ذاك لكل «بهاجفان» أو السيد، ولكل «ساتهار» أو المعلم، فإنه يطلع بانفضاض «المجمع الثالث» تحت لقب «البودها» وصاحب رسالة انقلبت من فلسفة إلى دين!...

أجل... منذ اللحظة التي انعطف فيها إلى هذه الفلسفة «بيادازي» وفي سلك التبّع انخرط، ولقّب بـ «أسوكا» أو البعيد عن الحزن!... تحولت، تبعاً لتحوله، البوذية من تعاليم متداولة في الشمال الشرقي إلى دين رسمي في الهند قاطبة!.

وعلى هذه السفوح رفّت البوذية ديناً رسمياً أقرّت مبادئه روح السلام فرفّ السلام على الهند وعرف تاريخها السياسي خلال حكم أسوكا، لنيف وربع قرن من الزمن، استقرار النفس وباستقرار النفس عرف معنى السعادة...

وكدين محوره «البودها» امتدت البوذية امتداد الظل السياسي الأسوكي، بل وامتد لها ظلاً إلى خارج أرضها فقد انسابت بالمبشّرين إلى خارج أرضها كدين هداية تزعّم الهداية إليه «أسوكا»...

على صفحة التاريخ ما زالت واضحة غير باهتة تلك الرسائل التي أرسلها «أسوكا» هادية إلى «الدهاما» أو الطريق المستقيم.. رسائل تنطق بفحواها الأعمدة التي أقامها «أسوكا» مسجلاً عليها هذه الإرساليات التبشيرية إلى سوريا وإلى مصر وإلى مقدونيا...

ولكن!.. منذ أصبحت البوذية الدين الرسمي للهند، وإلى الوراء دفع الكهنوت البراهمي، بدأت محاربة الكهنوت البراهمي للبوذية، فقد تكتلت قواه واستجمعت قوتها تنتهز الفرصة للانقضاض... فرصة سنحت بوفاة أسوكا!

واتخذ الكهنوت البراهمي لمحاربة البوذية وسائله.. فلإضعاف البوذية دفع اللاهوت البراهمي التعاليم البراهمية إلى قلب الدين البوذي التي انسابت في إدماج فيه... ومن ثم ظهور تلك المذاهب البوذية، البراهمية الصبغة التي قط لم تك في الدين البوذي معروفة، فسجّل هذا الأثر العامل:

الانشقاق الديني حول طبيعة البودها، وانقسام المذاهب إلى أصغر وأكبر وطلوع مذهبي: «هنايانا» و«ماهايانا»

حول طبيعة «البودها» انبثقت مشكلة أثارها انتشار لون حلولي تجسدي في «المذهب الفشني»، لشرحه سنتعرّض بعد صفحات، فلم تكد البوذية تنتهي من كتابة سفرها الأول، في القرن الثاني ق.م. حتى بدأت في القرن الأول ق.م تتطور تطوراً لعب في تاريخ التفكير الديني دوراً له أهمية خاصة، فإن الآراء المتعارضة من حول طبيعة «سدارتها» قد كوّنت النواة التي أثمرت الانشقاق في بناء الدين البوذي لينشطر فيكون المذهب القديم والمذهب الحديث أو عقيدة القدامى وعقيدة المحدثين. فإن بينما للسلف القديم ظلّ خلف في اتباع للقدامى سار لا يرى في «البودها» إلا بشراً فيه البديهة قد أنارت وبما حملت النصوص من

المعاني يتشبث لا يرتضي لها تأويلاً، انصرفت ناحية أخرى لا ترى رأي السلف فقد شطّ التفكير فيها بتقديسها للبودها شططاً عن النصوص الأصلية.. فأوّلت وحوّرت حوّلت النصوص إلى ما يوافق جديد اتجاهها، ومن الحجج اتخذت هذه الحجّة القائلة بأنها لقديم النصوص لا تنكر وإنما للتشبث بحرفية النصوص تستنكر وأنها بين الأحزاب قاطبة، القادرة على فهم تعاليم «البودها» وأن مذهبها، بين المذاهب طراً، المذهب الصحيح القائد إلى الخلاص!. وبهذا الإعلان، إعلان أن مذهبها هو العارف الطريق الصحيح القائد إلى الخلاص، لقّبته:

«ماها ـ يانا» أو الطريق الأكبر، ولقّبت المذهب القديم «هنا ـ يانا» أو الطريق الأصغر.

انقسم الدين البوذي، بهذا الانشقاق، إلى طريق أصغر وطريق أكبر... إلى الشمال جرى الواحد وإلى الجنوب جرى الآخر ـ ولظنّ «الماهايانا» أنها أفهم بالتعاليم، مثّلت «الهنايانا» «بالعين» لتمثّل نفسها؛ «بالقلب»...

و«بالعين» و«بالقلب» طلعت بوذية الشمال تختلف جوهرياً عن بوذية الجنوب، فإن كان لكل منهما «البيتاكا» كتاب لا يختلف فيه إلا من حيث المعاني وإن كان لكل منهما «البودها» محور لا يختلف فيه إلا من حيث الطبيعة وإن كان لكل منهما البوذية دين فإن الحقيقة هي أن هناك اختلافاً جوهرياً وتبايناً أساسياً في أسس العقيدة الدينية فللواحدة التقديس خضاب بينما الأخرى خضابها التأليه الذي سجّل:

الدين المفلسف أو البوذية في صورتها المتأخرة تأليه «البودها» و«عقيدة التجسّد» و«عقيدة المخلص ابن العذراء»

عن «المذهب القديم» المحمّل الكائن الحي تقدير ذاتيته، أعرض «المذهب الحديث» إلى سنة جديدة استنّها بإعلانه أن:

كل كائن حي يمكنه أن يكون «بودها» آخر فيصير «كالبودها» سواء بسواء!.. ولكن لا لينجو بنفسه ويكون له خلاص الخاص الذي رسمه المذهب القديم كغاية، وإنما ليخلص نفسه ويخلص المجموع أيضاً معاً!

أبت العاطفة في «المذهب الحديث» تحت مؤثرات من التغيرات الزمنية إلاّ أن ترى في السنّة القديمة أنانية فردية فاستنّت هذه السنّة الجديدة... لم تخش من جانب المنطق أي سؤال بل إلى منطقها تطمئن وبدافع هذه المؤثرات من التغيرات الزمنية تعلن:

إن سدارتها ليس كالبشر!... إن لسدارتها من البشر الصورة وأما الطبيعة فيه فإلهية!.. لإنقاذ البشرية بأن يتحمّل عنها عبء خطاياها قد **تجسّد**، في صورة «البودها»، **على الأرض الإله!**

إلى هذا التغيّر في غضون قرن من الزمن، من عهد أسوكا، تغيرت البوذية بانفصالها إلى هذين المذهبين.. وبينما ظلّ البودها في البوذية الأصيلة كما كان «معلماً» فإن في البوذية الحديثة قد تحوّل إلهاً!

من كائن إنساني إلى كينونة إلهية تحول البودها فتجلى إلهاً على الأرض لخلاص البشر قد تجسّد ومن ثم جديد نعته: «بودهي ـ سانفا» أو **مخلّص البشرية!**

عن كاهل الشعور البشري الشاعر بخطاياه أزاح «المذهب الحديث» الأثقال فامتد هديره تياراً جارفاً يكتسح الحواجز ويغمر من القلب السويداء، وبينما ظلّت البوذية القديمة في أراضي الجنوب لتتحدر على الأيام حتى اليوم ديانة لسيلون وبورما وسيام وكمبوديا، امتدت البوذية الحديثة أو البوذية المؤلهة «البودها» فأظلت وامتدت، ديانة في الأصل تبشيرية، إلى عالم الشرق القديم ودنيا القرن الأول قبيل المسيحية، حيث راحت تبشر عن نفسها ديناً محوره شخصية هي:

كلمة الحكمة المتجسّدة على الأرض

وبهذا التبشير أصبح البودها رمزاً للإله المخلّص الذي إلى الأرض من حين إلى حين يجيء **متجسّداً في صورة بشرية** لإنقاذ البشر!...

وعانقت القلب هذه العقيدة وراحت الشفاه تقص عن «البودها» من القصص قصصاً نراها اليوم على الجدران مسجّلة، ومن هذه القصص تلك التي تقول إن بمولده قد تنبّأ المتنبئون، وسباقاً بينهم كان «أزيتا»... وإن الملائكة قد بشّرت به أباه قبل أن تحمل به أمه **عذراء**...

وهكذا يطلع علينا سدارتها في سجل التاريخ الديني وله لقب: «ابن العذراء مايا»!

وتسير الشفاه تقص واليد على الجدران تسجّل؛ إن بمولد «ابن العذراء» ابتهجت السموات... بالأناشيد دوّت أرجاء الملكوت الأعلى طرباً لمن صبياً أذهلت حكمته الشيوخ!

وإن شاباً خلال صومه تسعة وأربعين يوماً حفّ به التحريض من «مارا» أو روح الشر أو الشيطان، ووعده، لقاء تحوّله عن التبتّل، «الهملايا» ذهباً... ولكن! صادعاً برسالته سار «البودها»، محاطاً باثني عشر تلميذاً، يطوّف... وفي تطوافه أنجز اثنتي وثلاثين معجزة شفاء، ومن رغيف واحد له بارك أطعم حشداً من الناس مؤلفاً من خمسمائة!.. وإن إليه هوت أفئدة راعها منه كلام انحصر في ضرب الأمثال بينما روعت أفئدة خشت منه السلطان فتآمرت عليه وإلى المتآمرين انحاز «ديفادانا» أحد التلامذة الأتباع!..

وإن إلى مدينته عاد «ابن العذراء» بعد هذا الطواف، فدخلها بانتصار عظيم.. وعاش

معلماً ضارباً الأمثال حتى ثوى وحزنت الدنيا على فراقه فقد صاحب يوم رحيله عنها زلزال!

ولكن!.. علامة على خلود حياته تجلّى، للتتبّع، بعد الموت جسداً!

قصص.. قصص، بها تحوّل «البودها» من تلك الشخصية التاريخية إلى هذه الشخصية الأسطورية!.. إلى هذا التحوّل تحوّل «البودها» بعد قرون من حياته، فقد حوّلته المخيلة البشرية من بشرٍ إلهي إلى إله بشري بعامل ذلك المؤثر العائد بتاريخه إلى ما قبل إعلان «أسوكا» البوذية ديناً رسمياً للهند والعائد بأسبابه إلى تلك الفترة الزمنية التي جرى فيها مجريين لشيفا ولفشنو عبرهما تطاحناً على عرش السماء، لينحسر خضم هذا التطاحن عن تلك العقيدة التي ما سرت وما رفّت حتى عمّت الهند في القرن الثاني ق.م:

عقيدة التجسّد

عقيدة التجسّد أو عقيدة الألوهة المتجسّدة أو بالأحرى حلول اللاّهوت في الناسوت، عقيدة يأخذنا عبرها الزمن من شفق القرن الثاني ق.م حتى غسق القرن الخامس ب.م، ناشراً للتفكير الديني في تلك العهود تفكيراً تشعبت منه النواحي ومنه اختلفت الاتجاهات كنتيجة للتيارات المختلفة التي جرت نحو «شيفا» و«فشنو» في نفس مجرى الدين البراهمي.. في هذه الفترة التي فيها أصبحت الإمبراطورية الأسوكية رواية ترويها براهمة حاربت البوذية، ولنفيها الوحي الهابط اعتبرتها ديناً إلحادياً فنفتها إلى خارج أرضها!

في هذه الفترة من الزمن التي عادت في غضونها القوة الكهنوتية البراهمية تعتلي سابق مكانتها بعد ذلك التفكك اللاهوتي الذي أصابها في داخل النظام الديني، رأت هذه الطائفة المتعهدة الدين أن الدين البراهمي قد بدأ يفقد مكانته بالمذاهب العابدة فشنو وشيفا ومن ثم لم يكن بدّ لاتقاء هذا التصدّع إلا اعترافها بأحقية المذهبين وإدماجهما في نفس بناء الدين الهندوكي وهكذا عاد يتدفق من جديد قوياً هدير ذلك التيار القديم الذي بدأ تحدّره منذ عهود «الريجفادا» مدوياً باسم «شيفا» إلى جانب ذلك التيار الآخر الجاري باسم «فشنو».

أجل... لقد لجّت عبادة «شيفا» الطقوس الهندوكية ولجّ المذهب الشيفي الدين الهندوكي... وإلى أرجاء من القلب البشري تسرّبت محبة شيفا غداة حوله محبوه من رمز دمار وتدمير إلى رمز محبة وحب، بل وامتدّ تحت هذه الصفة جارفاً فاجترف إليه من مُسطري اليوبانيشادات المتأخرة طائفة ما غمرت محبته منها القلب حتى تسارعت نبضات هذا القلب تنبض باسمه إلهاً، فأعلنت هذه الطائفة توحيده ببراهما ذلك التوحيد الذي بدأت به خطوات شيفا تتجه نحو العرش الإلهي، لتلتمع، كأثر لهذا الاتجاه، تلك الأضواء

التي تنتشر على صفحات الـ «سيفيتا سفاتارا بوبانيشاد».

ولكن بين «شيفا» وارتقاء العرش الإلهي يحول الآن ذلك الدويّ الذي أرسله الكهنوت الفشني بنداء رجعته عن أرجاء الشمال أرجاء الجنوب أصداء ترجع للاهوت الفشني دوّي أقلام: أن فشنو هو سيّد الحب، فإنه هو الذي على الأرض لخلاص البشرية قد تجسّد!

نداء، به يطالعنا في سجّل التاريخ الديني:

دخول المذهب الفشني في الدين الهندوكي بإبراز عقيدة حلول اللاهوت في الناسوت وانبثاق عقائد؛ «أفاتار» أو الألوهة المتجسّدة.

روح الإله «كريشنا» و«كريشنا» الإله والطفل الإله أو الإله الطفل «المخلص ابن العذراء» والكتاب المنزّل؛ «بها جفاد جيتا» والتثليث والثالوث والأقانيم الثلاثة.

إلى فشنو من لاسمه قد صاحبت منذ عهود الريجفادا عقيدة التجسّد الفشني على الأرض في صور الكائنات، تحوّل بهذا النداء الانتباه في زمن كانت الأجواء فيه مُهيأة لقبول هذه العقيدة القديمة تحت صورة جديدة لا ليسألنّ فيمن فشنو قد تجسّد؟.. إلاّ وإليه يأتي من اللاهوت الفشني الجواب في: كريشنا!

إن فشنو قد تجسّد في كريشنا مَنْ لـ «أرجونا» عن حقيقته، ليلاً، قد أسفر ونشيداً حدّثه بكلم يضمه كتاب تكوّن آياته أنشودة الإله: بهاجفادجيتا

و«للبهاجفادجيتا»، من اليد اللاهوتية تناولت اليد الهندية لتتناوله يد عن يد عبر الأجيال «كتاباً منزلاً» تعتبره هذا اليوم الكتاب المنزّل الوحيد في دنيا الكتب المقدّسة.

ولكن... لا تتناول هذا «الكتاب المنزّل» منا اليد وتطوي في نشر منه الصفحات إلا ويتضوع من بعض سطوره قوياً أريج «الشندوجيا بوبانيشاد»!

للنغم الشاندوجي تجري بالترجيع من «الجيتا» سطور فللكلم اليوبانيشادي القائل بالوحدة تُرجِّع «البهاجفادجيتا» فتردِّد القول بالوحدة ولكن لتجعلها للكل مقبولة كمذهب يشير الكهنوت الفشني إلى كريشنا قائلاً: إن في كريشنا قد تجسّد «فشنو!»

من غيم الزمن طلع اللاهوت الفشني بكريشنا.. وإلى كريشنا التفتت الهند ولكن لا لترى كريشنا كما كان على حقيقته شخصية تاريخية وإنما لترى فيه شخصية إلهية فيها يتراءى فشنو!

تحت أضواء التاريخ نقترب من «كريشنا» فنراه شخصية تاريخية تدل على وجودها المدوّنات الأثرية وسجلات النحويين، ولتنحسر هذه الأضواء التاريخية عن كريشنا فنراه غداة

نشرته راحة الزمن على الشاطىء الغربي من «ميسورا»، حوالي القرن الخامس ق.م، كحاكم أقام في تلك البقعة من الأرض له ملكاً منه أشرف على الدنيا للدنيا يستعرض عهداً كانت فيه سيلاً تنساب سيول اليوبانيشاديين وتوشّى المروج الخضر الثياب الصفر فرأى المعرضين عن السراب الدنيوي واسترعاه هذا الإعراض الذي قاده إليهم يطلب منهم جليّ الأمر، ومُسائلاً وافته يد كانت تجري بتسطير الشندوجيا من اليوبانيشادات بالرد.. وبين الحكيم والحاكم ـ بين كريشنا والبراهمي اليوبانيشادي «غورا أنجراسا» ـ تمت تلك المقابلة التي نسمع الخبر عنها في فصل قصير من الشاندوجيا في صدد تحدّث أنجراسا لكريشنا عن «براهما» وتعريفه له: إنه اللافاني لأنه **النفس**!

وعملت التعاليم اليوبانيشادية عملها في نفس كريشنا فتحوّل، تحت تأثيرها وبدافعها، يقبل العقيدة اليوبانيشادية القائلة بخلود النفس و«دهاما» لتمثل، عقيدة الخلود، المحور من تعاليمه، كما يمثل «الدهاما» اليوبانيشادي مبدأ محتوماً في تعاليمه ومرعياً.. وهذه نتيجة كانت طبيعية ومحتومة، فإن التفكير اليوبانيشادي بالوحدة الحلولية التي شغلت العقلية الهندية عامة على اختلاف مراتبها قد شغلت خاصة الطبقة المحاربة التي آزرت هذه الفكرة لأنها وجدت فيها، قبل أن تكون معتقداً عقلياً، تحرراً من قيد الطقوس الدينية التي أرهقت بها البراهمة كاهل هذه الطبقة من الخاشترية... ومن هذه الطبقة كان ابن فاسوديفا، وابن ديفاكي... فكسدارتها كان: كريشنا

بيد أن كسدارتها لم يك كريشنا في فهم صحيح التعاليم اليوبانيشادية بل وعهده كان عهد الشاندوجيا، عهد عمّت فيه وشاعت عقيدة التجسّد الفشني على الأرض في صورة الكائنات وأصبح حلول اللاهوت في الناسوت عقيدة مقبولة كنتيجة عملية لسوء فهم التعاليم اليوبانيشادية، تحوّل كريشنا، وقد أقنعه من اليوبانيشادات تفسيرها للنفس الكلية والنفس الفردية، يمزج بين مثالية اليوبانيشادات ومادية العبادة الفشنية وكأثر لهذا المزج أتت مبادىء جديدة التعاليم يضمها هذا الكتاب المسجّل كلاماً هو هذه التعاليم التي ألقاها، على أرجونا، كريشنا!

ولكن! يأبى للدين الهندي تاريخ إلا اعتبار هذا الكلم المحض البشري، محض إلهي!.. وإلاّ مناولته «البهاجفاجيتا» للأجيال كتاباً مقدساً يحفّ به الصوت اللاهوتي مدوياً، إن فشنو قد تنازل فتنزل وفي كريشنا تجسّد وتكلّم، فالكلم من ثم حقاً تنزيل!

أجل... على «كريشنا» يلقي التاريخ السياسي أضواءه فنراه يخطو على التاريخ حوالي القرن الخامس ق.م في جو بالأريج اليوبانيشادي الأول قد عطّرت منه الأرجاء، مردّداً هذه

التعاليم اليوبانيشادية التي برز بها على صفحة عهده ولكن!.. كما تسير الأيام بالأيام نرى كريشنا قد تحول تحولاً غدت له من الصفات تلك الصفة الرسمية التي عرفت له في القرن الثاني ق.م وأصبح تحتها ينادي: «كريشنا روح الإله»

وعند هذه الصفة لكريشنا لم تقف الأيام بل، والزمن يسير من القرن الثاني ق.م إلى القرن الثاني ب.م، نرى كريشنا قد تحول من روح الإله إلى:

الإله المتجسّد على الأرض إن الزمن كما بيننا وبين «الشاندوجيا» يباعد يبعد بنا عن الصورة الحقيقية لكريشنا حتى تلفّه بكثافتها القرون! حجبت المخيلة الدينية للاهوت فشنو حقيقة كريشنا ونسجت من حوله خيوط الأساطير، وبهذه القصص الخيالية مكّنت في القلب الجماعي محبة فشنو عن طريق استعادة ذكرى هذا الحب بكريشنا فإن «كريشنا» الذي لم يك في عهد «الشندوجيا» لتعرف له من الصفات إلا صفة «سدارتها» أو المعلّم والذي لم يك إلا «بهاجفان» أو السيد.. إنما قط لم يلحق باسمه ما قد لحقت به من بعد من صفات غداة حوّلته اليد الكهنوتية إلى «ديفا» ثم إلى «ديفا ـ ديفا» أو ربّ الأرباب وأدخلت في نظام البناء الديني عبادة له خالصة وأقامت باسمه المعابد وألهبت في القلب جذوة الحب الفشني بنداءها للخشّع: إن كريشنا لفشنو «أفاتار»!

كـ «أفاتار» أو صورة متجسدة لـ «فشنو» يطلع علينا «كريشنا» عبر الأجيال.. غاب كريشنا التاريخ وطلع كريشنا الدين!.. دين راح يصوِّر له من الصور الصورة الحبيبة إلى القلب الجماعي التي بها يطلع علينا كريشنا تحت صورة: الطفل الإله أو الإله الطفل.

مادة هذه القصة تلك القطعة من الأدب الهندي القديم التي يجب أن تعود إليها إذا أردنا أن نفهم هذا المذهب الفهم الصحيح فهي القصة التي كانت الأساس الذي قامت عليه إليها جفادجيتا والتي من جرائها لحقت بكريشنا الأساطير... إلى تلك القطعة من الأدب الهندي نعود فنتبع «كريشنا» على صفحات: الـ «مها ـ بهارتا».

تقصّ الـ «مهاتا بهارتا» أو القصة الكبرى لقبيلة البهاراتا التي إليها كريشنا ينتمي والتي بسببها تنعت هذه القصة، تكريماً لها، بالفيدا الخاصة، كيف أن الملك الضرير «دهر يستارا شترا» كان يحكم «حاستينا بورا» وله من الأبناء مائة ويعرفون بالـ «كورافا» وأسنّهم «دوريود هانا».. وأن للملك كان «باندو» أخاً وله أبناء خمسة يعرفون بالـ «باندافا»، لتجري القصة فتقص كيف أن الـ «كورافا» نفوا الـ «باندافا» ومن بين هؤلاء الإخوة الخمسة كان «يودهشتيرا» وأن كيف انسحب الـ «باندافا» لتنقضي عنهم عشرة أعوام كاملة في نهايتها يبرز «يد هي شتيارا» بعدة قد أعدت وبعدد من الحلفاء وعديد من الجند والعتاد لتسير الأيام

عن الفريقين وهم في نزال حتى تم انتصار الـ «باندافا» وأقام «يودهشتيرا» ملكاً لم يك ليقام لولا تلك الليلة، ليلة المعركة الفاصلة، واشتداد ساعد «يودهشتيرا» بأخيه «أرجونا»... الذي دفعه إلى الانتصار رفعاً للكلم الذي ألقاه عليه «كريشنا».

هنا يلعب «كريشنا» دوره في القصة، فكريشنا، وهو من الخاشترية أو الطبقة المحاربة، يصاحب «أرجونا» وفي مركبته الحربية يتولى أمر القيادة.. وهنا تسترسل هذه القصة وتقول إن في تلك الليلة، ليلة المعركة الفاصلة، كاد يحجم «أرجونا» عن القتال وعن مواصلته مقلعاً لاستشعاره فظاعة إراقة الدماء بين الإخوة لولا دفع كريشنا له بتعاليم بها أسفر له عن نفسه ككائن عالمي فيه الكون منعكساً يمور!...

وهكذا تجري القصة الطويلة التي بدأت في غسق القرن الخامس ق.م لتكبر وتتضخّم لأكثر من ألف سنة بما أُدمج فيها وما نفسها له قد اتّسعت من مذاهب داخل الجدران الهندوكية حتى نمت إلى راهن حالتها لتشتمل على مائة ألف بيت شعري، لا يهمنا منها إلا ذلك الجزء المصطلح عليه كحديث بين أمير الـ «باندافا» و«كريشنا» في تحدثه إليه عن نفسه ككائن عالمي فيه الكون منعكساً يمور... فهذه التعاليم هي التي تؤلف الآيات التي كوّنت الـ «بهاجفادجيتا» أو أقدس الكتب المقدّسة الهندية قاطبة فقد اعتُبر الكلم الكريشني، تحت هذه الصفة التي عن نفسه فيها قد كشف لأجرونا، كلماً إلهياً.. وبدافع هذا الاعتبار امتدت اليد اللاّهوتية تفصله عن القصة، وبانفصال هذا الكلم إلى كتاب، قام باسم كريشنا مذهباً قام في الدين الهندوكي وما زال فيه حتى اليوم يقوم!

أجل.. لإبراز «فشنو» بدأ تحوّل كريشنا إلى المصير الذي صيّره إليه الفشنيون عندما في خضم التطاحن على عرش السماء بين «فشنو» و«شيفا» حاك اللاّهوت الفشني هذه البدعة، وفي القرن الثاني ق.م قال:

إن لإنقاذ الكون وخلاص الإنسان ولد من جديد «فشنو» على الأرض، كابن للمصطفاة بين نساء العالمين العذراء، «ديفاكي»، في صورة كريشنا!.

وبلقبٍ لكريشنا جديد انطلقت الحناجر المؤمنة تحت حمى من جنون العاطفة تناديه:

كريشنا ابن العذراء!.. على مدوّنة «بسناجار» القائمة جنوبي «جياليور» التي أقامها «هليودوراس» في القرن الثاني ق.م، يتنفس التاريخ عبر النصوص التي يطالعنا بها «كريشنا» صورة تجسّدية للإله على الأرض كوليد من عذراء!

صورة، ينتشر بها لكريشنا ظلّ، حتى اليوم، كإله!

ولكن! يجب استدراك إساءة فهم المعنى من هذه العبادة، فإن «كريشنا» لا يُعبد بمعنى أنه

هو الإله وإنما بمعنى أنه مظهراً للإله فيه الإله قد تجسّد تجسُّده من قبل في فشنو، وهذا التعريف يخرج بنا من غموض المعنى إلى جليه إذا أدركنا أن عقيدة التجسّد في التفكير الهندي تختلف كل الاختلاف عن عقيدة التجسّد في التفكير الشرقي القديم، فليس هناك تجسّد كالذي صادفناه في مصر القديمة من تجلي الإله بشراً سوياً لِمَنْ مِنْ النساء قد اختار واصطفى وإنساله منها ابناً.. كلا ولا هناك عقيدة كالعقيدة الشعبية في طقوس الدين الكنعاني بالزواج بين الرب والشعب وإنما هي عقيدة تقول إن نفس الإله أو بعبارة أوضح **روحه تتخذ شكلاً؛ بشرياً وتتجسّد على الأرض..**

تحت هذه الصفة عُبِدَ كريشنا... وبهذه الصفة دوّت أرجاء القرن الأول ق.م... ورددت أرجاء القرون المتتالية رجْع هذه الأصداء لتتجاوب وتخفق بها رياح الزمن إلى حيث راح بها مسير الزمن مرددة إن:

كريشنا، روح الإله والصورة التجسدية للإله على الأرض، ابن عذراء!

ردّد هذا الترديد زمن ما قبل الميلاد المسيحي وما بعده بغادٍ ورائح من وعلى هذه السفوح، فردّد الشرق القديم معتقداً رسخ في مخيلته في خلال تلك الفترة التي بدأت تلحق بكريشنا من الأساطير تلك الأسطورة التي طلع بها تحت صورة الطفل الإله أو **الإله الطفل**.

بين أدب الخاصة وأدب العامة تميد هوة سحيقة ـ الصنو ـ بين الـ «بها جفاد جيتا» وبين ذلك الكتاب الشعري الأدبي الشعبي الـ «بوراناس» الذي يطالعنا على صفحاته كريشنا تحت صورة تختلف كل الاختلاف عن الصورة التي يطالعنا بها في الـ «بها جفاد جيتا».

كريشنا الـ «جيتا» شيء، وكريشنا الـ «بوراناس» شيئاً آخر حتى ليختلط الأمر اختلاطاً يحسب به المرء أنه أمام شخصيتين متناقضتين مزجتهما الأجيال إلى واحدة، فعن كريشنا «الجيتا» يختلف كريشنا «البوراناس» بأنه صورة ساذجة من تفكير ساذج جبّلته الفطرة فالبوروناس تصوره قائلة:

إن الإله اصطفى «ديفاكي» ليحل فيها روحاً، وبهذا الاصطفاء ولد الإله على الأرض كابن للمصطفاة العذراء في صورة الطفل كريشنا، .. وراح كريشنا يمرح حياته طفلاً بين مراعي «فراجا» حتى نما وغدا صبياً وصبياً كان كلامه بين الشيوخ الحكمة!...

من قصص المذهب الكريشني هذه القصة المترعة بالتحدث عن كريشنا تحت صورته كطفل إلهي وإله كطفل ولتثبيت هذه الصفة، تقص:

«منذ كان كريشنا رضيعاً كان مصدر بهجة لقلب أمه.. وحدث يوماً، وهو ما زال رضيعاً، أن وضع في فمه طيناً فزجرته أمه وعند ذاك تكلم قائلاً: أمي انظري إلى فمي!

ونظرت.. فرأت في داخل فم الرضيع الملكوت السماوي بكليته! وتملّك الخوف والذهول ديفاكي حتى استفاقت أخيراً فأدركت شأن هذا الوليد فانحنت في خضوع إلى الإله الطفل!» من «سريماد بها جفاتا».

إن الرب كريشنا، روح الإله، قد تكلّم في المهد صبياً.. وصبياً، أذهلت الشيوخ حكمة «ابن العذراء»!..

وهكذا تجري هذه القصة لأدب العامة لا تذكره إلا صبياً حتى يغيب كريشنا المعلّم ويغيب لأبيه اسم بما ألحقه به محبّوه من نسبته لأمه فلا يعود يذكر إلا الرب كريشنا أو الإله الطفل كابن ديفاكي.. وهكذا حوّلت الأساطير كريشنا، كسدارتها، إلى أسطورة!

الصورة، لكريشنا غدت صورة، تحتها طلع «ابن العذراء» من مِنْ حول رأسه حرصت اليد الفنية في المذهب الكريشني، حرصها في الدين البوذي على إحاطة رأس البودها بهالة نورية، على إحاطته بهالة نورية!..

صورة، نرى كريشنا فيها يقف ممثلاً أحد أفراد الأقانيم الثلاثة المؤلفة الحقيقية واحدة، ففيه يقف وسطاً بين الإله والطير الممثل لروح القدس!

صورة منذ ذاك الزمن حتى هذا الزمن مرتسمة في أفق الدين الهندوكي وغير باهت منها الخضاب، فمن حولها طوّفت حتى الجيل الأجيال تعلنها العقيدة الصحيحة فتنسب الصحة إلى دين غير ملتفتة إلى أن إدخالها هذه العقيدة فيه يزلزل منه الأركان، فبهذه العقيدة قد جمع الدين الهندوكي بين عقيدتين متنافرتين، عقيدة الوحدة وعقيدة التجسّد!

أجل... بين الوحدة الصوفية اليوبانيشادية والتجسّد الديني الهندوكي يجمع المذهب الكريشني فيجمع بين عقيدتين متنافرتين بأحقية كلتيهما يقول كتابه المقدس... فعن عقيدة التجسّد يتحدث هذا «الكتاب المنزّل» قائلاً؛ قال الرّب: «عندما يهوي العدل وتقوم اللاعدالة حينذاك أقذف نفسي! لإنقاذ الخير ومحق صانع الشر، لإقامة العدل أولد من عهد إلى عهد»!

من «البها جفاد جيتا»

وعن عقيدة الوحدة يتحدّث هذا «الكتاب المنزّل» قائلاً قال الرب: «من نفسي قذفت كل هذه الكائنات!

لا إرادة لهم في ذلك فذلك بمحض طبيعة طبيعتي!...».

من «البها جفاد جيتا»

مزيج متنافر تجري به في تيار الدين الهندوكي عقيدة الوحدة الإلهية التي عمّت أرجاء القرن الخامس ق.م، وعقيدة التجسّد الإلهي التي عمّت أرجاء القرن الثاني ق.م والتي كان لها أثرها في الدين البوذي فهي التي بتأثيرها تحوّل «سدارتها» إلى الصورة التي رأيناها فيها في الـ «مهايانا»، أو المذهب الأكبر، كابن عذراء وإله على الأرض لخلاص البشرية قد تجسّد فصار بشراً.. وهي التي عمّت زمن ذلك الزمن ومن القرن الأول ق.م امتد أثرها وتأثيرها إلى القرن الأول ب.م لا بكريشنا فحسب ولا فحسب بسدارتها وإنما... إنما بآخر عليه أضفت أيضاً هذه الصفة ولحقت باسمه من العقائد هذه العقيدة... فطلوع كريشنا على صفحات الـ «مهابهارتا» من سجلات الأدب الهندي القديم يطلع علينا من تلك السجلات الأخرى لهذا الأدب القديم التي تعرف بالـ «رامايانا» الذي به تطالعنا:

عقيدة التجسّد الرامي وانصباب المذهب الرامي في تيار الدين الهندوكي

راما، ككريشنا، للإله «أفاتار»!

إن في «راما» كما في كريشنا، على الأرض قد تجسّد «فشنو»!

هكذا أجرى اللاهوت الفشني لإعلاء فشنو وإيلاج محبته وتأكيدها في ناحية أخرى من القلب الجماعي تياراً جديداً ما لبث أن غزا للهند عاطفة!.. بمادة هذه العقيدة جاء عندما استعادت ذاكرته من قصص أدبه قصص الأبطال..

أجل... كان من أثره هذه الاستعادة لقصص الأبطال بغية انتقاء محور جديد لعقيدة التجسّد الفشني فترسخ بها على رسوخ رسوخاً محبة فشنو في أرجاء القلب الهندي قاطبة أن استعاد اللاهوت الفشني ذكرى بطل كان قد حلق به خيال «فالميكي» حوالي القرن الرابع ق.م، غداة استهلّ بالتسطير عنه أول أجزاء الـ «رمايانا» تلك القطعة من الأدب الهندي المؤلفة من سبعة أجزاء... كلا، لا يطالعنا في الجزء الأول «راما» إلا مجرّد بشر، ولكن بتتابع الأجيال تتابعت أقلام جرت كلها باسم فالميكي فأضافت إلى الجزء الأول الأجزاء الأخرى التي لا تتناولها اليد ولصفحاتها تنشر إلا ويطلع علينا «راما» وقد جُرِّد تماماً من صفته القديمة فقد تمّ في هذه الأجزاء تحويله أيضاً من بشر إلهي إلى إله بشر!

تماماً كالانبثاق الكريشني وانصبابه مذهباً في تيار الدين الهندوكي، انبثق من داخل اللاهوت الفشني المذهب الرامي وانصبّ في تيار الدين الهندوكي.

وتماماً كما في الأجزاء الأخيرة من الـ «بهاجفادجيتا» تغيّر كريشنا، تغيّر في الأجزاء الأخيرة من الـ «رمايانا» «راما»... واستحواذ كريشنا على القلب الهندي استحوذ «راما» تحت

الصورة التي اكتملت له في بدء القرن الأول ب.م كشخصية، لإقامة السلام العالمي وخلاص البشر، فيها قد تجسّد روحاً الإله!

ومنذ ذاك العهد حتى هذا العهد و«راما» صورة للتجسّد الإلهي في بشر فقد ولد لنشر السلام على الأرض.

هذه هي عقيدة التجسّد التي لعبت أدوارها الخطيرة في تاريخ التفكير الديني وعصفت بالقلب الجماعي عصفاً واستحوذت على اللّب الجماعي استحواذاً فقَدَ، تحت تأثيرها، فيها التفكير!

أجل... هذه هي عقيدة التجسّد التي تأخذنا من القرن الثاني ق.م إلى القرن الخامس ب.م ليمر بنا الفكر على تلك الفترة الزمنية التي يطالعنا فيها في خضم التاريخ الديني النزاع الثلاثي على عرش السماء في مزاحمة لبراهما بين فشنو وشيفا، هذا النزاع الذي انتهى بذلك التوفيق الذي رفّت به منذ ذاك العهد حتى هذا العهد:

عقيدة التثليث

إن الأيام قد سارت فسارت بنا إلى عهد نرى فيه بروز «شيفا» قد برز «فشنو» بعبادة تنتشر على صفحات «البهاجفادجيتا»، لنرى أن المجرى الجماعي الذي تدفق خلال القرون الأولى وله دافق نحو «شيفا»، يجري في غير تحوّل عن «شيفا»، متجهاً نحو فشنو هذا الذي حرّك له لاهوت، الوجدان الجماعي بصوت يرسل التشاؤم موجة أعلنت أن الحياة شقاء فبرز، كنتيجة حتمية لهذا النداء، «المخلّص»، واشتدّ نحو المخلّص الوجه الجماعي اتجاهاً خلال القرن الأول ق.م بحيث تحوّل أمر هذا الاتجاه إلى نزاع بين اللاهوت الفشني والشيفي اتخذ صورة النزاع بين «شيفا» كمدمّر و«فشنو» كحافظ!.. نزاع يكاد يُؤدّي إلى انفصالهما من مذهبين في الدين البراهمي إلى دينين يتنادى فكلاهما بأنه من الحق على الجانب الحق!.

وبهذين المذهبين.. بدأ الدين الفادي للبراهمة يفقد مهابته وتتصدّع له أركان!

لدفع هذا التصدّع بدأت فئة من اللاّهوت البراهمي تدفع إلى الظهور «براهما» تذكره كمُوْجِد فانضم «براهما» إلى النزاع وأصبح التطاحن على مرتبة الألوهة بين القوى الثلاث.. بين «براهما» كموجد وفشنو كحافظ وشيفا كمدمّر!

نزاع، إلى فوضى أدّى حتى بلغ الحدّ الذي حذا بالتفكير الهندي المحب للنظام أن يطرق طريقاً يستخرج به من هذه الفوضى نظاماً... فكّر فرأى: أن هذا النزاع المذهبي المُفرِّق للكلمة لا يقوم على أسس صحيحة من التفكير، فسواء الفشنيون أو الشيفيون أو البراهميون فكلهم إلى غاية واحدة عبر مختلف الطرق يسيرون غير أن لظى التطاحن بين هذه المذاهب

تحول بينهم وسليم التفكير!.. من ثم فلن يخمد لهذا السعير الطائفي لظى إلاّ التأليف بين «الثلاثة»!

لقد رسخ منذ العهد الريجفادي في التفكير الهندي أن الوجود بموجوداته قد أخرج من ذات إلهية أولية هي التي تحفظه وهي التي، لتردّه إليها، تهلكه فعلام النزاع وما عليه يتنازع المتنازعون إنما **واحد**؟!

واحد هو الإله ولكن كلٌّ يراه من جهة عن الأخرى مختلفة، غافل عنها صفات منتشرة في وحدة مقدّسة ووجدانية ذات أقانيم ثلاثة!

غضون القرن الأول ق.م طرق الفكر الإنساني على هذه السفوح هذه الوسيلة ولكفّ الفوضى الدينية والحدّ من أمر هذا النزاع الطائفي امتد ليطالعنا في التفكير الديني:

عقيدة التثليث أو الثالوث أو إله واحد في أقانيم ثلاثة

من مادة هذا التفكير الذي طرق به طريق التوفيق بين المذاهب الثلاثة المتطاحنة صاغ اللاهوت البراهمي فلسفة فأبطل النزاع خضّب التفكير الديني الهندي بلون جديد، فقد برزت بهذا التوفيق عقيدة عن الألوهة تعكس منها الصورة الصفحات المتأخرة من الـ «بها جفاد جيتا» أو هذا «الكتاب المنزّل» للدين الهندوكيّ الجارية فيه الآي في تناقض عجيب الأخذ بالواحدة للأخذ بالأخرى يبطل في ضوء التفكير الصحيح ففيه كل المذاهب والمعتقدات مختلطة في خلط فيه عقائد الفادية والبراهمانية وفيه عقيدة الوحدة اليوبانيشادية وفيه عقيدة التجسّد الإلهي في راما وكريشنا، وفيه عقيدة ألوهة شيفا بعد فشنو، وفيه عقيدة ألوهة براهما، ففيه الثالوث عقيدة تبرز بها من جديد عبر صفحاته المتأخرة ألوهة مشخصة لها من الإنسان الشبه والصفات..

إن الواحد، كشيفا ما زال على القمة في «غوري سانكرا» مستوٍ في صمت تأمليّ ترقب عيونه الثلاث مواكب الأجيال والجانجز، المتفجّر من منبع «براهما جيري» في الهملايا، من رأسه قد تفجّر وحتى بنارس جرى ماءً مقدّساً بسببه قدّست بنارس وأضحت أرضاً مقدسة..

و«الواحد»، كفشنو، ما زال له القلب مكاناً فهو لا يقف بعيداً على الأرض أو الإنسان وإنما مكانه القلب وعيناه الشبيهتان باللوتس تشعان الحب ووجهه الشبيه بالقمر يضيء القلب مبدداً فيه كل ظلمة.

والواحد، كبراهما؟

هنا يجب أن نتنبّه فنفرق بين براهما «اليوبانيشادات» وبراهما «البها جفاد جيتا» فرغم أن

سطوراً في هذا «الكتاب المنزّل» تصفه أنه ليس كمثله شيء وليس له شبيه، فإنما في تناقض عجيب تسير الآي وتصوّر له العنصر الجنسي صورة!

أجل... هو «التثليث» ببراهما، كفرد من الأقانيم، من نفس مجرّدة إلى موجد وكموجد هوى إلى صانع فتحول إلى كائن شخصي طبعته الطبيعة البشرية بطبيعة البشر وصورته بصورة الرجل كما يصوّر منه الصورة هذا الثالوث الذي ملك مشاعر القلب الجماعي فولّى وجهه نحوه عابداً بعاطفة أصبحت موزعة بين ثلاث، الألوهة بينهم قاسم مشترك، فالإيمان الديني قد غدا رهين معتقد على جدران المعابد مسجلاً يقول بإله واحد في ثلاثة منتشر!

وهكذا مضى «بالمجرّد» ماضٍ لنرى حاضراً «باللامجرّد» منتشر ومنتشر به دين بالتجسد وبالتثليث منه القوائم تقوم... دين، له لم تقبل نواحي عقلية من المجتمع ومن ثم نشأت مدارس مستقلة تناهض النظام الكهنوتي والدين البراهمي... ومن ثم انتشار الفكر المستقلة وترديد الطبقة المفكرة لفكر اليوبانيشادات والسانخية والجينية والبوذية، ترديداً وجّهت فيه ألوان صارخة من النقد تنتقد النظام الديني البراهمي... من أثر هذا النقد كان أن بدأ النظام الكهنوتي يضعف وينحل تماسكه، وترتب على هذا أن تضاءل سلطانه من النفس الجماعية تضاؤلاً بدأ به من يده انفلات الزمام الشعبي هذا الذي بدوره بدأ يتحول تدريجياً إلى ألوان الفكر التي ألفها في عهود الفيدا.. ومن ثم أسرعت اليد اللاهوتية التي لا ترتضي لقبضتها عن هذا العنق التراخي، إلى ألوان هذه الفكر وعليها بدأت تضع الشروح الدينية التي بها صوّرت «الفيدا» الذهن الجماعي تصويراً كهنوتياً... وبهذه الشروح، شروح النصوص الفيدية، يلج بنا الزمن:

العهد البراهمي الآخر والتفكير الديني في اللاهوت البراهمي الآخر

إن هذا العهد يبدأ منذ القرن الثاني ب.م ويمثّل العهد الذي فيه تماماً قد تلاشت من أفق التفكير الإلهي فكرة براهما المجرّد وبروزه شيئاً آخر ليس له من القديم إلا اسم فبينما صوّرت اليد اللاهوتية شيفا وفشنو تحت ما قد رأينا من صور، تحولت فشبّهت براهما برجل شيخ ومثّلته على شكل قارىء لآيات الكتاب المقدّس الفيدا، يقف مثلاً للكاهن البراهمي ومثلاً للتعبّد البراهمي الديني!.

التفكير، التفكير الديني في الهند غضون القرون الأول لبعد الميلاد... تفكير مشوّش مضطرب لمحته ناحية من اللاهوت فكان من جرّائه أن طلع من البيئة الدينية نفسها من ينادي بالعودة إلى دراسة «الفيدا» دراسة صحيحة...

وبالفلسفة الدينية الحاملة اسم الـ «ميمامسا» بدأ العقل الديني تناول الفيدا واستعراض صفحاتها فوجد نفسه عليها يقبل وبنفسه يلقي في أحضان الدين، لا تطوي يده «الفيدا» إلاّ ليعلن:

أيبحث الباحثون عن الدين الحق و«الفيدا» بين أيديهم كتاب وحي هابط هو، بماله حاوٍ، المرجع، ولحكيم الآي منه يخضع الكون بمن فيه؟!

بالفلسفة الحاملة اسم «الميمامسا» أو البحث الأول، أكدت قدسية «الفيدا» ككتاب لمنزل وحي... بيد أن للحظة...!

أجل... للحظة!... ففي نفس الزمن تنبّه العقل الإنساني لحظة بـ «كانادا» تمثّل وبه أتى بفلسفة جديدة تحمل اسم الـ «فشيسكا» أو الاستيلاء على المعقولية... فانطلق يتساءل:

أيُّ عماد عليه يعتمد القول بالفيدا ككتاب مقدس؟!...

إن «الفيدا» كتاب فيه حكم، وفيه حكيم قوانين تؤلف مجموعة من تجارب الحكماء من السلف بيد أنه ليس كتاباً منزّلاً كما قال السلف وتبعهم بالقول الخلف!...

أعلن الفكر الإنساني، متحرراً، هذا القول صريحاً عندما إلى فلسفاته عائداً عاد فأتى بهذه الفلسفة التي راقها من القديم الجينية واليوبانيشادية وكنتيجة لفهمهما طلعت تقول بخلود ذلك الشيء الضوئي، الضوئي الطبيعة: النفس!

النفس لدى «الفشيسكية» كالنفس اليوبانيشادية ـ منيرة الطبيعة ـ وتماماً كالأتمان اليوبانيشادي قوة مطلقة حالّة في كل الكائنات المادية... وإن كانت هذه الفلسفة تطيح بالوهم الكوني اليوبانيشادي!...

آراء في صدر الزمن تتردد توقف الفكر موقف التفكّر..

أمام هذه الآراء المتردّدة في صدر الزمن تهبّ هبات من صفو الصوفية... هبّات تؤكد الوهم الكوني وحقيقة النفس! صوفية، تحفر على الزمن اسمها:

اليوجية الحديثة

إن اليوجية القديمة تُبعَث الآن في القرن الرابع ب.م، وتتطوّر وبـ «باتنجالي»، تنتظم منهجاً به، في صورتها الحديثة، تدلي في مشكلة النفس لها رأي به تطالعنا أعقد المشكلات الدينية:

مشكلة النفس في اليوجية الحديثة

إن اليوجية، نفسها، هي ذلك الطريق الذي عبّده اليوبانيشاديون الأول لربط النفس

«بالنفس»، وقديماً عبْره حتى المنتهى سار «سدارتها» وما زال الطريق حتى اليوم للمريد طريقاً... ولكنه في اليوجية الحديثة قد غدا طريقاً إليه لا تشير اليوجية وإنما بيد المُريد هادية تأخذ فتأخذ به إلى حيث يراها فلسفة غفل عنها تاريخ الفلسفات!... مطمورة بين آثار الماضي في حاضر جدير فيه أن تُبْعَث وتنتشر لا كما تعيش في صور الزهادة على هذه السفوح أثراً على هامش الماضي وإنما كما بباتنجالي قد تطوّرت فلسفة، نفسها، من المنبع اليوبانيشادي أرسلها صافية ماء روياً يغترفه من يشاء!

جاءت اليوجية الحديثة ومن اليوبانيشادات لها الطابع التفكيري ومن التعقّل السانخي تتخّذ الأسس، فجمعت الاتجاهين المُتنافرين والرأيين المتضاربين في مجرى واحد لا تنافر فيه!

كلا!... إن اليوجية الحديثة فلسفة لا تتلاقى فيها أضداد بجمعها بين سانخية تقول بنفوس صغرى وتنفي «النفس الكبرى» ويوبانيشادية تقول «بنفس كبرى» في غير نفيّ للنفوس الصغرى، وإنما هي فلسفة قامت فأيّدت للسانخية قول يقول بقوى النفس الفردية وعارضت لها قولاً ينفي وجوداً «للنفس الكبرى»، وتحوّلت إلى اليوبانيشادات الأول تُرَجِّع القول القديم جديداً فتقول بوجود «**النفس الكبرى**»!.

أجل، إن اليوجية الحديثة تُؤيِّد اليوبانيشادات في تقريرها بقانون الـ «كارما» والصيرورة ومثلها تُقرِّر أن في مقدرة الإنسان أن يتخلص من دورة هذه الدائرة، ولكن اليوجية الحديثة تشقّ إلى هذا الخلاص طريقاً جديداً ومنهجاً يكفل للمرء التخلّص التام من أنيّته الفردية والارتفاع «بأتمانه» أو نفسه إلى الانغمار التام في الملأ الوجودي للروح الكونية أو «الأتمان» فيضحي نفساً خالصة مطلقة مجرّدة من الحزن والألم وأبداً سعيدة.. والوسيلة إلى ذلك هي: تطويق النفس «بالنفس».

أجل... إن كلمة «يوجا» ومعناها تطويق النفس «بالنفس» كانت عبارة في اليوبانيشادات منحصرة الهدف، وسبب الألم هو وهم التفرقة بين النفس الصغرى والنفس الكبرى، في إلغاء هذه التفرقة.. إن هذه التفرقة وتغرُّب النفس عن «النفس» سبب الألم، وللخلاص من هذا الألم يجب أن ننال توحيداً روحياً بتطويق النفس «بالنفس»، ولكن هذه الكلمة قد تطوّرت في اليوجية الحديثة فقد أضحى معناها ينحصر في محاولة التفرقة بين «براكرتي» أو المادة و«بوروشا» أو النفس فانحصر هدفها في البحث عن «عالمية الأنا» وإنارة الجزء الإلهي والسرمدي الذي يمثّل كياننا الحقيقي ولذا غدا الهدف لليوجية الحديثة ينحصر لا في نظريات ما بعد طبيعية وإنما في طرق عملية واقعية طبيعية للوصول إلى المعرفة وبلوغ الكمال ومن ثم صبغت اليوجية الحديثة صبغة الصوفية الطبيعية...

مِنْ الأقسام الأربعة «لليوجا سوترا» لباتنجالي، أقدم نصوص اليوجية الحديثة، تطالعنا اليوجية الحديثة فنرى:

أن الوجود لما كان سرمدياً و«براكرتي» أو المادة إنما مظهره الظاهري وأن «بوروشا» أو النفس هي الجزء الإلهي من النفس الكونية فإن النفس، **بطبيعتها، طاهرة وسرمدية** ولكن ولوجها هذا الجسد المادي وولوجها به هذه الظاهرة المادية هو سبب تأثرها بالوهم، فإن جهل النفس بطبيعتها الإلهية هو المنتج للرغبة والأنانية وأصل الألم هذا العالم السرابي الطبيعة!

هذا هو الرأي الذي تنحصر بسببه الغاية اليوجية في فصل «يودوشا» عن «براكرتي» أو: فصل النفس عن المادة!.

لفصل النفس عن المادة، أو الوهم، طريق منهجه المعرفة بطبيعة الاثنين والتحرر من قبضة المادة ولما كان أعلى مظاهر المادة هو «شيتا» أو الوعي فإن على المرء أن يحرِّر نفسه من قبضة «الوعي»...

إن «شيتا» أو الوعي، وهذا يشمل الشعور والعقل، أول نتاج للمادة وهذا لم يصبح وعياً إلا عن طريق انعكاس النفس في هذا الجسد ومن ثم ينحصر الهدف في إرجاع الوعي إلى حالته الأصلية عن طريق؛ ضبط «راجاس» أو الحالة العاملة للعقل هذه التي تطلب القوة واللذة الحيوية، وإخضاع «تاماس» أو الغريزة وهذه دافعها الإيذاء... وبضبط «راجاس» وإخضاع «تاماس» تتمّ للمرء السيطرة على «الشخصية»...

وللسيطرة على «الشخصية» منهج يبدأ بضبط الوعي من عمل «فريتي» أو التذبذب الذهني «للأنا التجريبي» وينتهي بإبادة جذور هذا التذبذب الذهني، سبب كل ما يتعلّق بالحياة من تغيرات وتقلبات!..

صعب غير سهل على المرء هذه الإبادة التي لا تأتي إلاّ عن طريقة إلغاء المعرفة العقلية وبلوغ النفس الهدف الذي يجعل الإنسان بكليته يصل إلى منبع وجوده الحقيقي الذي إذا ما بلغه فقد بلغ حالة فوق الوجدان تتميز بتجربة بالغة تتلاشى فيها «الأنا التجريبية» حتى تخلص «الأنا الإلهية» وهي النفس فتشع ويصبح المرء نفساً خالصاً، خالصاً من الوهم والألم!..

لبلوغ هذه الغاية أو هذا الهدف وسائل تنحصر في مراحل إعدادية ثمان:

المرحلة الأولى: «**ياما**» أو الاستعداد التقشّفي

هذه هي المرحلة التي يصبح فيها التقشّف علماً لحفظ الصحة الجسمية والعقلية والخلقية

فإن الصحة تعتبر شرطاً أساسياً لبدء التجربة أو بالأحرى شرطاً لازماً لنجاح التجربة التي ترمي إلى توحيد «الأنا» وجمع شملها، فهذه الصحة تؤهلها لأن تتخلّص من الأشياء الخارجية وأن تتحكم في شهواتها ومتى تمّ لنا ذلك لجحنا:

المرحلة الثانية: «**نياما**» أو مراقبة الأفكار ونقاوة القلب والتحكّم في التفكير والصور العقلية...

هذه هي المرحلة التي يبلغ فيها المرء تماماً عفة الجسد وطهارة الخلق وعدم استخدام القسر والرفق بجميع صور الحياة.

هاتان هما المرحلتان اللتان تمثلان القاعدة الأخلاقية التي تقوم عليها أولى التجارب اليوجية وأساس هذه القاعدة:

«أحمِسا» أواللاإيذاء!..

إن التيار العقلي يسير متدفقاً في مجريين مختلفين نحو؛ الخير والشر حين يتّجه نحو التحرّر والمعرفة يكون متدفقاً نحو؛ الخير وحين يتّجه نحو دوامة الوجود ويحمل هديرها في ثناياه يكون تدفقه نحو؛ الشر من ثم فإذا اتخذنا «أحَمِسْا» أساساً تغلبنا على نوازع الشر بل لتطورت بنا «أحمسا» من شعور اللا إيذاء إلى؛ «فايراتياجا» أو اللابغضاء!.

متى صفا من البغضاء منا القلب بذر بذور الصداقة في صدر الكل وانعطفت منه العاطفة إلى التعاطف والرحمة وأضاءت سويداءه السعادة وعرف: «شيتا براسادانام» أو الصفاء الذهني!

لقد تحرّر المرء من الحسد والغيرة والبغضاء وأضحى كله حباً!... احتضن الكل فغدا لا يكره من له يكره!

غدا حباً خالصاً فغدا لا يعرف البغضاء لأحد!.. فبينما هو يكره الشر لا يكره الشرير وبينما يزدري الخطيئة لا يزدري المخطيء والخاطيء! لقد عرف أن الخاطيء جاهل وأن الشرير واهم وعرف أن عليه أن يأخذ بيده ويقيله من عثرته وكبوته.. غدا مبدأه حباً خالصاً فشفت نفسه وأعلنت مبدؤه؛ اللاقتل!

اللاّقتل لأي صورة من صور الكائنات هو المبدأ اليوجي الأساسي، فاليوجية الحديثة تمتد عاطفتها وتسمو حتى الدرجة التي تحرّم فيها القتل... لا شيء يبرّر القتل حتى ولا الدفاع عن النفس يبرّر القتل!...

هاتان هما المرحلتان اللّتان متى تمّ لنا فيهما استعمال هذه المبادىء وتمّ لنا، إلى جانب

التطهُّر الخارجي من عفّة الجسد واللسان، التطهّر الداخلي من المقدرة على الحب، عن طريق «تاباس» أو التوبة عن جميع ما قد عُرِف من غيرة وحسد وبغضاء، والإخلاص للّه استطعنا بلوغ:

المرحلة الثالثة: «أسانا» أو محاولة جمع شمل «الأنا» للتركّز الذهني الجسم وسيلة بإخضاع الجسم لإرادتنا، ومن ثم يجب أن نعنى بالجسد عناية تامة، فالكمال الروحي يتطلب سلامة الجسد والقوة والصلابة ولهذا يجب أن نراقب ما نأكل وما نشرب... الجسم وسيلة يمكن أن يكون إما لإطلاق الطاقة الغريزية أو لإطلاق الطاقة الروحية... كلا لا تقتل الجسد وإنما تحكم فيه!...

ثم إن للتركز الذهني وبدء التأمُّل أوضاع جسمية مفيدة لجمع شمل «الأنا».. ومتى جمعت «الأنا» شمل «الأنا» لجّت «الأنا»:

المرحلة الرابعة: «برانایاما» أو التحكم في النفس

إن النفس مركز وانبعاث للطاقة الكونية ولن يتم تماماً «للأنا» جمع شمل «الأنا» إلاّ عن طريقِ التحكم في النفس فالتحكم في النفس يؤثر في عمل العقل... ومتى تمّ لنا هذا التحكّم بلغنا:

المرحلة الخامسة: «براتياهارا» أو مرحلة انكماش الوظائف الحسيّة!

انكماش الوظائف الحسية لا يأتي إلا تدريجياً وإلا بواسطة تمرينات تدريجية حتى تُقْهر تماماً هذه الوظائف الطبيعية ويخبو سلطان الغريزة فيكون في إمكان «الأنا» الواعية أن تتحكم في الحالات النفسية المتغيرة.. ومتى تمّ لنا هذا الانكماش للوظائف الحسية تركنا مناهج التجارب الخارجية وبدأنا مناهج التجارب الداخلية فقد أصبح في مقدرتنا وقدرتنا أن نتدرّب على النظام الداخلي ولبدأنا من المراحل الثماني أولى المراحل الباقية والأهم، أولاها:

المرحلة السادسة: «دهیانا» أو انحصار الفكر في **«الموضوع»!**

لنا القدرة الآن على حصر الفكر في «الموضوع» فالتيار العقلي قد هدأ وموج الغريزة المشوّش الفكر قد تراجع جذراً. لقد استطعنا الآن حصر فكرنا في «الموضوع» لنجد أنفسنا قد بلغنا:

المرحلة السابعة: «دهارنا» أو تثبيت النشاط العقلي! تمتّ لنا الآن القوة على تثبيت النشاط العقلي المنحصر في «الموضوع»... لقد صمدنا ولم نزل فبلغنا هذه المرحلة وهكذا نجد أنفسنا قد بلغنا:

المرحلة الثامنة: «صَمَاذْ هي» أو الانجذاب العقلي!

هذه هي المرحلة القاطعة أو المرحلة التصوفية بمعنى الكلمة ففي «صَمَاذْ هي» قد تلاشى الإحساس بالشخصية!.. تعطّلت الحواس من الاحساس بالعالم الخارجي وليس هناك إلاّ «موضوع التأمل»! شع منّا الجوهر فأصبحنا في حالة «ساميامـا» أو النفس الخالصة.. **أصبحنا نفساً خالصة** فقد شعّ فينا... القبس! إننا في «صَمَاذْ هي»!

بين النفس والعالم الخارجي تقطّعت في «صَمَاذْ هي» أواصر الصلة.. استطاعت النفس تمزيق حُجب الفصْل بينها ومنبعها الحقيقي فتكشفت لنفسها، بنفسها، عن نفسها وانطلقت طاقتها الكامنة! ولجّت لجّة حياتها السرمدية!

ولكن!. هذه المرحلة، المرحلة التصوفية القاطعة، تنقسم إلى درجتين:

الدرجة الأولى «**سامبراجناتا**» أو «صَمَاذْ هي» مميزاً، أو ملامسة «الموضوع».

في هذه الدرجة نرى أن الوجدان الفاعل، يُفْرغ نفسه من نفسه ويستغرق في «الموضوع». صماد هي، في هذه الدرجة، هي انجذاب عقلي بقصد موضوعي، فهي الفعل الذي يزيل كل فرق بين الفاعل والموضوع.

هذا الانجذاب العقلي، من ثم، يكون في هذه الدرجة بمثابة نقطة للرجوع القهقرى! هو وثبة دقيقة على حاجز الوثوب العقلي.. فهو استغراق تأملي في التأمل في اللاشيء!

في هذه الدرجة تحدث ظواهر الاتحاد بالقوى الكونية... وحينذاك يتم للمرء اكتساب قوة خارقة للطبيعة!..

هذه هي الدرجة الأولى «صَمَاذْ هي» وأما؛ الدرجة الأخرى فهي؛ «**أسام براجناتا**» أو «صَمَاد هي» غير مميز ودون ملامسة الموضوع.

إن هذه النقطة أشق من الأولى فإن الاستغراق في «الموضوع» يليه استغراق في الفعل الذي يقضي على كل فعل! الفكر، في هذه الدرجة يتلاشى في ذات النبع الذي صدر عنه، وأسمى صفة له أو الصفة الروحية التي لا تزال تابعة كصفة لعالم الطبيعة لم تعد إلا شفيفاً خالصاً لضوء «الأنا» الفوق الشعور!.. وهذا الضوء لا لون له لأنه هو الأتما والأتمان!

من ثم هذه الدرجة هي بلوغ الثبوت الكلّي والداخلي.. وبهذا الثبوت أو التحرّر الكلي نبلغ:

«كايفاليا» أو الانفراد المطلق! هذه هي المرحلة الأخيرة للتجربة اليوجية التي تعادل «النيرفانا» في البوذية.. حالة الـ «كايفاليا» تتلاشى فيها كل ثنائية ويتم بها الانفراد الكامل

للفاعل! حالة هي لئن كانت فوق الشعور فليست هي بسلبية وإنما إيجابية فهي الحياة السرمدية للنفس التي صمدت حتى تحررت تماماً من أصفاد ووهم المادة وأضاءت نفساً خالصاً!..

حالة.. ليست هي بغيبوبة وإنما هي حالة تشبه التيقّظ أو الاستيقاظ التّام من النوم.. يقظة، تضحى فيها رغبات الشخصية ورغائب الجسد ذكريات وهم وحلم تخلله كابوس ثقيل!..

الحالة، هي الحياة الحقيقية فإن كل الحياة العقلية قد أفرغت الآن بواسطة التقشّف العقلي في المحبة المفرغة في «الكل»؟

هذا هو الإدراك التجريبي، الفائق الوصف، للوجود المطلق!.. عن هذا الإدراك الفائق الوصف لا يستطيع اليوجي التعبير إلاّ بأنه حالة ليست هي عزلة خالية يأوي إليها كأي محصور في حدودها بل هي عزلة يملؤها «الكل»!.. يملؤها الأتمان، الكلّي، الوجود اللاّمتغير، الحقيقي، الوحيد الغير المولود والغير الفان!..

هكذا نرى أن من المنهج الأخلاقي تطورت اليوجية الحديثة إلى فلسفة التفكير فيها يسير على هدي التعقّل والمنطق فيها يطالب بالبراهين، والبراهين فيها منتزعة من صميم التجارب... وعلى هذه التجارب المشاهدة تستند إذ تدلي في مشكلة النفس لها رأي... فهي، أولاً، فلسفة بلغ التفكير فيها الدرجة التي أدرك أن العقل لا يستطيع إلى رحاب الألوهة بلوغاً، لتقيّده بالزمان والمكان، ولكن!. لئن كان العقل عن الانطلاق محروماً ولقيد الزمان والمكان رهيناً فإن هناك شيئاً أعلى من **العقل شيئاً يدرك عجز العقل!**...

البرهان؟.. البرهان تأتي به اليوجية وللمطالب بالبرهان تقود بيده تأخذ وعبر هذا الطريق تسير وبه تتخطّى، غضون اثني عشر عاماً من الزمن، درجة بعد درجة حتى المنتهى وهنا في الدرجة الثامنة والأخيرة تتركه لتقول: ـ والآن ـ ألا ترى ما أرى؟!

لقد علمت الآن أن دونك والبلوغ لليقين، درجات ثمانٍ!... حتى تصمد فتبلغ أعلى درجات الوعي الكامل فتبلغ «صَمَاذْ هي»... تبلغ المعرفة!

أما علمت أن «صَمَاذْ هي» حالة، متى بك حلت أو متى فيها حللت فقد خلصت بكليتك تماماً من سلطان الوهم والسراب، وأن، تماماً، على قوتك البدنية غلبت قوتك النفسية، والمعنوي من قواك لك قد تكشف متكشفاً عن عالم المعاني والمعنويات؟...

إن في «صَمَاذْ هي»، وقد ذابت للمادة حجب نسيجها وهم وسراب، لن ترى لا أرض ولا سماء، كلا ولا مكان!... لا مكان فلا زمن فلا أزل في «صَمَاد هي» ولا أبد وإنما «صماد هي» حاضر سرمد وسرمد حاضر فيه يعي الوعي منك **أنك فيه موجود!!**

موجود أنت ليس لك بدء ولا نهاية فلا مولد هناك في الحقيقة «للأنا» أو النفس منك ولا هناك في الحقيقة للنفس موت حقيقة إلهية أنت!.. قطرة في الخضم النوري لم تأت ولن تذهب وإنما تنمو في تفتُّح وتعي لوجودها وجوداً.. كلما ازدادت نمواً وتفتّحاً ازدادت إدراكاً وقوة فاقتداراً على ما تشاء ومعرفة بكل شيء...!

«بصماد هي» أمامك على صفحة السرمد منتشر الماضي من الزمن والآتي.. عارف أن لما مضى ولما يأتي وعالم بما عن الآخرين مطوي ـ ومُحتجب ـ بأسرار «السّر» علماً قد أحطت فكيف بالماضي والمستقبل علمك لا يحيط؟!..

في « صَمَادْ هِي» لك اللازمن واللامكان عالم أما المكان وأما الزمان فأمامك بقعة واحدة منتشرة وفي أية ناحية منها شاء لك المسير سرت ـ هذا سرّ اختفائك، يوجياً، عن أعين وظهورك لأعين في أمكنة عدة وفي نفس الزمن والآن!

وبـ «صَمَادْ هِي»، وقد ذاب للمادة نسيج نسجه للنور، الذي أنت منه وفيه، محض ظلال يتشكّل فيكوّن الأشياء، قادر أنت على تشكيل جميع العناصر كما تريد وعلى تسخير المادة وتحويلها من شكل إلى شكل وبعد شكل شكلاً، بل وعلى التشكّل بأية صورة شئت ـ هذا سر لا تأثرك بنار ولا ماء ولا صلب، وخروجك من جسدك وحلولك في جسد آخر، وسر مقدرتك على الارتفاع في الهواء!

أجل... بـ «صماد هي» ستبلغ درجة متى وصلت إليها فقد حصلت لا على درجة الغيبوبة الواعية وإنما على درجة الوعي التام الذي يعي الحقيقة فيعلم ماهية ما حوله وماهيته!.. ستعلم لك ماهية وستعلم **أنك حقيقة الحقيقة** فتعلم أن «السانخية» كانت على صواب في شيء حين قالت بوجود نفوس تنمو في الكون وتُشارك في عمله، فنحن، نحن هذه النفوس!

نحن من سننمو ومن سيتفتّح منا الوعي حتى يصير كل منا روحاً قادراً على تسخير المادة وتكوين الأشياء، فنحن في حقيقتنا، لأننا نفوس صادرة من النفس الكبرى، أرباب!

نحن هذه «الأرباب» على أسس وجود إله، نفسه، نفس!.

أجل... ما هذه النفوس، نفوسنا، بموجودة إلا لأن كل نفس من «نفسه» نفساً!... نفس «هو» عن كل نفس مختلفة ولك نفس مغايرة لأنه نفس الوجود... ولكن، ما هذه القدرة الكامنة في كل نفس إلاّ القدرة المنتشرة منه وفيه « كنفس»... فإن:

«للكون إله هو نفس النفوس»!

الجزء الأول من «الراجا ـ يوجا»

لن يبلغ هذه المعرفة إلا من بلغ «صَمَاذْ هي» ومَنْ بلغ «صَمَاذْ هِي» كفّ عن سؤال ما «الماهية» وما «الصفات» وما «الصلة» وأنّي له للسؤال أن يسأل وفي «صَمَاذْ هِي» قد رأى نفسه الوعي ورأى «صَمَاذْ هِي» النور فرأى نفسه ليس بحاجة إلى سماء وأرض ولا إلى صورة أو الجسم، وما الصور؟ هي الطبيعة التي تتحرّك والحركة منها تعكس على النفس منها الصور والعقل هو الذي لها بعد الشكل الشكل يصوّر وإلى نفسه يأتي بالأشكال!

أأدركت أي شيء أقصُد!

أيها الحائر المتسائل عن سيّد الكون، لك أقول:

كلا!... في «صَمَاذْ هِي» لا مكان ولا زمان ولا جسد ولا كلام؛.... لقد رأيت في «صماد هِي» لا شيء غير وعي ونور ـ نور وعي ـ لا يضمحل فإذا كنت أنت «بصماد هي» قد أدركت هذه المرتبة، فكيف يمكن لسيد الكون أن يكون؟!

إلى الأعماق وإلى أشف آفاق الطهر الصافي ترتفع بنا اليوجية الحديثة كأرفع ما وصل إليه التفكير في ترفّعه عن كل تحوير سفسطائي ومنطق مادي وتعصّب ديني!

هذه هي اليوجية الحديثة التي أخذت الأيام بها تسير في منأى عن دين جارٍ فيه النزاع بين طوائفه لتلج بنا العهد الذي بلغ فيه الفكر الإنساني على هذه السفوح مرحلة سجّلها في القرن الخامس ب.م بالشارح الأول «بدريانا» مَنْ اتّسع للدين القديم والفلسفة معاً منه الصدر فانحنى يحاول لهما بالتوفيق توحيداً، لا يحول دونه والهدف تبينه تباين الاتجاهات بينهما فإن يده التي تناولت «الفيدا» ورأت فيها تناقض النصوص إثماً في شرايينها يجري دفّاقاً تقوي الإيمان بإيمان الآباء.. بمقدّس كتاب، إليها نحذر من الآباء ضنينة، ضنّت ذلك الضنّ الذي ولّد عقيدة أن «الفيدا» كتاب لم يُفْهَم صحيح الفهم ومن ثم يجب لآيه، وبالتأويل، إفصاح وإكمال ليطالعنا:

التفكير الديني في «الفيدانتا» أو إكمال «الفيدا»

على هدي تعقلاته سار العقل الإنساني يُخضّب تفكير الحداثة بفكر النضوج، فجاء بمدرسة تُمثّل المصبّ الذي انصبّت فيه الفِكَر الهندية قاطبة... اتّخذت الفيدانتا الفِكَر الناضجة أساساً فاتخذت النفس اليوبانيشادية أساساً لفلسفتها ومحوراً لتفكيرها الإلهي ومعتقدها الديني!

ومن حول هذا المحور، براهما اليوبانيشادات، نتدرّج بهذا المذهب والأيام به تسير وفي حقبة الزمن تجري الحقب عن قلب للهند قد تقاسمه في شماله وجنوبه فشنو وشيفا، وعمران الجنوب عمر الشمال بأدب باسميهما شعراً وأناشيد يتغنّى لنرى أن العقل، الذي

تناول «الفيدا» وعلى الأصل جرت يده تُعلّق فتستخرج لمتشابه الآي تفسيراً والمتناقضة تأويلاً بل وتحتال على إبراز متناقضه تحت ثوب قشيب من التسلسل المنطقي والإعجاز البياني، قد تحوّل نفسه عن تصديق نفسه فقد وجد أن بحوثه قد تحولت به إلى الناحية اليوبانيشادية تحوّلاً به تلاشى من أفقه التفكير اللاهوتي ففي هذا الأفق، في مستهلّ القرن التاسع الميلادي، قوياً بزغ «براهما» ذلك البزوغ الذي يطالعنا به في الرحاب الفيدانتي: «التفكير الديني الشانكري»

بالبراهمي الطالع من ملابار، شانكرا أشاريا «٧٨٨ ـ ٨٢٠م» شفّت الروح الإنسانية ومثل للإنسانية عقل رجع أنغام الصدى اليوبانيشادي أصداء!

بِشَانكرا ندخل، في الربع الأول من القرن التاسع الميلادي، على أهم فلسفة عقلية وصوفية فلسفية عرفتها سفوح الهند في قرونها الوسطى بل وعرفها العالم قاطبة بتعمّقها العقلي وشفافيتها الروحية، فإنه من غير الممكن أن تطوي اليد ما قد سُجِّل من التعاليم الشانكرية إلاّ وتبرز للمخيلة صورة فذّة لعقلية تغلغلت إلى أقصى الأقصاء ونفسية تعمّقت إلى أعمق الأعماق...

تطالعنا هذه الشخصية الفذّة وقد أضاء القلب منها، منذ فجر حياتها، نور الحب.. حب الحقيقة والمعرفة فطرقت الطريق اليوجي حتى المنتهى... وصمدت حتى بلغت «صماد هِي» فشفّت نفسها خالصاً!..

أجل... شعّ شانكرا نفساً خالصاً.. الشعاع منه يضيء الناحية العقلية في أرجاء العصر الحاضر.

في لجّة صافية من صفو النفس وعبر الطريق اليوجي تأمل شانكرا الوجود فانسابت من شفتيه التمتمة اليوبانيشادية القديمة: وهم!

ما القول إلا ما قال به القدامى اليوبانيشاديون؛ بيداء الوجود وعليها تمر الحياة مرّ الظلال!.. ليس إلاّ «لبراهمان ـ أتمان» فقط وجود، أما هذا العالم الكثير المُتكثِّر، هذا الذي نراه فليس إلاّ:

«مايا» أو وَهْم! إن عن طريق انجذابنا في أنفسنا وتمركزنا في النفس منّا نعلم أن جميع الأشياء ليست إلاّ؛ «مايا»!

وهم كل شيء إلا شيئاً واحداً هو، نفسي هو «أتماني» فأتماني لا يمكن قط أن يكون وهماً لأن الذي ينكره ففي نفس الآن يسلم بحقيقته!

إن هذا العالم الخارجي، الوجود الظاهر المتنوّع، ليس له حقيقة وجود وإنما الحقيقة

مقتصرة على هذه النفس التي تدرك أن الذي تراه ليس إلا وهماً إدراكها لذاتها أنها هي، في خضم هذا الوهم، الحقيقة!

أوشك أن ليست هناك حقيقة إلا النفس التي تبحث عن نفسها والتي ينتهي بها المطاف إلى أن تدري أن ليس هناك وجود إلا لـ «براهمان ـ أتمان»؟.

جرِّب! انطو في معزل عميق من نفسك لنفسك ناشراً وإلى هذه التجربة ليس غير اليوجية طريق لا تيأسن فعنك ستنحسر سنوات وأنت في تيه هذا الطريق ولكنك ستبلغ النهاية!.. والنهاية هي وصولك إلى درجة الاطمئنان التام متى بلغت هذه الدرجة وجدت أنك لا تجد إلاّ... إلاّ أنت و«هو» «هو» في أنت وأنت في «هو»!

مُسائلي: ما أنت وما «هو».

إليك الجواب: إنك لو بلغت هذه الدرجة لكففت عن السؤال!

على هذه الأسس لليوجية الحديثة رددت الشفاه الشانكرية نفس النغم البوذي وهبّت تنادي إليها الإنسان:

يا أيها الإنسان! إن شخصك الخارجي المُشَابه لسواه والمختلف عن سواه في أشياء هذا الذي يولد ويعيش ويموت، **ليس بأنت!** ما أنت، أيتها النفس، إلا قبس من النفس العالمية، «براهمان أتمان»، والقبس من النور **نفس النور!**

إن شخصك الخارجي ليس في الحقيقة شيئاً مذكوراً وإنما الشيء الذي يجب أن يُنظر إليه هو هذه الحقيقة الإلهية فيك فلا حدود هناك إلا حدود وهمية تفصلك عن الحقيقة السرمدية... وأنك لو دققت النظر في نفسك، لأعلنت الحقيقة وقلت:

أنا و«الواحد» واحد!...

عن المعرفة الظاهرية أشاحت الشانكرية، وضليعة في اليوجية لجّت لجّة النفس فبلغت تلك المرحلة التي بلغتها البوذية من قبل حيث تلاشت الحدود السرابية بين «الأتمان» و«الأتما» أو «النفس» والنفس وحيث «بالنور» امتزج النور وبرز الكلّ خضماً نورياً هدير أمواجه أنغام **«الوحدة»**!...

أجل... بأنغام الوحدة النوعية الرابطة بين النفس الكلية والنفس الفردية تغنت الشفاه الشانكرية، فإن شانكرا الذي طلع بين جدران هذه المدرسة شارحاً لشرح الشارح الأول «بدريانا» بالشرح على الشرح لم يكتف وإنما لبلوغ المعرفة عَبْر الطريق اليوجي سار فانتهى المسير به إلى نفس الغاية التي رسمتها «اليوبانيشادات» وإلى نفس تلك النهاية التي بلغها

«البودها»، بلغ شانكرا وعودة «سدارتها» عاد بنفس شعّت في لجّة صافية من النور، للإله يُناجي:

«إلهي! لي اغفر خطايا ثلاث!.. لقد حاك لك مني، فيك تأمل، صورة.. أنت من لا صورة لك. ولقد أحاط بك مني، لك مديح، وصف.. أنت من لا وصف لك. وأني طفت المعابد جاهلاً جهلاً عن وجودك في كل مكان!».

شانكرا أي صور من صور العبادة تُقدم من ثم لتصل الإنسان بالإله؟

لهذا السبب استعرض شانكرا تاريخ التفكير الديني الهندي فوجد... وجد فكر الحداثة والشباب ووجد رزين تفكير النضوج ـ فكراً ـ إذا أُخذت ككل تبيّن فيها التناقض، وإنما إذا حدّدت فإنها تمثّل ناحيتين تستجيبا لما قد أنشأ في الفيدانتا من مذهبين فلسفيين تحوّلت بهما الفيدانتا إلى فلسفة:

«نَرْجنا فدْيا» أو المذهب الداخلي.

و«ساجنا فدْيا» أو المذهب الخارجيّ.

بالإله لا تصل الإنسان عبادة من لهم المذهب الخارجي مذهباً فإن فكرة الألوهة المُشخّصة التي يؤمن بها العقل الجماعي فكرة خاطئة لأن الشخصية معناها التحديد وهذه الصفة لا تناسب من هو فوق كل وصف ومن به لا تصل قرابين تُرفع وبيوت بها يُطوّف وإنما عبادة «المجرّد»، عبادة من لهم المبدأ الداخلي مذهب، **عبادة مجرّدة** بالإله تصل الإنسان عبادة فكرية خالصة تحت ألوان التأمل والتدبّر والتذكّر من صور التفكّر.

هذه هي العبادة الصحيحة التي تدلنا عليها «أنوبهافا» أو الحدْسُ!

إن «أنوبهافا» أو البصيرة أو الحدْسُ موجود في الكلّ ولكن الجلّ عنه غافل بوهم «مايا» أو السراب!. من ثم على المرء أن يكف موج السراب عن «أنوبهافا» وحين يكف المرء موج السراب تسطع «أنوبهافا» وتضيء أرجاء النفس بسعادة فائقة لا توصف يدرك بها المرء أنه قد كفّ عن أن يكون إلا وعياً خالصاً.. فإن «أنوبهافا» ليست الوعي بشيء دون شيء وإنما الوعي الكامل بالكل!

من ثم «أنوبهافا» هي الوسيلة التي بها نعرف أن العالم والمعلوم قد اجتمعا في وحدة فاتحدا وهي الوسيلة التي بها تتّضح خاطىء الفكرة القائلة بأن العالم والمعلوم كل عن الآخرة منفصل، كما أنها الوسيلة التي بها ننال الاتحاد فبإدراكنا أنه اللاّفصل ننال الدرجة التي حقّ لها فيها أن نقول:

«أهم براهما اسمي» أو: براهما أنا! وهكذا تلج بنا الشانكرية:

مشاكل «الوحي المنزّل» و«الرؤية» و«المكالمة»

للنفس، في الشانكرية فلسفة ندركها ونحن نصغي إلى شانكرا يمثّل الحياة على الأرض بحلم... كل ما فيها وكل ما له تحتوي... حلم!

«إن الإنسان حينما يحلم لا يشك في حقيقة ما يراه في الحلم، ولكن! هذه الحقيقة تتلاشى في اللحظة التي يستيقظ فيها وتخلي مكاناً للحقيقة الساطعة التي ما كان يعلمها في الحلم!»: شانكرا

هذه الفكرة التي رددتها الأرجاء الفلسفية في كل بقعة بلغت فيها النفس الإنسانية مرحلة النضوج إنما يبلغ بها شانكرا المنتهى بتشبيهه لحظة «الموت» بلحظة الاستيقاظ من حلم ثقيل وطويل!... من طريق هذا التشبيه ينتهي شانكرا بتحليل الوجود فينتهي إلى أن اللحظة، لحظة الاستيقاظ من الحلم الطويل الثقيل، إنما اللحظة التي ينعدم فيها الزمان والمكان السماء ولا أرض ولا صورة من هذه الصور لقد ذاب الجسد وشعّت النفس في لجّة صافية النور هي: كل شيء ولا شيء!..

انعدم الزمان والمكان وطُوي الأزل والأبد في حاضر السرمد وشعّت النفس فأدركت أن وجودها هو الحقيقة من الوجود فماذا يكون أمامها؟..

كلا!.. ـ كلا ـ لا تقل أمامها، كلا ولا تقل فيها.. وإنما قل تبرز الحقيقة السرمدية التي كانت محجوبة بحلم طويل ووهم الزمان والمكان فلا شيء، هناك خلا: «براهمان»

إلى الشانكرية في هذ النقطة يجب التنبّه بملاحظتها أن «الموت» لا تعقبه رقدة أو فناء وإنما يقظة فوعي ومن ثم فإدراك أقدر وأقوى، وحينذاك سيغيض موج السراب وتظهر الحقيقة السرمدية التي كانت محتجبة بحلم هذه الحياة!

أجل.. لقد مررنا من قبل بشانكرا مؤكداً أن لا حقيقة أن لا النفس وإليه أصغينا مدلياً الأدلّة على قوله بأن:

كل العالم وهم إلاّ «أتماني» فقط لا يمكن أن يكون «أتماني» وهماً لأنه هو الذي يعرف الوهم، وبهذا القول جاء في «مشكلة النفس» بالمبدأ الداخلي القائل بأن جميع الأشياء وهمية عدا شيئاً واحداً... «أتماني» أو نفسي فنفسي قط لا يمكن أن تكون وهمية لأن الذي ينكرها ففي نفس الآن يسلم بحقيقتها... بيد أن هنا يسائل الفكر شانكرا ما هو الفرق بين «جيو أتمان» أو النفس الفردية و«بريم أتمان» أو النفس الإلهية أو براهما؟!

تجيب الشانكرية مقررة أن: مِنْ النفس الإلهية قط لا يمكن أن تكون النفس الفردية جزءاً، لأن المجرّد عن الزمان والمكان لا يمكن أن يتجزأ، لأن الأجزاء إمّا تعاقُب في الزمان أو ترتيب

في المكان ومن ثم لا يمكن أن تكون النفس الفردية مختلفة عن «النفس الإلهية» **لأن اللاّمتجزأ ليس له ثانٍ** كلا ولا قط هي ببراهما منقلب لأن المجرّد عن الزمان والمكان واللامتجزأ، غير متغيّر!

النفس الفردية لا هي من براهما جزء ولا من براهما غير ولا هي للبراهما المنقلب فما هي؟

عن ماهية النفس تجيب الشانكرية أن: للنفس الفردية من الصفات جميع أوصاف «النفس الإلهية»... لها ما لها من النفوذ في كل مكان، والتجرّد، بهذا النفوذ، عن الزمان،... **فهي** متجرّدة عن المكان ومتجرّدة عن الزمان، وهي بهذا التجرّد عن الزمان، **سرمدية الطبيعة**.. كما أنها، وهي التي لها من «النفس الإلهية» صفة الإطلاق واللاّتقيّد بالزمان والمكان أو بقانون السبب والمسبب، تكون النفس؛ **مطلقة!**

حتى المدى تمتد بنا جزالة المنطق الشانكري لتتخُذه لفلسفتها الصوفية أساساً فتقول:

إذن، والنفس الإلهية هي النفس الفردية والنفس الفردية هي النفس الإلهية فـ «جيو أتمان» إنما بنفسه تماماً «بريم أتمان»!

بناءً على ذلك فالقاعدة التي تقوم عليها الفيدانتا الشانكرية سليمة الأساس لا يخشى منها ميْدا مَنْ منها قد ارتقى مراقي الروح متناجياً:

براهما أنا! أنا «هو» و«هو» أنا...

في «أنا» كامنة الأوصاف الإلهية.. إن «الأنا» لتجردها عن المكان، نافذة في الكل!.. ولتجرّدها عن الزمان، سرمدية ولانطلاقها من قيد السبب والمسبب، مطلقة وكالنار!

كمون النار في الخشب كامنة في «أنا» الأوصاف الإلهية... لا تظهر إلاّ فقط عند النهاية، لحظة يشعّ الوعي وللوعي يعي، واعياً أن الحقيقة ليست إلاّ: **وعي!**

بيد أن أمام التعريف الشانكري تُراود الفِكْر من الأسئلة سؤال: ما سبب كمون الطبع الإلهي في «أنا»؟

من المذهب الداخلي إلى الخارجي تنتقل بنا الشانكرية ونجيب: إن السبب هو: «أوباد هي» أو الصفات وهذه؛ في «ماناس» أو العقل و«برانا» أو المبدأ الحي و«شكشمام سرير أم» أو الجسم مع فروع الحواس الخمس... جميع النظام النفسي الممكن التغيُّر من صورة إلى صورة مع «الكارما» يرافق الأتمان في جميع طرق صيرورته بدون التأثير في طبعه الإلهي.. كالبلّور!

البلّور لا يتأثر بما قد لُوِّنَ به من لون! بيد أن للفكر أيضاً تراود من الأسئلة سؤال: إذن ما أصل ما يتّصف به البشر من الصفات؟.. وأيضاً من المبدأ الخارجي يأتي من الشانكرية الجواب:

إن الصفات البشرية ليست في الحقيقة إلا، تشكُّل جزء من «مايا» أو العالم السرابي، وهذه تتأسس على «أوديا» أو الشخصية الغريزية وهذه مصدر الجهل فهي تلك القوة السلبية والمحض السلبية التي فيها قدر من القدرة الكامنة لصد طبعنا الإلهي!

بيد أن إلى الدقيق من المشاكل يدلف بنا هذا الجواب دلفه بنا إلى سؤال:

فمن أين تأتي هذه القوة السلبية المطوي فيها السبب الأصلي للجهل، فالمعصية، فالشرّ؟!

وعن السؤال تجيب الشانكرية:

لا سبب أصلي للشرّ لأن قانون السبب والمسبِّب لا يترامى قط إلى ما وراء هذا العالم فهو فيه إنما محصور، ومن ثم فمحاولة العقل العثور على سبب أصلي للشر وراء هذا العالم إنما محاولة فاشلة!.. قط ليس هناك سبب أصلي للشر فهذا العالم الظاهر لنا ليس إلا «مايا» ليس إلا الحلم!

إن هذه لحقيقة إذ أيقنتها يغدو سيان لديك كل ما يضمه العالم الخارجي من مظاهر وظواهر فما يملك الإنسان منه وفيه بأكثر مما يملك الحالم في الحلم من مادة الحلم!

بالمعرفة الظاهرية تستخِفّ الشانكرية وعن المشاهدات تشيح لتعلن:

إن المعرفة الصحيحة ما كان موضوعها النفس ولما كانت النفس هي الحقيقة الإلهية فالمعرفة لا تهبط من الخارج وإنما هي نبع من الداخل أوشك؟

لو علمت أن «الأتمان» صامت لعلمت أن وحياً لا يهبط ولا إله يتجلّى ولا إنسان يكلِّم بكلام خارجي!

متى علمت أن هذه هي الحقيقة علمت أن «الواحد»، لا لواحد دون الآحاد يرفع ويصطفي ويختار.. إن إلهاً شأنه الشأن، يصطفي ويختار، إنما إله من عمل عقل كافر!.. وإنما إلى «الواحد» الواحد هو الذي يسعى وبترفُّعه عن طريق الرياضة، بالخلوص من المادة، ينال الإلهام البصيري..! هذا الإلهام الذي لن يبلغه إلاّ من **فيه تحقّق كامل الطهر ومن جميع علائق المادة تمام الخلاص تخلّص**!..

في هذه الحالة وحدها يصل الإنسان إلى هذه الدرجة، درجة الإلهام البصيري! وفي هذه الدرجة ينال الواحد الاتحاد بـ «الواحد»..

في أرجاء دنياها انطلقت الشانكرية مرشدة إلى هذا الطريق تتنادى بأن:

المعرفة لا تهبط من السماء وإنما إليها يصعد الإنسان عن طريق التعمّق النفساني والطهر الروحي بالزهد والرياضة وخلوص النفس إلى نفسها من شواغل الجسد وسراب الوجود!

إن الإنسان هو الذي يرتفع بنفسه إلى هذه الدرجة عن طريق التعمُّق النفسي، ووسيلته الرياضة والخلوص من شواغل الجسد والمادة، فينالها تحت اسم الإلهام الحدسي أو البصيري وهذا هو ببراهما الاتحاد.. الاتحاد الذي تعلنه الشانكرية لا يتم إلا لمن لديه تحققت المعرفة الكاملة وفيه توافرت هذه الشروط التي كان شانكرا أول من طبّقها بنفسه على نفسه حين خلع على نفسه «الرداء الأصفر وفي يده تناول الوعاء البوذي» ينادي الإنسان:

«يا أيها الإنسان إن شخصك الخارجي المشابه لغيره، هذا الذي يولد ويموت ليس بالحقيقة فإنما الذي يجب أن ينظر إليه هو الحقيقة الإلهية فيك، فإنما أنت نفس إلهية أنت الإنسان والإله أنت المشخّص واللاّ مشخص أنت الواحد الأحد فأنت «الأتما» من «الأتمان» و«الأتما» من «الأتمان» هي نفس «الأتمان»! لقوي النغم اليوبانيشادي الأول رجعت الشانكرية أنغاماً ولكن! هبّ فزعاً الدين!

أجل... إن «بالمجرّد» عاد شانكرا فجرّد من الحقيقة التجسّد وبذلك جاء من الحقيقة يُجرِّد المذهب الفشني!.. و«بالمجرّد» عاد فجرّد الألوهة من الصفات، وجرّد من الحقيقة التثليث!.. «بالمجرّد» جرّد شانكرا الفشنية والثالوث من الحقيقة، وكلاهما عقيدة تمثّل أركاناً من البناء الديني الذي أعلنت الشانكرية بين جدرانه اللا حقيقة إلا للأتمان!

أجل... للأتمان، كحقيقة، أعلنت الشانكرية.. وإذا تذكرت هنا الذاكرة ماهية الأتمان فذكرت عقيدة النفس السكونية أدرك الفكر أن الاعتقاد بأن الألوهة ليست إلا نفساً كونية إنما اعتقاد ينفي نفياً قاطعاً **التجسّد والتمثّل والهبوط والتجلّي والتكلّم**، ولعلم أي الهزات اهتزّ لها أرجاء اللاهوت البراهمي الفشني ولا سيما وهو يرى التفات الناحية العقلية إلى هذه التعاليم النافية عقائد نفيها إنما تقويض للكتب المقدّسة والكتاب المنزّل... ومن ثم وقف منها موقفاً عدائياً تكاتفت فيه فئات كهانته على لفظها، وتمّ لها ما أرادت فلفظتها فلسفة خارجة عن صحيح الدين وأعلنت؛ أن شانكرا إنما بوذي في جسد براهمي، لتقويض الهندوكية، قد تقمّص!

بشانكرا اضطرب المجرى الديني الهندي وخاصة عبادة فشنو.. وحتماً كان هذا الاضطراب فلقد تطوّرت الفيدانتا من الشروح إلى البحوث التي تحولت فيها إلى فلسفة لها الصفو اليوبانيشادي والعمق البوذي، فلها من اليوبانيشادات فكرة المجرد العالمي ومن البوذية بطلان الوحي الهابط!

إلى الشانكرية تتابعت للاهوت نظرة تتابعت بتتابع الأجيال لتشتد أزراً بمن به تطالعنا:

«الصوفية الدينية الرامانوجية»

من معاقل الكهنوت انطلق «رامانوجية» على الشانكرية ثائراً يحاول لها دحضاً فجاء، في القرن الحادي عشر للميلاد، معلقاً على الكتاب المنزّل «بها جفاد جيتا» ولما قد استخرج من نصوص أتى مؤيداً للتجسّد وللثالوث، فأيّد فشنو وأيد كريشنا وبتأييده فشنو أيّد شيفا وأيد براهما ولكن! براهما المُشخّص!

وبرامانوجا أيّدت نظرة الدين... وبما جاء به من ثنائية الفصل والقول بالاتصال بدل الحلول، حلّ الاتصال الرامانوجي محل الاتحاد الشانكري.. وبتعليمه أن الناس سينالون الخلاص عن طريق حفظ النصوص والتأمل في صافي الخضم الإلهي، عادت قوائم دين سندت الرامانوجية منه متصدّع الأركان، وبإخفائها العيوب تحت طلاء عاطفي براق هوت إليه العاطفة الجيّاشة، وبُعِثَتْ «البهاكتية» أو ذلك التحمُّس الديني الدالة عليه هذه الكلمة التي نصادفها في «السفيتا سفاتارايوبانيشاد»، وعلينا بها تُطوّف «البها جفاد جيتا»، فنعلم أنها صوفية دينية امتدت من غضون القرن الثاني ق.م لتزدهر حتى العهد الحاضر.

كلا... «البهاكتية» ليست كاليوجية، المعرفة فيها ليست هدفاً إليه تُركّز القوى الروحية لهدم القوى الجسدية وإنما «البهاكتية» تمثّل المجرى الطبيعي للتفكير الديني المقيّد بقيد العادة والتقليد وأن تلك، عاطفياً، تنتمي إلى منطقة الوجد والوجدان فهي الحب الديني العارض، بهذا الحب، عن أعراض للدنيا طبيعتها طبيعة فانية فيها الملاذ وهمية.. فالصوفية «البهاكتية» إنما صوفية دينية بل هي في الحقيقة **«الصوفية الدينية»**.

للصوفية الدينية بعثت الرماجونية التي جاء مذهبها بأساس مثل القوائم لصرح إيمان عميق عمّرت به العاطفة الهندية طيلة القرون الوسطى للهند، وبسببه راحت هذه القرون لاهية عن شانكرا وعن فلسفة له قطراتها رحيق تلك الوحدة التي رشفتها أضفة الدجلة الإسلامية صوفية دوّت بالحلاج، والهضاب الإيرانية الإسلامية بالفردوسي، وتلال المعرّة بالمعرّي، غداة إلى العالم الإسلامي انسابت هذه القطرات بالفتح الإسلامي للهند... هذا الفتح الذي يأخذنا عهده من القرن السابع للميلاد إلى العهد الحاضر ليمرّ بنا على اتجاهات شتى من التفكير الديني على هذه السفوح وفي المقدمة ذلك الاتجاه الديني الذي يلقي على تاريخ تكوين ونشأة الأديان بعض الضوء، فإن بفتح العرب، سنة ٦٦٤ هجرية، طريق الهند ودانت لهم بكابول أفغانستان، وبفتح السند، ٧١٧، تقدّم الفتح العربي حتى هوت الأقاليم الغربية للبنجاب، حوالي ١٠٣٠، وحتى نشر قطب الدين سنة ١٢٠٦ الراية الإسلامية على دلهي

معلناً أن الشمال في الهند قد أظله الإسلام، أخذ هذا الظل بامتداد الزمن يمتد نحو الجنوب وأصبح، بقيام الإمبراطورية المغولية ذات الدين الإسلامي، الدين الرسمي للهند الإسلام...!

ولكن!... اليد التي استطاعت قوتها جمع مُتفرِّق القِوى فطوت قبضتها الهند قاطبة كانت قد طبعتها طبيعة البحث عن الحق فطبعها التسامح الديني والبحث في أعماق الدين عن الجوهر فيه ومن ثم اتجه بها التفكير إلى إقامة وحدة دينية تضم، في شمول كل، عناصر الإيمان الصحيح المنتشرة على سفوح الإمبراطورية المغولية تكوّن بذاتها ديانة تمثِّل النواة لشجرة تحتها يلتقي في تسامح كل أصحاب الديانات...

بيد أن طوت راحة الأيام «أكبر» سيّد هذه الإمبراطورية، سليل تيمورلنك وجنكزخان، عن الأمنية، ولكن الفكرة لم تطو فقد أعقبت هذه الأمنية للتوحيد الديني أمنيات، مثّلت الواحدة «الأحمدية» بمحاولتها التوحيد بين المسيحية والإسلام عن طريق تجريد الدينين من المعتقدات التي بسببها ينفصلان... ومثّلت الأخرى، تلك التي جاءت تُحاول التوحيد بين الهندوكية والإسلام فمزجت بين الدينين مزجاً ضمّ إلى تاريخ الأديان:

الدين السينجي

في غضون القرن الخامس عشر نرى الصوفية الإسلامية يمثِّلها على هذه السفوح «كبير»... ولنراه ينطلق، بعد تلمذة على المعلم الهندوكي «رامانانْد»، يقف بين الهندوكية والإسلام للإله يناجي:

«أيها الإله، سواء أكنت اللّه أم راما، فإني بك أحيا وبك أعترف!».

ولكن...! «كبير بانث» أو مذهب كبير، قد استغلّ استغلالاً سياسياً ونفعياً بالهندوكي «مانانَاك» الذي انتهى به الأمر إلى التوحيد بين الهندوكية والإسلام وتأسيس هذه الديانة التي نعرفها باسم «السيخية» أو بالأحرى هذا الدين الذي يقف، بما يضم من متنافر ألوان دينين، يكوّن ديناً مستقلاً غريباً عن الهندوكية غرابته عن الإسلام.

دين، مسنده هو ما قد جمع «أرجون» مما قد ألقاه «ناناك» من تعاليم بالإضافة إلى تعاليم «كبير» في كتاب للسيخية تحت اسم: ال «جرانث».

ولكن... ال «جرانث» كتاب مقدّس لا تتناوله للسيخية يد إلا بعد تطهير، أما إذا قرأته فبقلب فيض فيه الإيمان بكلم لغة قلّما فهمتها «السيخية» اليوم!.. حسبها أن ترتلها أو لها يرتل المرتلون حتى تطرب للترتيل منها الجوانح، وثملة تروح ترمي كل مقترب للسبر بالجنوح عن الدين الحق!

كلا!.. ما شذّت السيخية عن سائر المذاهب والديانات المنتشرة، فكل مذهب أو دين

لديه كتابه الكتاب الحق، وما اختلف في هذا الاعتقاد دين عن دين من هذه الأديان القائمة على هذه السفوح حتى الدين السائد على هذه السفوح حتى اليوم!.. كلا... ما اختلف في هذا الاعتقاد دين عن دين من هذه الأديان المتقاسمة هذه السفوح حتى اليوم فإذ يتقاسم غربي شمالها الإسلام فإنما يظلّ سائداً سفوحها الهندوكية ديناً ما زال جارياً على الأجيال!.. شبيه بمصب فيه انصبّت كل قديم المذاهب والمعتقدات...!

أجل... تسود الهندوكية الهند.. دين جمع الميول طُراً واتسع لمختلف اتجاهات الهند الآرية فبين جدرانه تُطوّف مَنْ على صفحات «الفيدا» حتى «الجيتا» قد طوّفت منهم الصور.. وإلى الأمكنة التي لحق بأسمائهم، بها تاريخ، تقدس وتجعلها كعبة إليها تحجّ العام بعد العام... ومثلها مثل سائر أصحاب الديانات الأخرى التي تحج إلى ما قد أقامت من بيوت مقدسة وحرام... أمكنة، إليها يحج الحجيج وبها يطوف وحتماً على من في نطاق كل دين قد ولد بقدسية هذه الأمكنة الإيمان!...

أجل... للهندوكية «بنارس» أرض مقدّسة وكعبة إليها الحجيج يسير الحول بعد الحول من كل عام.. وللبوذية «بوذاجايا» أرض مقدّسة وكعبة إليها الحجيج يسير الحول بعد الحول من كل عام.. وللسيخية «عمر يستار» أو البيت الذهبي كعبة بها يطوف الحجيج وبها يتمسح... كما للإسلام «مكة» أرض مقدّسة وكعبة إليها الحجيج يسير الحول بعد الحول من كل عام!

ولكن!.. عن هذا النطاق يتّجه إلى الخروج التفكير الهندي للفكر الإنساني اليوم... وبتفكيره يتحوّل الفكر الإنساني عن هذه الأديان التي تقوم صروحها على الإيمان بألوهة حسية وكتب مقدسة، هي، من «الفيدا» إلى «الجيتا»، بما حوت من معتقدات وعقائد ليست في حقيقتها إلاّ فكر مراحل حياة الفكر التطورية لآراء جاء بها حدثاً ويافعاً ولها ترك ناضجاً فتركها للجماعات ديناً!

عن فِكَر الحداثة والصبا يشيح العقل، ناضجاً، في تحرر من التعقلات الدينية وشروحها إلى تفكير حر أفقه أفق جديد قد اتسع بحديث العلم وحديث الفلسفات.. أفق، أفقه آفاق كل ما في أرجائها من نسائم فمحض يوبانيشاديّ... نسائم تحمل المدّ اليوبانيشادي ليمتد فوّاح الأرج غامراً الأرجاء الفكرية في هند الحاضر!

أجل.. إن الموجة الروحية التي أرسلتها الهند في تاريخها باليوبانيشادات يمتدّ تيّارها الروحي من جديد جديداً مجترفاً النفس إلى **«النفس»** جارفاً المجرّد إلى **«المجرّد»** مُفرغاً السرمدي المطلق في **«السرمدي المطلق»** «الأتمان»، **براهما!**

كلا! لا «براهما» المطوي في المكان والجاري عليه الزمان الذي ضمّه اللاهوت الهندوكي

إلى «فشنو» و«شيفا» وإنما براهما، المجرّد اليوبانيشادي!.. براهما، «النفس» التي باسمها من جديد يلهج اللسان الهندي ويرتفع مدوياً في أرجاء النفس يُرجِّع يقينه بدين شريعته بين الجوانح مسطرة.. دين، قانونه إصغاء النفس إلى القانون الأخلاقي في الداخل والتكليف فيه ينحصر في مطالبة النفس باتخاذ النفس نبراساً ونوراً.. نوراً إذا اتبعته النفس تبعت ديناً محوره ألوهة مجرّدة وقواعده سنن وأوامر القانون الأخلاقي في الداخل وفرائضه تُحتِّم؛ الحب والسلام والإخاء العالمي!

الفصل الثاني:

الدين في الصين

الدين في هذه الأودية، المبهمة الآفاق المنحسر عنها التاريخ عامرة بشعب تؤلفه عناصر مزجتها للزمن يد استهلت بها في صفحة التاريخ للصين حضارة وضعت من صرحها الأسس فيما قبل الألف الرابع ق.م تاريخ يستهلّ تاريخه باستهلال العصر السيني، من حوالي ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠ ق.م، هذا العصر الوليد لحضارتين مختلفتين والذي على صفحتيهما ترك العقل الإنساني خطواته المتنافرة قبل أن تمزج الأيام هاتين الحضارتين مزجاً يستهل به تاريخ الدين سجّله، من قبيل ٢٠٠٠ إلى ١١٢٥ ق.م، بالحضارة الشرقية التي تحمل اسم «شانج»، ليطالعنا:

الدين في الحضارة الشرقية

على صفحة هذه الحضارة نتقصى خطوات العقل الإنساني مرحلة مرحلة بيد أن كما نبدأ نطوي من عهود هذه المراحل طيّات تبرز، تحت أضواء المعاول الأثرية، آثار تصل بين هذه الأودية ووادي الفرات، فلقد ألقى إلينا الشمال الشرقي والغربي لهذه الأودية أواني، يعود تاريخها إلى فجر الألف الثاني ق.م، مجانسة لما قد ألقاه وادي الفرات إلينا من أوانٍ يعود تاريخها إلى ما قبل الألف الثالث ق.م فتطالعنا بذلك حضارتان متجانستان وصلتهما خطى تلك القوافل التجارية التي كانت تصل بين هذه الأودية وذلك المرفأ في رأس الخليج الفارسي الذي كان مركزاً للتجارة، فيما حول الألف الثاني والثالث ق.م، «إريدو» الواقعة جنوبي المدينة السامرية الأخرى «إصين».

إن أضواء التاريخ لتخترق ظلمة الماضي وإلى ديجوره تتغلغل فترسم صورة تلك التجارة الرابطة بين أودية الشرق القديم كامتداد لحضارات إقليمية مراكزها تلك المحلاّت التي كانت فيما قبل الألف الخامس ق.م تربط بين الهضبة الإيرانية وأودية الأندوس والنيل والفرات والهوانج هُو...

أمام هذه الأسس التاريخية نقف فنعلم أن أولى الحضارات الصينية كانت مشدودة بينها وبين «السامرية» الصلة ومن ثم فتشابه الكلمات في اللغتين وتماثل الخطى العقلية في النهج والمناهج الواقعية فكلتيهما تساوت والأخرى في الخطوات النظرية الأولى للرياضة والفلك وكلتاهما تماثلتا في العلوم الطبيعية العلمية... هذه هي الأسس التاريخية التي تقودنا إلى استخلاص أن طابع التفكير الديني أو بالأحرى الدين في الحضارة الشرقية كان بحت شرقياً!

تبرز آثار العقل الإنساني في تفكيره الديني في هذه الأودية منذ اثني وعشرين قرناً ق.م وتتجلّى واضحة غضون هذا الزمن الذي انتظمت فيه، تمام الانتظام، يد لقوتها رضخت صاغرة جميع الأقاليم والإقطاعيات ودفعت الجزية المفروضة اعترافاً منها على الخضوع لصاحب هذه اليد، الإمبراطور نفسه ومن نفسه كان الكاهن الأكبر ومن نفسه كان فيه قد تمثّل العقل الإنساني لتطالعنا به النظرات الأولية للعقل الإنساني، في هذه الأودية، نحو مشكلة الدين غداة على قاعدة تفكيره الإلهي ونظراته إلى الوجود قام صرح الدين...

على ضفاف «النهر الأصفر» استهل العقل الإنساني أولى خطواته نحو الدين ومستهلاً الخطى، وليداً فحدثاً، سجّلت خطواته رضوخه لسنّة التطور... عَبْر المراحل الأول كبا ووليداً تعثّر.. وحدثاً، أمام طبيعة تعددت منها المظاهر والظواهر، راح يفسّر أن لكل ظاهرة روحاً بإدارتها مكلّف فجاء!

بالـ «شين» أو أرواح القوى الطبيعية.. وبالـ «كوى» أو أرواح السلف...

بيد أن كلاًّ فأرواح بعيدة كل البعد عن صفة الألوهية. بهاتين العقيدتين بدأ الدين في عصور ما قبل التاريخ ليتجلّى في العهود التاريخية كشريعة تنحصر وتتلخّص في استجلاب رضا أو دفع ضرر هذه «القوى الطبيعية والقوى البشرية» التي كان محاولته استطلاع ما تضمره ضمائرها سبباً في دراسته «السماء»، ومحاولته تسخيرها لمطالبه سبباً في «السِحْر».

ولكن! هذه العقيدة، عقيدة «كوى شين»، القائلة بأرواح يمور بها الكون بين بشرية وطبيعية ومحاولة العقل تفهّم نواياها من الظواهر الطبيعية والأحداث الزمنية هي التي قد دفعت به في مدارج التطور قدماً، فلم يك إلاّ هذا الاهتمام في تفهّم نيّاتها سبباً في دراسته صفحة الفضاء والتوسّع في هذه الدراسة، بل ضاعف منه هذا التوسع في هذه الدراسة حياته الزراعية التي أدّت به، وهو يرى أن الأرض لا تحوي غير العناصر السلبية للوجود وأن العناصر الإيجابية مستقرة في السماء، إلى التحوّل من الأرض إلى السماء!

وبالسماء علقت عين العقل الإنساني وتحت ردائه الكهنوتي راح يرصد منها فضاء بين سبح

الأجرام فيه سبحت باصارتاه فعرف للأجرام السماوية مواقع مكّنته من تحديد مواقيت الكسوف والخسوف ثم ببصره إلى الأرض عاد فوجد أنها يقيناً لا تحوي غير العناصر السلبية للوجود، وأن العناصر الإيجابية إنما المستقرة في السماء فجنح به الخيال وخال السماء كائناً متحركاً بالإرادة، بيد أنه تابع نفسه لقانون منظم ينتشر للبصيرة وأما عن البصر فمطوي.. هذا القانون أو: «طي!»

العقل تبدّت السماء كائناً متحركاً بالإرادة في اتباع لقانون دقيق أسمّاه «طي»... بيْدَ أن عند هذا الحد لم يقف العقل وإنما امتد ليعود معتنقاً نظرته القديمة عقيدة دينية فيقول إن السماء إنما الحياة وإنها نفس الوجود وإنها كائن حيّ وليست الأرض وما على الأرض من خصب وحياة إلا للسماء مظهراً!

بين الأرض والسماء ربط التفكير الصيني، تحت هذا اللون من الحضارات في العصر السيني، بوحدة جعل الأرض فيها للسماء مظهراً فجعل الكثرة للوحدة مظهراً، غير أنه رأى أن هذا التأثير لا يتّجه من الوحدة إلى الكثرة الناشئة عنها بطريقة غير مباشرة وإنما يتّجه إليها بواسطة قوى هي كذلك ناشئة عن تلك الوحدة وأن الموجودات إنما تحدث عن هذه الثنائية المشاهدة لقوى الطبيعة التي بدورها تنفصل فتُكوِّن:

الـ «يانج» أو عناصر الخير

والـ «ين» أو عناصر الشرّ

من هذه الثنائية الناشئة عن «الوحدة» وُجد هذا الوجود خارجي لينتهي كما بدأ... ومن ثم فليس الوجود إلا مظهراً دورياً مصدره من «طي» ونهايته في «طي»!

بوهج الألوهية توهّج الفضاء فامتزجت الألوهية بالسماء وانطلق المنطق يتنادى بنداء ردّدته أضفة هذه الأودية وآفاقها وراح في أرجائها دوياً يُدوّي:

أن فيما وراء «كوى.. شين» هناك القانون... هناك «طي».. و«طي»..؟ طي، هو الأعظم المطوي.

وللأعظم المطوي، راح اللّسان ينادي بالاسم الدّال على هذا المعنى والذي بسببه طلع، في سجل التفكير الإلهي، للألوهة من الأسماء الاسم الذي راحت تردده الشفاه في هذه الأودية من ذاك الحين حتى الحين.. «شانج طي»!

وإلى «شانج طي» تحوّل العقل الإنساني عابداً فجرت يد الزمن تُسطّر في السجلّ الديني:

«الدين الطاوي»

الدين الطاوي دين بدأ يتّخذ صبغته الرسمية في العهد الذي انتظمت فيه السياسة الصين

بنظام سياسي واسع بيد كاهن أكبر واحد للصين كلها، نفسه كان الامبراطور نفسه كان الناطق بلسان السماء. ومن ثم فهو المُمَثِّل السماء على الأرض.. ومن ثم فهو «ابن طي»... وبهذه العقيدة يستهل الدين الطاوي تاريخه مسجّلاً على نفسه:

«عقيدة ابن السماء»!

نفس الكبوة التي كباها العقل فتياً في مصر لحظة قال بنفسه، في عهد الأسرة الشمسية، لرع ابناً، كبا العقل فتياً في عهد الأسرة الشانجية في الصين بإدراجه نفسه في لآهوته للإله ابناً وكما أصبح على ضفاف النيل ابناً لرع، أصبح على أضفة «الهوانج هو» و«اليانج تسي كيانج» ابناً لطي!

هذه أولى العقائد التي تصادفنا في هذه الأودية عن قدسية إنسان تربطه رابطة القربى بالإله.. إله، نفسه، هو السماء التي أصبحت شريعتها، ويد ابنها قد ضمّت الصين بوحدة سياسية، ديناً... ديناً أصبح، بهذه الوحدة السياسية، الدين الرسمي للصين!

أي الأديان دين السماء أو دين «طي»؟

دين السماء دين ينحصر في الائتمار بأمر ابنها!.. للسبب، والدين قد أصبح محكوماً بابن السماء أو «ابن طي»، هوت عبادة الأرواح إلى الدرجة الثانية وأصبحت العبادة الرئيسية تنحصر في عبادة «طي»!

وإلى «طي» أرسلت المحرقات وأُريقت الدماء خارج وداخل معابد خلت، وليس «لطي» صورة مرئية من تمثال...

وإلى «طي» انطلق الفكر بالإنسان فانطلق يعتلي بجسمه الجبال كي تُقرِّبه إلى أقرب نقطة من «السماء»!

لهذا السبب قُدِّس من الجبال خمسة، أقدسها ذلك الأشهق المكتنف النواحي الشمالية من «شانتونج» والذي عليه إلى «طي» استن الارتقاء، منذ اثني وعشرين قرناً ق.م، الإمبراطور «شون»[١] حين بلغ سمت عليه بنفسه قدّم «لطي» الضحايا، ومنه هبط منادياً بنفسه؛ «ابن السماء»! ولتعلم هذه الأودية أن أقرب بقعة تقربها إلى «طي» هي قمة: «طي شان»!

وهكذا بدأ «الحج» منذ ذلك الفجر البعيد من تاريخ هذه الأودية!

قديماً.. قديماً ووفود الحجيج إلى بيت الإله في وادي النيل والفرات تسير.. وقديماً ويد الزمن بالقلم المسماري تحفر على الألواح الحجرية شريعة حمورابي وتطلّع على الدين شريعة

---

(١) Shun.

المِثْل بالمِثْل، شريعة أبى مشرعها إلاّ القول العدل فقال بها مرفوعة إلى السماء، ولم يقل بها إليه هابطة من السماء! وقديماً قبل أن تراق الدماء وتتصاعد على سفوح الهملايا ومعتليات الأوليمبس المحرقات، وقبل أن تسطر التوراة والهوميريات، بدأ الحجّ في هذه الأودية وحُفرت الشريعة وعلى قائم الصخر في محراب الطبيعة أقيمت وسار الحجيج يعتلي، إلى «شانغ طي»، «طي شان»... ومنذ ذاك الزمن حتى الزمن وإلى «شانغ طي» على «طي شان..» فريضة، من كل عام: الحج!..

إلى «طي شان» على الجبل المقدس، عبر المدينة المقدسة «طيبان» أو «السلام الأعظم»، قديماً سار الحجيج، وما زال يسير من كل عام في أيام معلومات[1]، كما كان يسير منذ أربعة آلاف عام!.. من عهد الأسرة الأولى أديت، أداءها اليوم، على قمة «طي شان» شعائر الحج من صور العبادة من ضحايا ومكرر صيغ في صورة صلوات... صيغ، نرى البعض منها ما زال منقوشاً على قائم الصخر، كتعاليم، على لوحات كان يقرؤها في مسيرة الحجيج قبل أن تضمّها ضماً من بعد أسفار «الكتاب المقدّس» كنصوص مقدسة...

أجل... إلى «طي شان»، من «طيبان» الواقعة في سفح الجبل حيث يقوم «بيت طي» كعبة، يبدأ الحجيج مسيره مستهلاً تأدية مفروض الشعائر في هذا «البيت» ومنه يتّجه شمالاً إلى أعلى إلى حيث يبدأ «بان ـ لو» أو طريق الحج... الطريق الذي سلكه الحجيج وعراً قبل أن يُنحت صخره درجات، في عهد أسرة الهان (٢٠٦ ق.م ـ ٢٢٠ ب.م)، ويصعد مرتقياً حتى يبلغ سمت يربو علواً على خمسة آلاف قدم، في أعلاه يقوم ذلك اللوح الفارغ إلا من اسم مَنْ إليه وله قد ارتقى الحجيج هذه القمم.. الاسم الذي نقشته يد ما فيما حول الألف الثاني ق.م.. الاسم الذي لا نقف أمامه إلاّ ويخفق القلب خفق الوَلَه نحو المجهول وتهمهم منا الشفاه: «طي»!

أمام هذا الرسم المُحمَّل على هذا اللوح الصخري الذي يتشبث الدين بهبوطه من السماء ويخالفه علم طبقات الأرض بإصراره أنه من الأرض نقف وغرباً يترامى وادي «الهوانغ هُو» حتى أفقٍ فيه تمتد في ذَوْبِ مياه «النهر الأصفر» وفي بحيرة «التنين الأسود» تغيب... نقف، حيث لا يفضي الفضاء إلا إلى فضاء، تحتضننا نسائم يرضخ تحت تأثيرها منا الشعور ويأبى إلا الاعتراف بأننا نقف، في هذه النهاية، في أحضان اللانهاية الرابطة الأرض بالسماء والإنسان أيضاً بالسماء بوحدة!... وحدة، هي نفسها تلك الوحدة التي دفعت العقل الإنساني في هذه الأودية إلى القول بأن الجانب المادي لم يحتفظ بنظامه كاملاً إلا بفضل

---

(١) تقع في شهر فبراير ومارس.

الجانب الروحي وأن الإنسان مظهر قوي من مظاهر هذه الوحدة!

آمن العقل في هذه الأودية أن الوجود وحدة سببها هذا القانون المطوي عن البصر والمنحصر في «**واحد**» فآمن أن الوجود وحدة بالواحد «طي».. ثم امتد وعلى هذه الوحدة جاء بالدليل قائلاً:

إن وجود القانون الأخلاقي في الداخل إنما على هذه الوحدة دليل وبرهان، فإن أي انحراف بسيط عن اتّباع مبادئ هذا الصرات السوي الموجود «بالفطرة» في داخل كل نفس يحدث اضطراب تُرجِّع صداه جميع جزئيات الكون!

على هذه الأسس امتد العقل الإنساني يقول: إن نفس هذا البرهان، برهان وجود القانون الأخلاقي في الداخل، إنما برهان على وجود «طي» كوحدة وفي آن الآن نفسه برهان الارتباط بـ «طي»... «طي» الذي نستطيع، عن طريق قانونه هذا المنتشر في طيّات كل نفس وعلى صفحات كل قلب، استخلاص صفة له لماهيته بها نتعرّف فنعرف؛ أن «شانغ ـ طي» هو:

الخير والخير؟.. الخير: العدالة والكمال! على وجود الإله إنما القانون الأخلاقي في الداخل برهان، بل إن وجود هذا القانون الأخلاقي في الداخل برهان في نفس الآن على أن الإنسان خيّر بفطرته... من ثم فإن الخير فطري في الناس والشر لا يقع إلا إذا حاد الإنسان عن طبيعته!

بهذا التحديد للخير والشر تجابهنا: مشكلة الخير والشر في الدين الطاوي.

مشكلة الخير والشر في الدين الطاوي مشكلة حلولها تنتشر في:

شريعة السماء؛ «قانون طي».. والقانون الأخلاقي في الداخل.

«شريعة السماء» في هذه الأودية شريعة ليست كما في غير هذه الأودية من الشرائع فهي في سواها تختلف اختلافاً أساسياً فإن شريعة السماء في هذه الأودية شريعة غير منزّلة!

«شريعة السماء» شريعة لم يملها وحي منزّل وبها لم تنزل من السماء صحف، بل لأنها شريعة السماء هي شريعة لم تُنَزّل ولم تنزل.. بل لأنها شريعة السماء هي شريعة لم تأت من الخارج وإنما موجودة في الداخل!

إن «قانون طي» »إنما هو القانون الموجود بالفطرة في داخل كل نفس وفي صورة القانون الأخلاقي المنقوش على صفحة كل قلب... إن «قانون طي» إنما هو في الداخل وشريعته مسطورة بين الضلوع في صورة القانون الأخلاقي... القانون الأخلاقي القائم دليل على

ارتباط الإنسان بالسماء ارتباطاً محكماً يعلن أن ليس إلا في الظاهر لكل واحد من هذه القِوى تبدو غاية مقصودة تحققها، فليست هذه الغايات في الحقيقة إلا غاية واحدة هي غاية الوجود أو قانونه الطبيعي المتلخص في: الواجب

تتلخص «شريعة السماء» أو «قانون طي» في كلمة «الواجب» والواجب يتلخّص في كلمة الكمال والكمال يتلخص في: تحقيق الاستنارة للنفس وتحقيق الاستنارة التامة للنفس إنما وسيلتها اتباع البصيرة أو:

الحدْس! خيّر بفطرته الإنسان، وعلى حب الخير مفطور الفطرة لأنه جزء من الوجود، والوجود؟

الوجود هو الإله!

إن الإنسان من الوجود إنما هذا الجزء الإلهي.. ولأنه هذا الجزء الإلٰهي، هو خيّر بفطرته أما الشر فليس له في الحقيقة وجود لأنه لا يقع إلا إذا حاد الإنسان عن طبيعته!

إن الإنسان كائن مفكر حتمت العدالة أن تكون له إرادة وأن يكون له اختيار وهذه الإرادة وهذا الاختيار قد يبعدانه، إذا أساء استعمالهما، عن اتباع الخير الموجود في نفسه على هيئة استعداد فقط وكمون وقط ليس فيه بكامل التكوين، وقد يقرّ بأنه، إذا أحسن استعمالهما، إلى إنماء هذا الخير فيه حتى تصبح طبيعة له عملية: الفضيلة

والفضيلة؟.. الفضيلة لا تتحقق بعمل خيري ظاهري فإنما هي كمال الخلق وتحقيق الاستنارة التامة للنفس باتباع الطريق السوي في كل أمر... اتباع الطريق المرسوم في داخل كل نفس، هذا الطريق المرسوم الذي يأتي نفسه كبرهان، مشاهد أثره في كل شيء، على ذلك الارتباط المحكم بين السماء والأرض والإنسان، فبسيط حيدة في الإنسان يحدث اضطراب في «قانون على» يتردد صداه في جميع الكون... إن أكثر هذا الاضطراب المشاهد في مرافق الحياة إنما آت من حيدة الإنسان عن مستقيم «صراططاو».. ومن ثم فواجب كل كائن أن يكون فاضلاً كي لا يكون مجلبة لشقاء يشقى بسببه المجتمع!

بهذه القاعدة خرج الدين، دين طاو، من حيّز النظريات المجرّدة إلى فلسفة أخلاقية عملية تنحصر في الرحمة والفضيلة وتتلخص في كلمة: الواجب.

وبهذه القاعدة تحوّل جوهر الدين من الطقوس أو المظهر المادي للعبادة إلى المظهر المعنوي: الواجب!

وعلى أسس «الواجب»، كشريعة «لدين طي»، أُقيمت الأخلاق الصينية وعلى دعامته من مثالية وسعادة قام الصرح الاجتماعي في عهد الحضارة الشرقية والأيام عن الحياة السياسية

لهذه الحضارة تنحسر حتى تراها قد أصبحت عُرْضة لغزو الرُحّل من الشمال من القبائل التي نعرفها في سجل التاريخ السياسي تحت اسم الهان والترك والتتر... هذه القبائل التي جمعتها، بعد تفرُّق، يد الزمن بقبضة أولئك المغول الرَّحل، الذين باتحاد سياسي قبضت قبضتهم ناصية الصين فطلعوا في مطلع الألف الأول ق.م، لتسجِّل بهم، سنة ١١٢٥ ق.م، مغرب أسرة «شانج» أو الحضارة الشرقية وبزوغ أسرة «شوو»[١] أو الحضارة الغربية، هذه الحضارة التي ما بزغت شمسها إلا وراحت تنير الآفاق الصينية حتى عهد أسوكا في الهند والبطالسة في مصر.. الحضارة التي يطالعنا بها:

الدين في الحضارة الغربية

الدين في هذه الحضارة، التي أقامها مؤسس أسرة «شوو» على أسس الإصلاح العمراني، يقوم على قوائم سليمة من قواعد الأخلاق يُمثِّل استمراراً في سلسلة التفكير القديم بحلقة أصبحت بها قواعد الدين الثابتة تنحصر في مكارم الأخلاق... بيد أن لئن كانت قواعد الدين الثابتة تنحصر في الخلق فإننا والأيام الأولى بهذه الحضارة تسير يصادفنا، حوالي (سنة ١١٠٠ ق.م)، تغيراً في قاعدة التفكير الإلهي القائم عليه صرح هذا الدين، إذ يصادفنا للألوهة تعريف قديم يحمل من المعاني معنى جديداً.. تصادفنا كلمة «حيو ـ تيين»[٢] أو «الحي طي»!

أجل... إن هذا التعريف تعريف لـ «شانج ـ طي» غير جديد فهذا لفظ شعري قديم من معانيه معنى القبضة القابضة بقبضتها أمر الحياة ولكن الشكل الذي به أضحى يُكتب في هذه الفترة من التاريخ إنما يحمل من المعاني معنى كل الجدّة جديد، فالشكل الجديد لا يعني السماء ككائن متحرك وأصل للحياة وإنما هذا الشكل الدّال على تصويره الإله «الرجل الذي في السماء» يرينا أن العقل الإنساني، الذي كان قد ألّه هذه اللّجة اللاّ محدودة القوى وزاده بألوهتها يقيناً تحركها حسب نظام دقيق فقال بها كينونة حية متحركة حسب هذا القانون الدقيق، إنما قد استرسل من هذه القاعدة منطقه وقال:

إن هذه «الحركة» يحرِّكها محرِّك فيها يقوم القول قال العقل فقال: إن في السماء كائن يحركها بالإرادة! وبهذا القول فصل العقل الألوهة عن السماء وأصبحت السماء مكاناً للإله الذي في السماء!

بفصل الألوهة عن السماء انفصل الإله إلى جسم وانفصلت السماء إلى مكان! أضحت

(١) Chow.

(٢) "Hao-Tien".

السماء مكاناً للألوهة أحاطتها المكانية فاكتنفتها التجسّدية! وبينما أصبحت كلمة «شانج طي» رمزاً لقانون سرمدي اقتصرت كلمة «تيين» على الإشارة إلى:

«الإله الذي في السماء»!

وإلى «الإله الذي في السماء»، «شانج طي» نفسه، استمر العقل الإنساني يرفع الضحايا ويقدِّم القرابين المنقسمة إلى أربعة أنواع مقصور تقدمتها على «ابن السماء» في الاحتفالات الدينية التي تطالعنا عنها الصور بعبادات ترتفع «لطي» في بيوت أعظمها القائم في «بكنج» وفي العراء ومهابط الأودية وعالياً في معتليات قمم «طي شان»!

ولكن!.. لئن أسبل العقل عابداً وأدلع النار تقرُّباً للإله الذي أسكنه السماء فوصمه بالمكانية وبالتجسدية شوّه منه الصورة فإنما فيه قد بدأت تنمو حاسة الجمال وحاسة الإحساس بالحب، ومن ثم بدا عن الطقوس بعض الانسلاخ ينسلخ باعتناقه عملياً، الواجب ديناً... وبهذا الاعتناق الكلي للواجب رسخت، في هذه الفترة، القواعد الخلقية والفلسفة العملية لدين «طاو»! الجوهر من الدين كان الجوهر خلال القرون الأول للحكم الطويل لأسرة «شوو» أما البِدَع من الدين والفج من المعتقدات التي قد أضيفت على الدين الطاوي وبه قد لصقت، فأبرز ما يسترعي.. الانتباه:

عقيدة ابن العذراء

إن المسانِد التاريخية تحدِّث؛ أن العقل، حدثاً، قد آمن أن «آيسن جيورو»، أول حاكم منشوري للصين، قد حملت به أمه دونما اتصال جنسي.. وللصين، بمعجزة، أعطت أول حكامها من المنشوريين، «العذراء»!

كمعجزة، بهذه الطريقة الإعجازية، ولد مؤسس أسرة «شوو» من عنه شعراً راح يترنّم اللسان الصيني يشيد بذكر هذا المولد الإعجازي لابن السماء، متغنِّياً:

«إن أمه قد رفعت قرباناً كي لا تظل حياتها دون إنسال ثم خاضت في ينبوع صنعه بنفسه إله السماء فحملت... وحين انتهت شهور حملها جاء وليدها كحمل وديع...

كلا!.. لم يك هناك لعذريتها خدش ولا هناك كان تمزيق! ولا هناك كان ألم مخاض... كل ذلك لم يكن لكي تُؤكد قدسية الوليد!»[1]

عقيدة! عقيدة ظلّت سائدة التفكير الديني والأجيال بالدين الطاوي تسير... تسير لتسلم

---

(١) "Comparative Beligien" By A.C.Bouquet.

قبضة الحكم الطويل لأسرة «شوو»، تدريجياً، إلى التهافت والتراخي والعجز السياسي الذي يطالعنا واضحاً حوالي القرن السادس ق.م القرن الذي انقسمت فيه الصين إلى ما يقرب من ستة آلاف مقاطعة، كل واحدة منها تعيش في فوضى حكم إقطاعي سجلته يد الزمن في سجل التاريخ الصيني باسم: «عصر الفَوْضَى»

إلى المنازعات والفِتَن استسلمت في هذا العصر، عصر الفوضى، هذه الأودية فأسلمتها المنازعات إلى المنازعات وجرفتها الفِتَن إلى الفِتَن فهوت البلاد إلى أعمق أنواع الفوضى والاضطراب رازحة تحت نير التدهور السياسي والاقتصادي... لأجيال، تحت نير هذا التدهور رزحت البلاد فانتابتها المِحَن!

ولكن! المحن إذا اشتدت شدّت أوتار النفس وأخلدتها إلى نفسها وإذا ما خلدت النفس إلى نفسها بدأت تستعرض تفاهة النضال في حين ينضج العقل نضوجاً يصقل فيه ويصفو، وبقدر ما تكتنفه الحواجز نحو الأهداف تبعثه متوثباً للإصلاح وتدفعه متسائلاً:

أي الوسائل للخلاص من هذه الفوضى الوسيلة؟!

سؤال، به خبا «عصر الفوضى» وبزغ: «العصر المنهجي»

إن المحن قد قفزت بالعقل الإنساني إلى مرحلة النضوج فقد استشرت الفوضى واشتدت المحن ليبارح العقل طور الشباب فيبارح مرحلة العقيدة والإيمان إلى مرحلة التعقُّل.. وللسبب تحركت يد الزمن فأيقظت في هذه الأودية من الإنسانية النفس والفكر معاً وراحت تحفر في مشرق البلاد وجنوبها آثار خطى العقل في هذه المرحلة.

في الجنوب، والجنوب مرهف الحواس، خطا العقل الإنساني نفساً فصبغته صبغة الإصلاح الروحي...

وفي الشمال، والشمال ملتهب الحواس، خطا العقل الإنساني فكراً فصبغته صبغة الإصلاح الاجتماعي...

خطوتان، بهما نلج أفق التحوُّل إلى التفكير الفلسفي الديني، سجّل العقل أولهما بمن به تحول الدين الطاوي من طقوس إلى فلسفة بها يطالعنا:

تحوّل الدين الطاوي إلى فلسفة في المذهب الصوفي اللاوتسي

من حيّز الشعائر المادية والمعتقدات الجماعية إلى رحاب المجرّدات والمعنويات تحوّل الدين الطاوي حين امتدت يد الزمن فنمّت من الإنسانية النفس التي جاءت في الجنوب متمثّلة بـ «بي يانغ لي»..

على صفحات التاريخ، حوالي سنة ٦٠٠ ق.م، يطلع علينا «بي يانغ لي» تحت لقب «لاو تسو» أو الحكيم الأكبر لحظة هبّ فوجد أن العهد إنما عهد بالفوضى العارمة عارم يدفعه دويه، المتسائل أي الوسائل للخلاص وسيلة، إلى تلمُّس السبب.. ليدلف إليه، مما قد غُرس في أعماق أعماقه من الماضي، الجواب:

إن السبب لهذه الفوضى العارمة هي: «الحيدة عن طريق طي!» إن الطبيعة خيِّرة والشر لا يقع إلا من معارضتها واعتراض من أمرها الطريق وإلا من حيدة الإنسان عن «طريق طي»!

على هذه الفكرة جرت اللوالب الفكرية اللاّوتسية ليقودها المنطق إلى: أنه إذا كان السبب في هذه الفوضى هو «الحيدة عن طريق طي» فإن؛ الوسيلة إلى الخلاص إنما تتلخّص في العودة إلى «طريق طي» أو بعبارة أوضح الرجوع إلى «قانون طي»!..

وفي «طي» فكّر «لاو تسو»... فتبلور «طي» وسطع في أفق المخيلة اللاّوتسية شيء مجرّد.. مجرّد، لا جسمية تحدُّه ولا مكانية تقيّده ولا طقوس به إليه يُتقرَّب.. مجرّد، لا يحده الزمان ولا يطويه المكان.. مجرّد، يملأ وجوده الوجود ومن ثم فالمجرد شيء لا محدود.. ومن ثم فهذا الشيء، هو كل شيء، وفي آن الآن...: لا شيء!

بهذا التعقّل المنطقي تحوّلت الفكرة عن «طي» كإله وعن «طاو» كقانون، من عقيدة دينية إلى فلسفة وعقيدة فلسفية... عقيدة فلسفية لها سجل القلم اللاّوتسي في وادي «هان كو» على صفحات «طاو طي كنج» أو الدستور الطاوي الأخلاقي مسجّلاً فلسفة تحولت بالعقل إلى النفور من الطقوس والتحرّر الكامل من قيد القيود!

من قيد قيود باسم التقاليد قُدّت إلى فسحة التفكير الحر انطلق العقل الإنساني في تمثّله بلاو تسو فأتى للصين بفلسفة لم تحد نظرها السماء وإنما فيها جالت فلم تجد فيها إلهاً!

في السماء لم تجد اللاّوتسية إلهاً له عنصراً العنصر الجنسي، تصوره المخيلة الدينية ومن ورائها الجماعية، كرجل، بل لم تجد السماء نفسها مكاناً فعادت تُعلّم:

فارغ، على النحو الديني الذي يُصوّره للجماعة عقل، الوجود من إله، فإن:

«هناك شيء غير محدود ولكنه كامل!»

«لاو تسو»

من «طاو طي كنج»

للوجود المتحرّك، مكتنف السرمد الأبد! آبد سرمد «السرمد الأبد» وراء ظاهرة التغيّر!.. هناك شيء، وراء هذه الظواهر المتغيرة والمظاهر المتعاقبة، لا يتغيّر ولا يتناوله التغيير.. شيء

يحوّل، ولا يتحول ويبدّل ولايناله التبديل ـ شيء، الوجود بأشيائه له مظهر ـ شيء، هو الأصل، والأصل: المبدأ والعلّة! شيء، أوفى كلمة تقرّبه إلى الذهن هي تلك الكلمة التي تحدّرت عبر العهود حتى العهد وعرف الذهن الإنساني من معانيها معنى الطريق السويّ أو الطريق المستقيم: «طاو»

إن «طاو» القانون هو قانون «طي» الإله.. ولما كان «طي» شيئاً مجرداً فهو هو نفس القانون!

ومن ثم لتطلق هذه الكلمة على هذا «الشيء» ولتحتفظ بمعانيها القديمة التي كانت لها في عصور القدامى ولكن! لتؤدي إلى جانب قديم المعاني معنى جديداً، فتعني: النفس السرمدية، الكينونة النقيّة، الحياة الخالصة والعقل العام!

أجل... إن «طي» صيغة، استعملتها اللاّوتسية عن القدامى ولها اللاّوتسية لم تبتدع ولكن عن معناها في نطاق الدين اختلف المعنى في رحاب الفلسفة.. إن «طي» كلمة ما زالت تؤدي معنى «قانون الطبيعة» بيد أن الكلمة على شفتي اللاّوتسية قد تبدّلت من لاهوتية إلى فلسفية وأصبحت صيغة تعني الألوهة المجرّدة!

أصبحت كلمة «طي» تؤدي معنى يقرب من «الأتمان اليوبانيشادي».. وأصبح من معانيها معنى «الفكر والنفس السرمدية المشتملة على جميع القوى الحيوية» أما صفتها فالإطلاق وأما كنهها فالكينونة النقية غير القابلة لمدركية الإدراك!

عن مدركية البشر سمت بـ «طي» اللاّوتسية وعن طريق المعرفة البصيرية أو الحدسية انتشر لها الوجود، كوحدة، من وفي «طي» يمور، فانطلقت تنادي:

ما مظاهر هذه الوحدة إلا في مخيلة «طي» صور، وما ظواهر هذه الوحدة إلاّ لـ «طي» أفكار!

في «طي» طوى العقل الوجود كصور، ومن «طي» نشره كأفكار، فعاد بالوجود إلى الظلال وبأشيائه إلى محض سراب!

سراب الوجود ومحض ظلال!

ولكن! الوجود ظلال لحقيقة واحدة هي: الحقيقة الوحيدة.. «طي»!

للعقل، ناضجاً، تبدّى الوجود إنه الظلال فأتى لهذه الأودية بالفلسفة التصورية على أسس هذا التعقّل الرصين القائل ألا وجود إلا لـ «طي» المجرّد!

باللاوتسية بلغ التفكير الإلهي في هذه الأودية أصفى ألوان الفلسفات فلسفة، هي وإن

لم تكن قد استكملت لها المراحل التي استكملت لليوبانيشادات الأول فإنها، بإشاحتها عن المعرفة الظاهرية، قد استمدّت من الداخل المعرفة الصحيحة التي أتتها بالبرهان على فراغ السماء من إله تقيّده الجسدية ويحدّه المكان! ومن الداخل أيضاً أتت بالبرهان على وجود الإله كشيء يملأ أرجاء الوجود، غير خالية منه جزئيات الكون، فتنادت:

إن الموجِد هو عين الموجَد فإن «طاو» في كل مكان به مرتبط الوجود وبه حي!

وتحت هذا التعريف أصبح «طاو» المطلق وأمسى الوجود، وحدة مطلقة بالمطلق!

في كل شيء «طاو» موجود وأما وجود «طاو» نفسه فيعود إلى؛ اللاشيء! في كل شيء يرى «طاو» أو الإله، ولكنه لا يرى كشيء!.. مهما إلى نفسك سكنت ومهما من سكونها طواك السكون مستلهماً إدراك لـ «طاو» ماهية واستشفاف معرفة فشيء واحد ستدركه وهو أنه؛ اللامحدود والمجرّد ولن يردد لسانك إلا ما به قد جرى للاو تسو قلم عرّف «الماهية» أنها لا تُعرف وعرّف «طاو» بأنه: كل شيء والشيء اللاّشيء!

«ثلاثون بيدقاً يجمعها دنجل واحد ثم على هذه الفجوة التي في داخل الدنجل تعتمد فائدة العجلة يُجْبل الطين ويتخذ من القوالب شكل آنية.. ثم على هذا الشيء الذي هو في نفس الآن لا شيء، الفراغ الذي في داخل الآنية، تعتمد فائدة الآنية.

وعن طريق قطع النوافذ والأبواب نشيِّد بيتاً ولكن على الفضاء في الداخل، هذا الشيء اللاشيء، تعتمد منفعة الدار وتقوم الدار.

وهكذا.. إننا ننظر إلى «طاو»، الحقيقة، ولكننا لا نراه.. إنه غير ذي شكل!

إننا نصغي إلى «طاو» ولكننا له لا نسمع.. إنه غير ذي صوت! إننا نتحسّس «طاو» ولكننا له لا نحسّ.. إنه غير ذي جسد! أزلاً وأبداً «طاو» سيظل عن الإدراك مطوياً، والمرة بعد المرة سيعود بك البحث عنه إلى؛ اللاشيء!».

«لاوتسو»

من «طاو طي كنج»

تحت تأثير هذا اللون من التفكير الإلهي تحرّر الفكر من الطقوس فأي شيء لـ «طي» يمكنك من ثم أن تقدم و«طي» إنما هذا اللاشيء وهذا اللاشيء إنما؛ نفس سرمدية؟!

كلا!.. لا تصلك بـ «طي» ضحايا ولا قرابين ولا محرقات.. لا سفك دماء ضحايا ولا إضرام نار ولا إحراق لحم يصلك «بالنفس السرمدية» وإنما «بالنفس السرمدية» تصلك منك النفس..!

النفس منك إلى «طريق طي» لك تقود عبر طريق سهل يتلخّص في سليم وصحيح العبادة...

أيها المريد المسائل:

ما هي هذه العبادة السليمة الصحيحة التي تقود إلى «طريق طي» أو الطريق المستقيم؟

إليك الجواب:

إن الطبيعة بطبيعتها خيّرة والشرّ إنما من معارضتها واعتراضها من ثم فالعبادة هي؛ إسلام النفس لـ «طي»!

إن الشر لا يقع إلاّ من معارضة «طي» والخروج عن قانونه، وما دام الشر لا يقع إلاّ من معارضة «طي» والخروج عن قانونه، فالأسلم أن تسلم أمرك له ولقانونه تستسلم!

أيها السائل:

ما صبغة ولون هذا الاستسلام العامل بأوامر قانون الطبيعة؟

إليك الجواب:

إن قانون الطبيعة هو: القانون الأخلاقي في الداخل.. الصوت الصحيح المعلن في الداخل شريعة: «الواجب»!

إلى صوت الطبيعة، جيداً، أصغ ولا تخلط بأصوات أخرى صوتها الحاض على العناية بالحياة والمعلن أن الأنانية وإهمال خدمة العمران خروج على سنتها!

اصغ إلى تعاليمها.. إن تعاليمها لا تأمر إلا بالخير والمحبة العامة.. كلا... لا تسيء لصوت الطبيعة فهماً! فحب الغير لا تطلبه منك حباً ناشئاً عن العاطفة ولا لاتقاء إيذاء وإنما تريده منك حباً منبثقاً من **ينبوع الواجب**!

هذه هي شريعة التسليم والاستسلام المتلخصة في السير على هدي القانون الأخلاقي المنتشر في الداخل والمتلخّص في: «الواجب».. «الواجب» الذي رأته اللاّوتسية الوسيلة الوحيدة لانتظام الحياة العملية على أسس الخير الأخلاقي المنتهي حتماً إلى الصلاح الاجتماعي...

هذه هي شريعة التسليم والاستسلام التام، المتلخّصة في «الواجب» أو الفلسفة الإيجابية التي جاء بها «لاو تسو» والتي رُميت، كفلسفة ساكياموني، بالسلبية لأنها جاءت بلون على العقلية الجماعية غريب فريد من صور العبادة المجافية للتكاليف المادية بإملائها نوعاً من الهدوء الصوفي الجلاب لتلك السكينة النفسية التي تدفع بالإنسان إلى استقبال ما تأتي به الحياة بصدر رحب يملؤه الإيمان الصحيح بأن:

«طاو» ليس إلا الخير، ومن ثم فلا تخش، إذا إليه استسلمت باتباع قانونه الداخلي، منه شراً...

وأي شيء في دنياك من دنياك تخشى.. ومستسلم أنت لطي؟! ألق عن بالك البلبال وبالبلبلة لا تقلق منك البال، وحسب ناموس للكون دع الأمور تتطور تطوُّر الأشياء...

أسبل مقلتيك وأصمّ مسمعيك عن العالم الخارجي وعُدْ من عالم الوعي اللاّواعي إلى عالم اللاوعي الواعي...

من ثم، إذا طلبت السكينة النفسية والاطمئنان الداخلي ونشدت السعادة التامة، الزم الـ «وو ـ وي»[1] أو الاستسلام التام!

إنك إذا استطعت لذاك تحقيقاً عدت إلى المصدر والمبدأ العام الأول عدت إلى منشئك دونما علم منك، واتحدت دونما علم منك **بالمطلق** وأصبحت لديك، بهذا الاتحاد بالوحدة المطلقية السرمدية التي لن تستطيع بعد هذا الاتحاد عنها انفصالاً: المعرفة!

كلا!.. إن «المعرفة» لا تأتي إليك عن طريق التجلّي الإلهي ولا بوسيلة المكالمة الإلهية... كلا ليس هناك تجلٍّ ولا مكالمة فلا جسد للإله حتى يُرى ولا صوت للإله حتى يُسمع!

كلا! لن تنال «المعرفة» إلا من الداخل فإن «المعرفة» ليست إلاّ تلك المعرفة اليقينية التي تبلغها، أنت النفس، حين تعرف أنك في ومن الخضم اللامتجزىء لا متجزىء جزء!

بهذا اللون الفريد من العبادات تنتشر صحيح التعاليم اللاّوتسية لا كمذهب يعلّم اللامبالاة بما به تأتي من صروف الحياة وإنما كمذهب يعلم الاطمئنان التّام إلى الحياة التي لا يمكن قطعاً أن تأتي إلى الإنسان بشر إذا إلى «طي» أسلس الاستسلام!.. وحتى إذا أحاطت بك، أنت أيها الإنسان، من أحداث الحياة أحداث تلوح لك أنها الشرّ، فلا تخف! سيتجلى الخير وسينجلي عنك، ما دمت صالحاً الشرّ.. فالشرّ لا يمكن بأي حال أن يصيب المرء الصالح!

هذا هو الدين الطاوي كفلسفة عملية إليها حوّلته اللاّوتسية الفلسفية كما يطالعنا كتابها «طاو طي كنج» أو الدستور الطاوي الأخلاقي.. فإن مما أودعه لاو تسو في كتابه، هذا الذي اتخذ له عنواناً اسم «طي» ليربط بـ «طي» «طاو» فيربط «بطي» الأخلاق التي جعلها لدينه الفلسفي أساساً، يطالعنا الدين الطاوي في تحوّله إلى فلسفة قبل أن تجري بهذه الفلسفة الأيام فتلصق بها الأوشاب التي حولتها إلى دين لاهوتي يتخذ لاو تسو محوراً، ويتخذ كتابه كتاباً مقدساً... وبهذا التحوّل يطالعنا:

---

(١) "Wu-Wee".

تحوّل المذهب الصوفي اللاّوتسي إلى مذهب ديني في الدين الطاوي

بالتَّبَّع، المنقسمين أقساماً لدراسة ماهية المعرفة في حدّ ذاتها والنتائج الناتجة عنها والتي إلى تام الاتحاد تقود وإلى دراسة ما تحتويه الظواهر الطبيعية من أسرار، تطوّرت اللاّوتسية من مذهب واحد إلى مذهبين مختلفين صبغت الأول فلسفة منها نشأت الطاوية الدينية كدين.

في النصف الثاني من القرن الرابع ق.م بلغت التعاليم اللاّوتسية أوجها بـ «شوانج تسي» فبلغت سمتاً، هيأه لها ذلك الازدهار الذي بلغته إبّان القرنين من مغرب الخامس وفجر الرابع ق.م، فراحت تجترف اجترافاً الجنوب من هذه الأودية بنداء ردّده «شوانج تسي» ومن رجع صداه راحت أرجاء البلاد تُدوّي:

إن الحكيم إنما المترفّع عن جميع الآلام بإخضاعها لإرادته! بهذا النداء تحول وادي «اليانج تسي كيانج» إلى هذه الصوفية الآتية بالأمن والسكينة إلى النفس ففي مهبّ التدهور السياسي هفا إليها من هذا الوادي القلب وشغف بها شغفاً اعتنق تحت تأثيره التعاليم اللاّوتسية مذهباً إليه أتى في غمرة العواصف السياسية وطوفان الانحلال الاجتماعي بذلك الهدوء الذي شدّ منه الأواصر إلى «طي».

ولكن... المبدأ اللاّوتسي الذي يردّده «شوانج تسي» قائلاً: إن «طاو لمدركية البشرية غير قابل» لم يفهم صحيح الفهم في المسمع الجماعي ومن ثم بدأ بالعقل الجماعي انحراف الطاوية الفلسفية إلى اتجاه ارتدادي باعد بينها والأصل فالمنطق الجماعي قد جرى قائلاً بأن: اللاّ قابل للمدركية البشرية يمكن أن يدرك بواسطة «السِّحر»!

أساء تفهّم التَّبَّع وأتباع التَّبَّع المعني من المعرفة الداخلية والعزلة الصوفية التأملية والمعنى من الـ «وو وي»، أو الاستسلام التام فبدأ الاتجاه إلى معرفة «المطلق» عن طريق استعادة كل ما قد حاكه العقل البشري وليداً من صور مادي العبادات!

إلى الماضي عاد التَّبَّع فعادوا إلى «السِحْر»... وبالقائمين بأمر هذا المذهب ومتعهدي شؤونه نشأت هيئة دينية أو جماعة كهنوتية حوّلت الرحاب الفلسفي اللاّوتسي إلى نطاق ديني حصرت فيه لاو تسو في أفق ضيق من وهم الخيال فقد قام لآهوت من حول «لاو تسو» حوّل «لاو تسو» إلى نبي جاء بدين!.. تحوُّل، به يطالعنا:

«الدين الطاوي في صورته اللاّوتسية»

كالبوذية!.. أصبحت الطاوية ديناً باسم «لاو تسو» يقوم! فلسفة، بها انحرف عن الأصل للجماعات هوى وقام يتعهدّها لاهوت انتظم نفسه إلى كهنوت فهوى بها الكهنوت من قمم الفلسفة إلى هاوية الأساطير!

أجل... بلاهوت من حول لاو تسو التفّ الهامات إجلالاً تحوّلت التعاليم اللاّوتسية الفلسفية من نقاء التجرّد إلى كثافة الماديات فأصبحت ديناً يقوم بمعبد رسخت أركانه ووطّدت كما زادت أركان هذا الدين على رسوخ رسوخاً إقبال البوذية إلى هذه الأودية وحلولها فيها، فقد أقبلت البوذية وفي صورتها الفشنية حلّت وابتدأت تجتذب إليها من الصين القلب بما جاءت به من لون عاطفي جذّاب كدين قوامه عقيدة تجسدّية محورها ابن عذراء! فلصدّ تيار البوذية تكاتفت فئات اللاهوت الطاوي وراحت رؤوسه فيما بينها تحيك بدعة طلعت بها على هذه الأودية بعقيدة دينية جديدة تطالعنا في صورة:

توحيد لاو تسو بالبودها

وحّد اللاّهوت الطاوي لاو تسو بساكياموني وفي مخيلة جماعية، لا تزال عالقة بها الأسطورة التي لحقت بمؤسس أسرة شوو، قُبلت البدعة الجديدة التي برز بها لاو تسو، بتوحيده بالبودها، صورة تجسّدية لـ «طاو»!

صورة! اتقن اللاّهوت لها تصويراً وأبدع، بتضليله، لها تظليلاً فالبدعة تقتصر على قصر نسب لآو تسو على عذراء!..

وكابن عذراء برز لآو تسو كصورة تجسّدية «للطاو»... وبهذه البدعة أضحت العقيدة الدينية الطاوية تنحصر في؛ أن، تجسّد «المطلق» على السفوح الهندية بساكياموني من قبل، في هذه الأودية قد تجسّد «المطلق» بلآو تسو!

التشويه شُوهّت الفلسفة اللاّوتسية، وكفلسفة صوفية غابت في دين خُلطت فيه التعاليم الصوفية بقواعد سحرية.. دين، أضحى خليطاً متنافراً كما نراه الآن في عهدنا هذا الذي ما زال فيه الظل من هذا الدين على جانب من هذه الأودية منتشراً ولها غامراً بمعابده القائمة فيها والمؤدية فيها ألوان من صور عبادات الماضي البعيد لطفولة العقل الإنساني وحداثته، من ضحايا وقرابين فما زالت الضحايا والقرابين تقدم وترفع ولكن إلى:

لاو تسو؛ الآله الذي على الأرض قد تجسّد في صورة ابن عذراء!

غاب لاو تسو كحكيم وفي أفق المخيلة الجماعية تجلّى صورة تجسّدية للإله إله ولد على الأرض كابن عذراء.

التشويه شوهت للآو تسو فلسفة لم تحتفظ عن لاو تسو إلاّ بالقواعد الأخلاقية التي جعلها أساساً لتحقيق الاتحاد بـ «طي» ووسيلة للترفع عن الحب والبغض معاً والانصراف إلاّ عن الضروري من الأعمال لتحقيق الاتحاد التام إلى دين محوره هذه العقيدة التجسّدية وله من صبغ حداثة العقل الصبغة حوّل التبع في وادي اليانغ تسي كيانغ هذه الفلسفة الصوفية

التي وضع منها الأسس «الحكيم الأكبر» والتي للناحية الأخلاقية فيها جاء مؤكداً بعد «الحكيم الأكبر» في الجنوب الحكيم الأول في الشمال عندما امتدت يد الزمن وسجّلت المذهب الأخلاقي «الكونغ فوتسي».

استهل المذهب الأخلاقي الكونغ فوتسي تكوينه بـ «كونغ فوتسو» (٥٥١ ـ ٤٧٩ ق.م) فقد جاء تحت نعت الحكيم الأول في وادي الهونغ هو يحدد المعاني يقيد الفضيلة ويضبط الأخلاق رداً على سفسطائية عرفتها الصين في الفترة الزمنية الواقعة بينه والحكيم الأكبر...

إلى الحقيقة انطلق «كونغ فوتسو» يرشد متخذاً إلى هذا الإرشاد طريق السبر الشخصي المرتقي الماديات إلى المعنويات والمرتفع إلى المعقولات من المحسات.. هاتفاً بالإنسان: اعرف نفسك!

مما قد نسخته اليد من «الحكيم الأول» ومما قد جرت أيد بتسطير ما ألقته منه الشفاه، كتعاليم، تطالعنا هذه الفلسفة الأخلاقية... تطالعنا في:

«سي ـ شو»، الكتاب الحاوي لأربعة أجزاء أولها وأهمها «لون ـ يو» هذا الجزء الذي سطّره عن «الحكيم الأكبر» تلامذته كما عليهم لفقراته بنفسه قد أملى، وثانيها «تا ـ هيو» الجزء الحاوي لدراسات مقتضبة للمشكلات الفكرية والذي قد سطره «كونغ فوتسو» بيده... وثالثها «نشونغ ـ يونغ» الجزء الذي سطّر حفيده منه المقدمة والحاوي في «الأخلاقيات الكونغ فوتسية» الآراء السياسية...

وتطالعنا، أيضاً، هذه الفلسفة الأخلاقية في:

«وُوي ـ كنج» «الكتاب المقدّس» للصين بأسفاره الخمسة هذه الكتاب الحاوي لحكم الآباء فقد تناولته يد «الحكيم الأول» له تنسخ وعليه تعلق حريصة على تعاليم الآباء من الضياع في غمرة الفوضى الجارفة، اجترافها الجنوب، الشمال من البلاد... فنسخت من جديد هذا السجل العائد بأقدم ما يحتويه إلى القرن الثاني عشر ق.م وبأحدثه إلى القرن السادس ق.م، والذي تطالعنا فيه من السفر الأول «شو ـ كنج» ومن السفر الثاني «شي ـ كنج» الأخلاقيات الطالعة على أنغام التسابيح وهزج الأناشيد وضرب الأمثال وإلقاء الحكم بسرد القصص أسمى ألوان الفضائل!

بهاتين المجموعتين يطالعنا «كونغ فوتسو» وقد اتخذ مبدءاً: الفضيلة

ولتحقيق الفضيلة انقضت بالحكم الأول مراحل العمر حتى المرحلة التي تناول فيها نصوص «الكتاب المقدّس» بالنسخ فنسخ منه «أي ـ كنج» السِفْر الثالث المنتشرة على صفحاته التغيرات التي تصور الناحية العقلية للصين، منذ القرن الثاني عشر ق.م، القرن الذي

ترك عليه طابعه النحوي واللغوي، حتى القرن السادس ق.م، مما حدا بتسميته «كتاب التغيّر» بمعنى التطور، ففي هذا الكتاب لم يلغ الجديد القديم بل راح بالجديد للقديم يؤيد بالإضافات وبالتآويل!

أجل.. راحت اليد الكونغ فوتسية تنسخ هذه الأسفار من «الكتاب المقدس» لتنسخ، قبل نسخها السفر الخامس «شون ـ تسو»، السفر الرابع «لي ـ كي»، أهم الأسفار في هذا «الكتاب المقدّس» من حيث احتوائه على الطقوس والفرائض الدينية...

من هذين الكتابين ومما يضمان من أجزاء، وأسفار «سي ـ شو» و«ووي كنج»، يطالعنا «المذهب الكونغ فو تسي» كما يبدأ في التكوين وكما به ينتهي التكوين إلى تحوّله إلى دين...

على صفحات هاتين المجموعتين نرى «كونغ فوتسو» في الحلقة السابعة من العمر... نراه في هذه المرحلة المستوفاة من العمر التي تمرّ أمام مخيلتها مراحل للعمر لهذه المرحلة قد سبقت... نراه يستعرض صور الماضي، ومن خلال استعراضه للماضي من الصور، للحكيم الأول نستعرض فنراه... نراه يرى نفسه على الدنيا طالعاً في عهد إمبراطورية فاضت فيها وفيها استشرت الفوضى حتى غدا نظامها اللانظام وقانونها اللاقانون! عهد، تراخت فيه قبضة الحكم الطويل لأسرة «شوو»[1] فانقسمت البلاد إلى إقطاعيات فيها قد استشرى، بهذا الانقسام، الشرّ ففي كل مقاطعة يتحكّم هوى أمير فيصطدم بذلك حكم أمير بحكم أمير!

ساء الحاضر واقتمّت بمغرب شمس «شوو» الجوانب بينما آفاق البلاد ترجع من رجع الماضي أصداء تأتي إلى وادي «الهوانغ هو» من وادي «اليانغ تسي.. كيانغ» تؤكد: أن السبب إنما حيدة الخلف عن منهج السلف وانحراف خطى المحدثين عن القدامى بانصراف هذا الخلف عن الأسس التي أقامها «مؤسس شوو»!

بوحي هذا الترجيح المُنبّث في آفاق البلاد همساً داوياً جرت اللوالب الفكرية الكونغ فوتسية وانطلق من شفاه «الحكيم الأول» القول يردد رجع الصدى لصوت «الحكيم الأكبر» منادياً:

إن السبب الوحيد لهذا الشرّ المحدق بالبلاد إنما هو الحيدة عن منهج «مؤسس شوو»، هذا الأمير الذي ولد فيه الشعر الحكمة فاستطاعت قبضته السياسية القبض، بحكمة، على ناصية البلاد بحكم عبق من الماضي في أرجاء الحاضر عنه أرج السيرة!

---

(١) Chow.

إن أرجاء البلاد لعابقة بأرج سيرة «مؤسس شوو» وليس هذا الأرج الفوّاح بجديد على «الحكيم الأول» فمنذ صباه وإلى القلب الكونج فوتسي، «مؤسس أسرة شوو» حبيباً!

يقيناً، لقد أترع العمر الكونج فوتسي الحلم بإعادة البلاد إلى الحالة التي كانت عليها في عهد هذا «الأمير» فقد اتخذه «الحكيم الأول» للحكم السياسي مثالاً وضاعفت في نفسه هذه الأمنية ما كانت تختلج به خوالجه عن مثالية تصبو إلى حياة طاهرة وسيلتها النبل وغايتها الفضيلة ـ أمنية، ولّدت في الأفق الفكري «الكونج فوتسي» الاعتقاد اليقيني بأن لو سار الخلف على تقاليد السلف لما حلّت بالبلاد هذه الفوضى التي قد استشرت في سائر مرافق الحياة!... هذه هي العوامل التي عملت عملها في نفس «الحكيم الأول» والتي رأى نفسه، تحت تأثيرها، في ذلك الزمن الغارب من شبابه يتخذها مذهباً يبني له من القواعد ما قد شرعه من تشاريع ورسمه من غايات وما قد حدّده من مناهج ونادى به من تعاليم صرّح بها أنها في جدّتها غير جديدة فإنها ليست إلاّ من القديم مستمدة، وليرى نفسه تطويه الأيام وهو بإقليم بعد إقليم يطوّف منشده «أميراً» يقوم بتنفيذ هذه التعاليم التشريعية والنهج التعليمية والمبادىء الأخلاقية...

ولكن... بين كل أولئك الأمراء لم يجد «الحكيم الأول» «شونتزو» أو الأمير المنشود!

عبثاً طُويت مراحل العمر بحثاً عن «شُونتزو»...

عُمر!.. طويت أيامه في أعوام انتهت بظاهر فشل بحثاً عن «الأمير المنشود»...

عمر، في مغربه جلس «الحكيم الأول» يستعرض مراحله... وباستعراض مراحله، في هذه المرحلة من العمر، تهمهم الشفاه الكونج فوتسية:

«في الخامسة عشرة كنت أسير نحو صراط الفضيلة، وفي الثلاثين كنت أجتاز بخطى أكيدة وحازمة هذا الصراط، وفي الأربعين لم يك لقوة ما أن تحوّلني عن هذا الطريق، وفي الخمسين كنت أحيط علماً بناموس وإرادة «طاو»، في الستين اشتدّ إصغاء مسمعي لصوت السماء، وفي السبعين كانت كل رغبات قلبي وخلجات نفسي متجهة إلى عدم مخالفة أية قاعدة أخلاقية»!

«كونج فوتسو» من «لون يو».

أي النواميس هذا الناموس الذي يجعله «المذهب الكونج فوتسي» صراط الفضيلة ويجعل هذا الصراط «إرادة طاو» فيجعله الشريعة وبالتالي الدين وما هي هذه القواعد الأخلاقية التي يجعلها «الحكيم الأول» من هذا الناموس للقواعد والأركان؟

على «طاو» يستند، استناد المذهب اللاّوتسي، المذهب الكونج فوتسي وإن اختلف منه

الميل من الصوفية البحتة إلى اتجاه بحت أخلاقي... ومن ثم فمن نفس الينبوع الذي تفجّرت منه اللاّوتسية الجارية نغماً يتغنّى بوحدة الوجود جرت التعاليم الكونج فوتسية تحفر الأسس وتقيم صرح البناء الأخلاقي لحظة جال النظر الكونج فوتسي بين الكون والكائن وبعد تركّزٍ على الطبيعة تركز على الإنسان فأيقن أن:

كالكون، الكائن! كالطبيعة، الإنسان!.. على قوتين، إيجابية وسلبية، يشتمل الإنسان، وما الفروق الموجودة بين إنسان وآخر إلاّ نتيجة لتغلّب قوة فيه على قوة فيه أخرى!

إذا كانت للقوة الإيجابية الغلبة في كائن، وهذا من ترفّعت منه النفس عن الاهتياج بأحاسيس الحب والبغض معاً، أصبحت نفسه في حالة من الاعتدال يعبر عنها بحالة الانسجام و«طاو» وحين يسود الانسجام النفس يسود الحياة الخير، ويصبح صاحبها؛ حكيماً.

وإذا كانت للقوة السلبية وللقوة الإيجابية التساوي في كائن، وهذا من تكون حياته سجالاً بين نوازع الخير ونزعات الشر... ظل صاحبها في درجة الحكمة العادية الخاضعة للمؤثرات العرضة لعواصف الأهواء وهذا من يكون؛ عادياً...

أما إذا كانت القوة السلبية الغلبة غلبت نزعات الشر في كائن نوازغ الخير فيه، زلّت عن الطريق الطبيعي قدمه وهي من درجة الحكمة العادية إلى الدرجة التي تحدث السوء وتنتج الشر... وهذه هي درجة: العوام!.. من ثم يقيناً!.. يقيناً أن المسبب في تغلّب قوة على قوة في الإنسان إنما:

الإنسان نفسه! حرٌ الإنسان وله مطلق الاختيار في تغليب أية قوة فيه على الأخرى.. وهنا نرى أن من أركان هذا المذهب **حرية الاختيار** التي تؤكدها لنا:

نظرية الخير والشرّ في المذهب الكونج فوتسي

إن الثابت من المشاهدات أن المجموع من الكائنات الحية، إلا القلة، يتحرك ويعمل مقوداً بالأهواء، الأهواء لا تنتج إلا السوء فالشرّ.. أما علّة هذا السوء، علّة الشر، فالحيدة عن الانسجام بين الكون والكائن بالحيْدة عن «قانون طاو» أو قانون السماء!

كل خضوع وتسليم «لقانون السماء» آتٍ بالفضيلة الآتية بالخير الآتي بالكمال! وكل انحراف عن أو تمرّد على «قانون طاو» آتٍ بالرذيلة الآتية بالسوء الآتي بالشر الآتي بالفوضى!

الإنسان من ثم، نفسه، للخير سبب، كما أنه، نفسه، للشر سبب! كلا!... لن يجد الإنسان الشرّ إذا أصغى إلى صوت الطبيعة، فالطبيعة في ذاتها ليس فيها شر البتة لأنها: نفس «طاو»!

أيها الإنسان! راقب نفسك وأصغ إلى الصوت في داخلك تعلم أن: «إرادة الطبيعة هي الإرادة الإلهية الخالدة»!

من «تشونج يونج» كونج فوتسو

على أساس هذه العقيدة الأخلاقية بنى «كونج فوتسو» مذهباً أخلاقياً وأعلن أن: الدين إنما الانسجام بين الكون والكائن وأداء الواجب المنحصر في تنفيذ أوامر الطبيعة وتطبيق قوانينها عن طريق الإصغاء إلى صوتها تمام الإصغاء!

إن الحياة على الأرض يجب أن تكون عاكسة لنظام الكون المتمثّل في حركة الأجرام السماوية! ومن ثم انحصرت لدى «الحكيم الأول» الغاية في الإصغاء إلى صوت الطبيعة الذي يعرّفه مسجلاً: «إن معرفة الواجب هو نفس الدين».

كونج فوتسو من «تشونج يونج»

ولكن.. ما هذا «الواجب» وكيف يتسنّى للإنسان اتباع «الواجب» دائماً، وما الطريق العملي لتحقيق هذا «الواجب» المنحصر في الائتمار بصوت الطبيعة؟

وما هو «صوت الطبيعة» هذا المادي دائماً بالإذعان «للواجب»؟ وأي ضمان يكفل للإنسان الطمأنينة بأنه سائر دائماً في طريق «الواجب» وأن هذا الصوت المناديه من الداخل رادعاً عن الشر آمر بالخير هو صوت الطبيعة والحق والحقيقة؟!

إلى «كونج فوتسو» وُجّهت هذه الأسئلة وهو يعلّم: «أصغ إلى هذا الخير في طواياك!... اعمل الخير، لا طمعاً في أنك ستثاب عليه في هذه الحياة أو في حياة تالية قد تأتي وإنما اعمل الخير لأنك يجب أن تعمل الخير لأن في الخير نفسه لك الجزاء!» فأجاب تلك الإجابة التي بها يطالعنا:

القانون الأخلاقي في الداخل النافي الوحي الهابط

إن الطريق العملي لتحقيق «الواجب» هو الإذعان لصوت الطبيعة وأما ما هو «صوت الطبيعة» فإن صوت الطبيعة إنما «صوت طاو» نفسه!! أم ليس «طاو» هو الطبيعة والطبيعة هي «طاو»؟! ومن ثم فصوت الطبيعة هو صوت «طاو».

من ثم لا تخلط بين صوت الغريزة منك و«صوت طاو» فيك!... إن «طاو» قد أودع فيك الغريزة ليترك لك حرية الاختيار حتى تقوم بعملك حراً إذ أن العدالة تقتضي أن تسبق الحرية تأدية «الواجب»!

ولكن.. ألا يتغيّر هذا «الواجب» بتغيّر الأفراد والزمان والمكان؟ سؤال، عليه تأتي من هذه

الفلسفة الأخلاقية الإجابة بالنفي!.. كلا، لا يتغيّر «الواجب» بتغيّر الأفراد إنما هو في الكل واحد لأنه صوت طاو وصوت «طاو» وطاو إنما الخير، أبداً الآمر بالخير، وعمل الخير لا يتغير في زمان عن زمان! من ثم أصغ إلى الصوت الداخلي، القانون الأخلاقي في الداخل! إن «صوت طاو» هو الوحي الداخلي المنساب في داخلك، مرشداً ومنذراً وهادياً، همساً مدوياً بدرجة من الوضوح لا تخفى على أحد لأن العلم به فطري!

إن «العدالة الإلهية» المحتمة لك حرية الاختيار إنما بين الضلالة والهدى لك لم تترك فتترك ضالاً دون هدى كلا ولا بك قطعت «العدالة» صلتها ليصلك بها من الأفراد شخصية عنها يقال إن عليه قد وقع الاختيار!

كلا!.. إن «العدالة» قد عملت بما تقتضيه العدالة فحتمت أن يكون الكل سواسية ومن ثم أرسلت صوتها في الكل!

في الكل بأمر واحد أرسل «طاو» صوته فالكل لديه سواسية لأن الكل منه أجزاء ولأن الكل فيه في وحدة يمور، ولهذا لا تختلف مبادىء «طي» في كائن عن كائن ولا تتغير تشاريعه بتغير الأفراد والمكان والزمان.

هذا «الصوت» هو عنوان الصلة الدائمة بينك، أيها الإنسان، والإله وفي نفس الآن برهان اللاحاجة إلى هدى خارجي بخارجي وحي!

إن وجود هذا الصوت في الداخل نافٍ للوحي الهابط!.. نافٍ للوحي الخارجي «المتقطّع» هذا الوحي الداخلي «الدائم»! أتسأل بعد أي ضمان يطمئنك إلى أن هذا «الصوت الداخلي» هو صوت الحقيقة والحق؟

إذا أردت الاطمئنان فأدمن مراقبة نفسك حتى تتكشّف لك دخائل دواخلك... متى تكشّفت لك نفسك عن نفسك أدركت أن هذا «الصوت» في داخلك هو الحقيقة منك وفيك!

وحينذاك... متى تكشّفت لك نفسك عن نفسك تكون قد وصلت إلى تلك الدرجة التي يتمّ بها فيك للقوة الإيجابية على القوة السلبية الغلبة فيتم لك الكمال... وبالكمال تؤلف والسماء والأرض ثالوثاً تقف فيه على الأرض، أنت، رمزاً للحكمة وصورة للانسجام والوحدة!

تأمل في نفسك! إن وسيلة الإنسان لمعرفة نفسه: **التأمل في نفسه كلا!**.. لا التأمل النفساني اللاّوتسي، القاطع الصلة بالظواهر الخارجية، وإنما تأمل النفسُ النفس بمراقبتها عن طريق صلتها بالخارج الذي يستحيل عليها قطع صلتها به فلن يصل الكائن أبداً إلى مطلق الانسجام والكون إلاّ متى ضمّ إلى المعارف الداخلية المعارف الخارجية...

يا أيها الإنسان؛ «إنك حينما تدرك طبيعة الأشياء عن قرب تصل بك المعرفة إلى أوج أوجها... وحينما تصل المعرفة إلى أوجها تصبح الإرادة كاملة وتصبح دقات القلب منتظمة مع القانون... وحينما تصبح دقات القلب منتظمة متفقة مع القانون يتخلص الإنسان من الآثام وحين يتخلّص الإنسان من الآثام يشرع في توطيد دعائم النظام والانسجام في الأسرة وإذا ساد الانسجام الأسرة بلغ الحكم في المدينة درجة الكمال وإذا بلغ الحكم في آدمية درجة الكمال اسْتَمْتَعَتْ الإمبراطورية بالسلام التام!».

من «شونغ يونغ»

على فكرة وعقيدة النظام الكوني أو الانسجام العالمي لتلك الموجة الفكرية التي امتدت من الألف الأول ق.م جاء العقل الإنساني، المتمثّل في الشمال من هذه الأودية بـ «كونغ فوتسو»، يرى أن العلّة في هذه الفوضى مرجعها الحيدة عن خطى القدامى، وفي مهبّ ريح الفوضى وعواصفها ارتفع صوته ينادي بالعودة إلى النظام الأول الذي كان للإمبراطورية في عهد مؤسسي أسرة «شوو».. منادياً إليه هذا الخلف أن يكف عن عبثه ويقف من تقاليد القدامى موقف المحافظ على هذه التقاليد!

ولكن!.. تقاليد القدامى إنما معناها؛ الطقوس!.. للسبب، سأل «يِنْ ـ يِنْ»: أللطقوس حقاً ماهية؟!

وللسبب، أجاب «كونغ فوتسو»: «إنها الأحكام التي رأى القدامى فيها تمثيلاً لطريق السماء وضبطاً لقواعد الأخلاق ومن ثم فهذه الأحكام الموجودة في السماء، لها طابعها على الأرض».

من «لو ـ يون»

إن الطقوس ليست بأكثر من تعبير ظاهري للنظام السرمدي المنتظم الوجود. هذا النظام السرمدي المعروف بطاو أو طريق السماء فإن في «سفر الطقوس» قد جاء:

«إن أصول الطقوس موجودة في السماء وحركتها تصل الأرض»

من «لي ـ كي»

ومن ثم فالطقوس، بما تشتمل عليه من ضحايا وقرابين ونسك وشعائر الحج القديم، تمثّل في الكونفوشيوسية الأصول من أصول الإيمان الذي يقف أمامه الفكر يتساءل؛ أهذا التمسّك يأتي شاهداً على ضعف هذا المذهب فيما وراء الطبيعة، العنصر الأساسي الوحيد للفلسفة؟

أجل... إن التمسّك بالطقوس ضعف فلسفي في مذهب أخلاقي اتسعت الآفاق ومن الماديات إلى المجرّدات ارتقى، بيد أن إذا توسعنا في دراسة التاريخ السياسي الصيني في تلك

الفترة الزمنية التي بدأ فيها تكوّن الكونفوشيوسية، رأينا أن المجتمع الصيني ينتظمه نظام الطبقات إلى طبقتين: نبلاء، وشعب.

في جانبٍ تقف الناحية الشعبية محكومة بالقانون المدني بينما في جانبٍ تقف الناحية العليا غير خاضعة لهذا القانون فلديها موروث «قانون لي» أو قانون أدب اللياقة القانون.

وبين القانونين، القانون المدني الحاكم الشعب، والقانون التقليدي المستقي مبادئه من القانون الأخلاقي السرمدي اللامستور عن النفس والمسطور على صفحات القلب، تقف الكونفوشيوسية لترى:

أن القانون المدني قانون واهي البناء والنتيجة وظاهري العلاج بينما أن القانون المستقى من الداخل إنما هو، بما عليه مشتمل من مُثُل عليها، قانون يتأصل في النفس عن طريق التقليد حتى تصبح مكارم الأخلاق عادة في المقلد.

ومن ثم: «إذا حاولنا قيادة الشعب بواسطة القانون المدني وأردنا استتباب النظام، استطاع الشعب تأويل هذا القانون وتحويله إلى هواه دون أن يطرأ عليه من ذلك الأمر الشعور بالخجل، بيد أننا إذا قدناه بالمثل العليا وأقررنا النظام بواسطة قواعد اللياقة الموروثة أحسّ الشعب بالخجل من عمل الشرّ، وهذا الإحساس يدفعه إلى الخير».

من «لويون»

هنا تتجلى روعة المذهب الأخلاقي الكونغ فوتسي أو الكونفوشيوسي بإعطائه الطقوس معنى أخلاقياً، مستبدلاً النظر إلى الطقوس من شيء له فائدته «السحرية» إلى شيء هو الدليل على الامتثال الداخلي للمثل الأخلاقية في الداخل، فإن كلمة «لي» التي تعرف بأدب اللياقة تلعب دوراً مهماً في التعاليم الكونفوشيوسية لأنها تعني في حقيقتها لا الاستقامة الظاهرية للسلوك وإنما امتثال المرء للقانون الحاكم مجرى الطبيعة كله فإن؛ «الإنسان الكامل» هو المُمثّل لـ «طاو»، لا في مسلكه الخارجي وإنما بعقله وإرادته:

«لن يمكن لإنسان أن يكون «الإنسان الكامل» ما لم يسر وفق قانون السماء!».

«كونغ فوتسو»

الإنسان الكامل هو العارف «قانون السماء» معرفة تخضع بها ميوله لهذا القانون، فقانون السماء هو: الدين!

وهكذا نرى أن الطقوس القديمة أصبحت في يد «كونغ فوتسو» أساساً لحياة أخلاقية هي تلك التي عرفتها الصين بالفلسفة الرابطة بين الطبيعة والإنسان أو بالأحرى الرابطة الكون والكائن برباط ورابطة الانسجام.

«حين يتّخذ ابن السماء الفضيلة ركباً مقوده النغم... ويحافظ رجال الإمبراطورية على النظام تماشياً والعدالة.. ويرتبط الكائن الحي بالآخر بروح التعاطف، فإن كل شيء تحت السماء يسير في حالة طيبة تنتج تلك التي تسمى **«الوحدة الكبرى!»**.

١٧ من سفر «لي - كي»

ولكن!.. كيف يمكن للمرء أن يضطلع بهذا كله.. أو ليس هناك كلمة تفصح عن هذا الرباط الرابط الكائن بالكائن وبالتالي الكائن بالكون؟ سؤال، وجّه أيضاً إلى «الحكيم الأول» وعليه أتى منه الجواب:

«شعور الفرد بالآخر قد تكون هذه الكلمة!.. فإن هذه الكلمة تتلخّص في؛ عامل الناس بما تحب أن يعاملك به الناس».

وكيف يمكن ذلك؟

ومن شفتي «الحكيم الأول» يأتي التعليم: «بالحب!»

وما «الحب»؟

«حبُّ العالم قاطبة!.. أحبب الناس قاطبة ولا تنتظر من أحد جزاء ففي هذا الحب المستفيض من قلبك إنما لك الجزاء!

إن الحب يحمل جزاءه في نفسه!

الحبّ يطمس الأنانية والأثرة وينتج الخير والسلام وبهذا تكف المنازعات وتتلاشى الحروب..

إن قلباً قد أترعه الحب لا يستطيع أن يقترف السوء ولا أن يعمل الشر».

«كونغ فوتسو»

ولكن... كيف لنا أن ننمّي في القلب منا بذرة هذا «الحبّ»؟ إذا أردت هذا «الحبّ» فاسلك:

«الطريق الوسط» سهل «الطريق الوسط» وعلى النفس غير عسير فلا يكلفك إلا الالتزام: بالسنن الخمس.

فعلى الخير والاستقامة واللياقة والحكمة والصدق. هذه هي الفضائل المكلّف بالتزامها كل إنسان والمكوّنة السنن الخمس المؤلفة «الطريق الوسط»!

ولكن! هنا يسأل التبّع «الحكيم الأول»؛ أنفهم من هذا أنك تتفق و«الحكيم الأكبر» القائل:

«لهؤلاء الذين يحبون الخير لي أنا خيّر ولأولئك الذين لا يحبون الخير لي أنا، أيضاً، خيِّر!

وهكذا يستفيض الخير ويعم الخير العالم!».

لاوتسو

بالنفي يأتي من شفتي «الحكيم الأول» الجواب:

«أنّى يمكن لنا ذلك؟.. إننا لو كافأنا الشر بالخير فبماذا نكافىء الخير؟ كافىء الخير بالخير والشرّ بالعدالة! إن وجهاً آخر من وجوه الخير إنما العدالة!».

هذا هو المذهب الفلسفي المؤسس على الأسس العقلية والخلقية الذي تركه «كونغ فوتسو» بين أتباع سيّرت تعاليمه كتباً راحت تتدارسها وتتداولها الأجيال فعمّ الالتفات إلى هذا المذهب الأخلاقي كفلسفة قبل أن تتناول هذه الكتب عن «الحكيم الأول» يد «الحكيم الثاني» «مانج كي تسي» أو مانشيوس (٣٧٢ ـ ٢٧٩ ق.م) فيحوّل، بهذه الكتب، المذهب الكونج فوتسي التحوّل الذي يطالعنا به:

تحوّل المذهب الأخلاقي الكونج فوتسي إلى دين

«للطريق الوسط» وللسنن الخمس جاء «الحكيم الثاني» مدعماً ولكن.. من فسحة الفكر الطليق والتفكير الحر إلى مضيق التزمّت يدخل العقل بذلك المبدأ الذي وضعه «مانشيوس» في طريق حرية الفكر لحظة هوى بقلمه فقسم المجتمع إلى:

مُهْتدين وضالين من خلال مؤلفاته السبعة يطلع علينا «الحكيم الثاني» صلب الإيمان صلابة حوّلت الكونفوشيوسية من مذهب سمح إلى دين صلب.. «المهتدون» هم الطائفة المؤمنة بالكونفوشيوسية كدين حق و«الضالون» هم أولئك الذين بالكونفوشيوسية، كدين حق، لا يؤمنون.

ولكن!.. هذا التحوّل الذي جاء في الشمال من هذه الأودية إنما قد جاء كتحدٍ للجنوب ففي الجنوب، كان في نفس الآن «تشوانغ ـ تسو» ينشر اللاّوتسية ويبشّر بها معلماً أنها الدين الحق!

وإلى ناحية أخرى أيضاً جاء هذا التحدي.. جاء إلى «المدرسة النفعية» التي جاء بها، في هذا العصر الذي شملته الفوضى وساده الاضطراب، «مي تي» غداة انسلخ من زمرة أتباع «كونج فوتسو» خارجاً على الكونفوشيوسية مستنكراً أسبقية الكليات العامة على الأجزاء المحسّة الكونفوشيوسية وفي نفس الآن منكراً إنكاراً تاماً لمعرفة البصيرة اللاّوتسية، فلقد جحد «مي تي» الطبيعة الكونفوشيوسية واستنكر ما بعد الطبيعة اللاّوتسية، ووقف يجلجل في مسمع الأجيال: إن منطق الكونفوشيوسية إنما الوهم والوهن والضعف!

على «كونج فوتسو» هوى «مي تي» ينتقده قائلاً: إن كونج فوتسو يقول إن سعادة المجتمع تقوم على صرح أساسه سعادة الفرد التي لا تتحقق إلا بالانسجام الآتي به القانون الأخلاقي العام المسيطر على جميع الميول الأولى للكائن الحي دون استثناء وهو الانعطاف الفطري

للإنسان نحو الخير..

ولكن!... السعادة إنما تنحصر في توفّر المال والصحة وحسن العلائق الاجتماعية مما يجعل الانعطاف الفطري للإنسان، المنفعة الشخصية!

ومن ثم النفعية الشخصية إنما القاعدة أو بالأحرى الأساس الذي تقوم عليه سعادة المجتمع، فالنفعية الشخصية، تكفل تحقيق الرغبات وتحقق الأماني وهي الموجبة المحبة والتعاطف والتراحم، وليس ذلك الانسجام الذي تتغنّى به الكونفوشيوسية بين الكائن والبيئة إلاّ ضرورة تحتمها النفعية الشخصية لأن سوء العلائق بين الكائن والبيئة المحيطة به تجلب له من الأوصاب ما ينوء به كاهله! ومن ثم فمحبة الغير أو اللاأنانية ليست إلاّ من الواجبات الواجب الذي يجب أن يلتزمه كل فرد لأن في ذلك اتقاء من الألم الشخصي وفي نفس الآن مجلبة للسعادة الشخصية وهذه هي:

«التجارب اليومية تعلمنا أن مصلحتنا الخاصة إنما تتطلّب منّا أن نُحسن إلى غيرنا لأن هذا الغير، هذا المحسن إليه لا يلبث أن يقدِّم لنا ثمن هذا الإحسان في اليوم التالي».

١٤ من مجموعة «مي تي»

النداء تنادي «مي تي» ودعّم النداء إعلانه أنه إلى البشر قد أرسلته السماء... إلى تحقيق السعادة للبشرية تدفعه دعوى بها يضطلع ويقوم فإن عليه قد أُلقيت من السماء أوامر هداية البشر على الأرض..

أوَ يُترك الناس سُدًى دون هادٍ؟! إن هذا المجتمع الأكبر من البشر لعاجز عن تحقيق سعادته بنفسه دون مُرشد وهادٍ وهذا المرشد الهادي هو الرسول: «مي تي»!

ومن منصبه السياسي المكين في الإمبراطورية اتّخذ «مي تي» أداة أخضع بها المتردّد في قبول دعوته بأنه الرسول الذي بعثته السماء لهداية البشر.. وبالقانون الذي أصدره، يُوقِّع به أقصى العقوبات على من لا يسابق غيره بإظهار المحبة ومن لا يسارع بأداء الخير، سارعت ناحية كبرى من المجتمع الصيني، في غير حيدة عن المبادىء الأخلاقية الكونفوشية، تُعلن اعتقادها الظاهري بأن «مي تي» رسول السماء!

وفي العقل الجماعي، والعقل الجماعي بالمُغْمِضات شديد الوله، رسخت تعاليم أخلاقية تستند في مصدرها إلى السماء!

أجل..! على العقل الجماعي غابت نقطة الضعف في هذا المذهب فاتّبعه حتى كاد اسم «مي تي» يغيِّب اسم «كونغ فوتسو» وللسبب جاء «مانشيوس» يتحدّى التحدي الذي تحولت به الكونفوشية من مذهب إلى دين تحوّل في نطاقه «كونغ فوتسو» من فيلسوف إلى رسول!

و«بما نشيوس» هوت يد الدين الكونفوشيوسي بمعول الهدم مبيِّنة للتتبّع نقطة الضعف في «الميتية» التي عليهم قد خفيت وبذلك تهاوت «الميتية» حتى هوت أطلالاً درست منها الآثار حتى تلاشت تماماً باعتلاء «تسين شي هوانغ طي» عرش الإمبراطورية (٢٤٦ - ٢٠٩ ق.م)، فإن التغير السياسي إبّان هذه الفترة الزمنية من تاريخ التفكير الديني قد برز بهذا الآسيوي الذي جاء قاضياً على منشأ التدهور السياسي والانحلال الاجتماعي، قد قضى على الفوضى التي ظلّت ترزح تحت نيرها الصين منذ الأجيال الأول حتى عهده... فماتت «الميتية».

ولكن! من عجيب المفارقات أن هذه اليد السياسية التي هوت على المدرسة النفعية محاولة بحقها محق الرذيلة، هي نفسها التي نراها قد استجمعت قواها وهوت على الكونفوشيوسية هُوِّياً أحال المدّ الكونفوشيوسي جذراً! ولكن... هذه اليد التي جاءت بحركة تجديدية استخفّت فيها بالحدود، الحائلة باسم العدالة والتقاليد عن العدالة والالتزام بالتقاليد، فهدمت الحدود وقلبت قديماً الأوضاع لبناء مجتمع جديد إنما قد سبّبت في نفس الآن:

الجزر الكونفوشيوسي والمد اللاّوتسي

استفزّت هذه اليد التي جاءت بحركة تجديدية غضبة الكونفوشيوسية، المؤازرة لحكمها في أول الأمر، فالكونفوشيوسية إنما مذهب التقاليد والعادات بينما هذا الحكم يعلن التحرّر من التقاليد والعادات... ومن الطبيعي كان أن يستفز هذا التحرّر الكونفوشيوسية ذلك الاستفزاز الذي حاك ثورة اندلعت ثائرتها لهباً تحيط بالعرش وتعلن أن حكمه إنما الطغيان!... ومن الطبيعي كان أن يجاوبها العرش بالسخط!... وألهب السخط السخط ودفع النضال بالفريقين إلى سافر العداء فطالبت الكونفوشيوسية بالحدّ من سلطان العرش، وبدوره طالب العرش بالحد من سلطان الكونفوشيوسية.. وللعرش كانت الغلبة فكانت نتيجة هذا النضال أن أعلن العرش بأن الكونفوشيوسية، بتقاليدها التقليدية، تقف حجر عثرة في سبيل الرقي والتقدّم والتطوّر الذي إليه يسعى الإمبراطور، من ثم كان الأمر الإمبراطوري بقتل الثائرين وتحريم تعليم «التعاليم الكونفوشيوسية» والتخلّص منها بإحراق كتبها!

وأحرقت، سنة ٣١٢ ق.م، كتب «الحكيم الأول».. بل وفي سعير حُمى هذه البغضاء تناول الإحراق ذلك الكتاب الذي تحمله الكونفوشيوسية وعليه تستند، «ووي كنج»، الكتاب المقدّس!

ولكن!... كان هناك «الحفّاظ» وعلى صفحة أذهانهم كانت مسجلة تلك النصوص المقدّسة ونصوص تلك الحِكَم منقوشة تحتفظ بها الأيام وتدخرها لغدٍ هو هذا الحاضر الذي تراجع فيه المدّ الكونفوشيوسي حتى استحال جذراً!

أجل... تراجع المدّ الكونفوشيوسي فاستحال جذراً والجذر أبداً يترك فراغاً! والفراغ إذا أصاب النفس حوّلها ناحية ذلك الشيء الذي لا يملأ سواه الفراغ النفسيّ! وبهذا التحوّل تحوّل الوجدان من الشمال ناحية الجنوب ينادي إليه اللاّوتسية التي كان قد أبعدها، عن غمرة هذه الأحداث، نسك به اشتغلت فشغلها عما يُترع الحياة السياسية من متغيّر ألوان!

وسرعان ما امتد المدّ الصوفي اللاّوتسي الغامر الجنوب يزحف إلى الشمال الزحف الحثيث الذي استحال به الجذر اللاّوتسي مداً! ورفّت على الشمال روح «الحكيم الأكبر» تنفث فيه روح السلام... ولكن سرعان ما عن الشمال تراجع المدّ الممتد من الجنوب فسرعان ما هدأت الثورة!

للثورة أهدأ مرور الزمن فقد طوت راحته «تسين شي هوانغ طي» ونشرت «ليوبانغ» مؤسس «الهان» أو الأسرة التي ظلّ منها الظّل مُظلاً هذه الأودية نيّف وأربعة قرون من الزمن «٢١٦ ق.م ـ ٣١٩ ب.م» والتي ما استهلّت حكمها حتى عاد النور الكونفوشيوسي من جديد يشعُّ على الشمال!

أجل... للحقيقة نور قد يخفت وقد يخفت طويلاً بيد أنه مهما طال وامتد عليه المدى فأبداً لا يخبو... لقد أُحرقت كتب الكونفوشيوسية ولكن كان اللهب المتصاعد من هذا الإحراق الجذوة التي ألقيت في القلب فملأت الأرجاء من هذا القلب ضوءاً اشتدّ توهجه ببدء الحكم الجديد!

وإلى الظهور عادت الكونفوشيوسية بانتهاز الفرصة السانحة التي أتاحت للرؤوس من أتباعها احتلال المناصب المهمة في الإمبراطورية، يُثبِّت أقدامهم فيها ذلك الفريق الآخر الذي امتدّت منه الأيدي تسطِّر ما قد كانت احتفظت به ذاكرة «الحفاظ» عاكفة على نسخ «التعاليم» و«النصوص» نسخاً أصيلاً.. وما تناول الشمال هذه الصورة القشيبة من روعة القديم حتى ارتسمت في أرجاء الذاكرة صورة «الحكيم الأول» في إطار من القدسية ألهب الوجدان بجنون الذكرى فهبّ الشمال يلقي بنفسه في أحضان الكونفوشيوسية إلقاءً به استحال الجذر الكونفوشيوسي مداً! مداً أعاد عن الشمال المدّ اللاّوتسي جذراً انشطرت بسببه اللاّوتسية إلى شطرين يقف فيها الشطر الفلسفي بعيداً عن الشطر الديني الذي شوّه جمال المذهب وعكر صفاء صوفيته...

وامتدّت الكونفوشيوسية تنشر ظلّها على الحكم السياسي الجديد وتقبض بقبضتها على العرش مُرْضِخة «ليوبانغ» لحكمها ليطالعنا:

الجزر اللاأوتسي والمدّ الكونفوشيوسي

تقديس «كونغ فوتسو» وتحوله من معلم إلى رسول وطلوع الكونفوشيوسية ديناً رسمياً

في غضون هذه الفترة السياسية من تاريخ الصين التي امتدّت فيها القبضة الكونفوشيوسية بأيدي التبّع تقبض على الحكم من فوق العرش ولصالحها تدير دفة الحكم السياسي للبلاد قُدّس «كونغ فوتسو» وارتفع من مرتبة معلِّم إلى مرتبة رسول مذهبه إنما دين.. دين، ما لبث، بهذه السيادة التي أصبحت للكونفوشيوسيين، أن غدا ديناً للبلاد رسمياً فالإمبراطور الجديد يُعيد تعليم «التعاليم الكونفوشيوسية»، ولا يعيدها فحسب ويجعلها جبرية وإنما... بنفسه يذهب إلى ذلك الضريح القائم في بكين وإلى... إلى ذلك الثاوي الحَزِنْ في هذا الضريح لأنه لم يجد «شونتزو» أو الأمير المنشود، يطلق البخور ويرفع الضحايا بينما تتمتم شفتاه:

«عمّن كنت تبحث؟... فأنت!.. أنت... الأمير المنشود! أنت المقدّس القدسي؛ كونغ فوتسو!».

منذ هذه اللحظة التي اتّخذ الشمال في هذه الأودية ضريح «كونغ فوتسو» مُصلًّى واعتبر الثاوي فيه مقدساً، ملأ «كونغ فوتسو» الوجدان الصيني وجداً واسترسلت الشفاه عبر الأجيال في ترديد ترسل له من التناجي هذه الصيغة: «عظيم أنت!

أنت الكامل الفضيلة.. الكامل المذهب الكامل بين العالمين!... قط ليس لك بين الناس مثيل.. عظيم أنت وعظيمة تقوم سننك وقوانينك المتحدّرة من جيل إلى جيل تكرّمك الملوك وبإجلال نقترب منك تملؤنا الروعة بين رنين الأجراس ودفيف الدفوف!».

منذ تلك اللحظة التي ارتفع فيها «كونغ فوتسو» وتحول إلى رسول، أضحى ضريحه مزاراً وأمسى على المؤمن فريضة واجبة زيارته إذا ما جاش بالمؤمن الشوق وراح يؤدي من شعائر العبادة تلك الشعيرة، التي أداها نفس «الرسول»، وانطلق إلى «طي شان» يؤدي فريضة الحج!

أصبحت زيارة الضريح الكونفوشيوسي فريضة واجبة على المؤمنين وجزءاً من شعائر الحج، كما أضحت ذكرى مولد صاحبه عيداً رسمياً تحتفل به البلاد، فإن بمولده[1] تحتفل الصين من كل عام حتى الآن وبينما تقوم الحفلة الكبرى إلى جانب ضريحه بذكر هذا المولد الكريم تُقام الاحتفالات في المعابد القائمة باسمه في أنحاء الصين التي لا تخلو منها

(١) الموافق الثامن والعشرون من شهر سبتمبر.

قرية أو مدينة، متذاكرة ذكراه رسولاً سننه تتلى وتحفظ غيابياً للنشء في المدارس كمحفوظات مدرسية تدخرها للغد منهم الذاكرة...

ولكن!.. لئن تحوّل المذهب الكونفوشيوسي إلى دين وتحوّل كونغ فوتسو إلى رسول عنه تتحدّث السِير فليس إلاّ لتنتشر، بهذه السيرة، نقيّة صفحة رسالة هذا «الرسول» في التاريخ الديني تُحدّث بها رسالة لم تدع أنها من الخارج آتية ومن السماء هابطة وإنما من منبع الداخل قد تفجّرت ومن ينبوع النفس انبعثت شريعتها المنحصرة في الأخلاق وتأدية «الواجب».

أجل... البزوغ بزغ المذهب الكونغ فوتسي ديناً رسمياً في مشرق الإمبراطورية «الهانية» وبه راحت الأيام تسير والشمس منه منيرة الأرجاء الصينية حتى مغرب هذه الإمبراطورية ليميل به مغربها عن سمت إلى موقف وقف فيه بجانب اللاّوتسية يشهد معها:

دخول الدين البوذي الصين

هذه هي الفترة الزمنية التي رأينا فيها امتداد البوذية إلى خارج أرضها[١] والتي سار فيها الزمن طاوياً القرن الأول ق.م إلى القرن الأول ب.م ناشراً على هذه الأودية البوذية في صورتها الفشنية لينساب من البلاط الإمبراطوري، سنة ٦٥ ب.م، وعلى العرش «منج طي» الإعلان الذي راح في أرجاء الصين دوياً:

إن الإمبراطور قد تلقى، في الرؤية، أمراً بإدخال الدين البوذي الصين!

بالمبشّرين من حاملي كتبها دخلت البوذية، بمذهبها المهاياني، هذه الأودية، وبما نسجه هذا المذهب حول «البودها» من أساطير تنبّهت نواحٍ في الصين فاستشعرت أن للكونفوشيوسية بقوانينها الأخلاقية قيوداً، فالكونفوشيوسيّة دين يتطلّب الكمال الخلقي ويجعله فريضة محتومة على التُبّع، والتُبّع إنما بشر معرّضون للخطيئة بل ومرتكبوها بينما البوذية فدين، رغم تطلبه الكمال الخلقي، يقف فيه «البودها»، من الخطيئة، **المخلّص!**

بهذه العقيدة عقيدة الخطيئة والخلاص دخلت البوذية الصين لتتفرّع من بعد إلى طرائق ليس المجال هنا بصددها لابتعاد هذه الفروع عن الأصل ووقوفها فيه موقف الإضافيات، ومن ثم فلا يهمنا إلاّ البوذية «المهايانية» التي رفّت على هذه الأودية بعقيدتها في المخلّص والخلاص.

على اللّب الصيني استولى هذا اللون الجذّاب الذي ألقته «المهايانية» على «البودها» والذي تراءى تحته «البودها» على هذه الأودية، ترائيه على أعلى تلك السفوح، ألوهة مطلقة تجسّدت على الأرض بشراً لخلاص الإنسان!

---

(١) **«الدين في الهند»** من هذا الكتاب.

وحتماً كان أن يهفو القلب إلى «البودها» الإله الذي على الأرض قد ولد في صورة ابن عذراء وتجسّد لخلاص الإنسان من الخطيئة والعذاب، وحتماً كان أن تتغلغل محبّته من الشغاف إلى السويداء وأن يرتسم بين الضلوع صورة حفّت بها القدسية من كل جانب!

هذه هي الصورة العاطفية التي أحلّت البوذية في القلب الصيني ليدعمها في هذا القلب عقيدة للبوذية أساسية هي أبداً محور التفكير البشري ومصدر تساؤله والتي عن إجابة صريحة عنها أشاحت في تجنّب الكونفوشيوسية فتركت الفكر حائراً معلقاً لا يدري مقصورة الحياة على هذه الدنيا أم أن هناك «فيما بعد»؟ ومن ثم فإذا جاءت البوذية تؤكد «خلود النفس» فليس إلا ليخلد الخلد إليها إخلاداً كدين يجيء إليه بالطمأنينة في يومه وغده «وفيما بعد»!

ثم، هذه الألوان الجديدة من صور العبادة البعيدة عن إراقة دماء الضحايا والمجافية لدم يُنضح على جدران المعابد إلى تقدمات من زهر وشمع زهر يُنثر وشمع يُضاء وإلى من؟... إلى الإله المتجسّد على الأرض لخلاص البشر.. «ابن العذراء»!

كل هذه ألوان جذابة للمخيلة البشرية، بسببها اجتذبت إليها البوذية الجانب الأكبر من المجتمع الصيني واحتلت في أرجائه مكاناً حتى أصبحت والأيام قد سارت من القرن الأول إلى القرن الرابع ب.م، وهي الدين الدخيل، ديناً يقف بين الديانتين الوطنيتين، لا فحسب الأقوى وإنما حيثما امتدّ تراجع المدّ الكونفوشيوسي جذراً.

ولكن!... أمام التراجع الكونفوشيوسي وامتداد الدين الدخيل هبّ اللاّهوت اللاّوتسي يرى أن السانحة قد سنحت لإعلاء كلمته لنراه يقوم بتلك المحاولة التي رمي بها في نفس الآن إلى إفناء البوذية ذلك الإفناء الذي يطالعنا من جرائه:

مزج اللاّوتسية بالبوذية

في الفِكَر البوذية وجدت اللاّوتسية وسيلة للمزج والإدماج، فالمطلق «الأتمان» إنما هو نفس المطلق «طاو» والبودها ليس إلا صورة مماثلة للحكيم الأكبر: لآو تسو...

ما التعاليم البوذية إلاّ ضرب من القدسية الطاوية والمُثل اللاّوتسية فالبوذية كاللاّوتسية تُعلّم الاستسلام التام وتعلّم أن الحياة على الأرض لا تخرج عن كونها معبراً على نهرٍ قدِّرت لإنماء الوعي... ومن ثم فالديانتان تتلاقيان في وحدة يبرز فيها كل منهما؛ لآو تسو والبودها، للآخر صورة!

أجل.. صورتان، لآو تسو والبودها، لحقيقة واحدة فإن؛ البودها، الصورة التجسّدية للمطلق، لم يكن في إحدى تناسخاته إلاّ: لاو تسو!

هناك! هناك على تلك السفوح، بعد هذه الأودية وبعد اعتزاله الحياة الصينية هنا، عاد لاو تسو بالتناسخ إلى التجسُّد مستأنفاً رسالته المنحصرة في الخلاص، تحت صفة البودها..

الصورتان، «للمطلق» صورة!.. صورة، تقف هناك كالبودها، وتقف.. هنا كلآو تسو.. وكلاهما قد ولد على أطهر صورة فكلاهما:

ابن عذراء! وسطع من جديد في الآفاق الصينية لاو تسو ولكن! تحت هذه الصورة الجديدة، كصورة تجسّدية للمطلق.

تأثرت اللاوتسية بالبوذية في عقيدتها الجوهرية تأثرها ببعض مبادئها الأساسية فأقرّت للثواب والعقاب البوذي عقيدة لم يكن لها قبل اتصالها بالبوذية في اللاّوتسية أي أثر فدخلت المعتقدات البوذية الدين الطاوي مما عاد بالجانح من اللاّوتسيين إلى اللاّوتسية فالإيمان الدالف من هذا المزج قد قوّى الطاوية التي تحوّل في نطاقها «لآو تسو» إلى صورة جديدة تتنافر تنافراً كلياً وصورته القديمة. بينما راحت البوذية، كأثر لهذا المزج، تنتشر وتتغير ومن أثر هذا التغير؛ البوذية الصينية «شان» والبوذية اليابانية «زن»...

وبالأيام راحت الأيام تسير وعلى هذه الأودية قد رفّت اللاّوتسية إلى جانب البوذية بينما قد دفعت الكونفوشيوسية إلى المؤخرة حتى العهد الذي بدأ فيه حكم أسرة «يانج» فإن خلال هذا العهد، الذي حكمت فيه البلاد أسرة كونفوشيوسية الدين، انتعشت الكونفوشيوسية وعادت «الدين الحق» الذي يعترف به الشمال...

ولكن! لئن وقف «كونغ فوتسو» بعيداً عن المرتبة التي تغلغل بها «لآو تسو» إلى القلب كصورة تجسّدية للمطلق فإن اليد الكونفوشيوسية إنما في تقليدٍ للآوتسية في الإدماج راحت تقتفي منها الأثر اقتفاء تطالعنا به:

محاولة مزج الكونفوشيوسية بالبوذية

على صفحات التاريخ الديني تطالعنا هذه المحاولة جلية وجدية ولكن لنراها محاولة مجدبة انتهت إلى الإخفاق... فإن البوذية وإن دخلت، بما تطوّر في داخلها من المعتقدات والمستحدثات كالثواب والعقاب في جنة ونار، الكونفوشيوسية فليس إلا ليتصادما لدى العقيدة الجوهرية في البوذية، عقيدة تجسّد المطلق، ومن ثم فتنافرا، ولذا فمحاولة المزج لم تتجاوز الشكليات والتوفيق بينهما لم يدم طويلاً بل لم يدم طويلاً فحسب وإنما أخفق وانتهى بنزاع تجاوز الكونفوشيوسية إلى اللاّوتسية، وليبدأ التطاحن بين الدينين الوطنيين والدين الدخيل، التطاحن الذي سبّب:

ائتلاف اللاّوتسية والكونفوشيوسية ضد البوذية

بين هذه الأديان الثلاثة ظلّ التطاحن سجالاً مسرحه هذه الأودية حتى سنة ٨٤٥ ب.م حتى هذه الفترة الزمنية التي، فجأة، يطالعنا خلالها ائتلاف الكونفوشيوسية واللاّوتسية وتضافرهما معاً ضد البوذية لأن هذا الدين الدخيل قد تبعه دين دخيل آخر يحمل اسم «المسيحية» تقوم منه القوائم أيضاً على أسس فكرة التجسّد الإلهي على الأرض بشراً في صورة مخلِّص وابن عذراء!

إلى هذا الدين الدخيل الحامل اسم المسيحية اتّجه الانتباه اللاهوتي في نطاقي الطاوية اللاّوتسية والكونفوشيوسية ليتجه هذا الانتباه في إرهاص إلى أن هذا الدين الذي بدأ تياره بمبشريه يجري متوغِّلاً يتغلغل إلى القلب الصيني إنما شبيه كل الشبه بالبوذية حتى ليمكن القول بأنه صورة جديدة للبوذية ومن ثم فهو دين نذير أيضاً بالخطر على الدينين الوطنيين لبلوغه الشغاف من القلب الصيني!

وتكاتف للدينين الوطنيين كهنوت أثار الثائرة الجماعية ضد الدخيلين فثارت هذه الثائرة التي إذا ما أثيرت فثارت انطلقت محمومة تقذف بالحمم غير لاوية على شيء! ووقعت تلك الواقعة التي انقضّ بها أصحاب الدينين الوطنيين على معتنقي الديانتين الدخيلتين تقتيلاً كانت به تلك المذبحة التي تركت اللاّوتسية والكونفوشيوسية تتنبهان إلى النزاع القديم بينهما فما خلا لهما الجو إلاّ واستحال التوافق بينهما إلى نزاع... نزاع استمر حتى مشرق عهد «سونغ»، (٩٦٠ ـ ١٢٧٩ ب.م)، العهد الذي استعادت في مشرقه البوذية مكانتها ففي حمى هذا النزاع المستعر بين الدينين نشطت البوذية واستعادت في ناحية قوية من القلب الصيني مكانتها التي لم تفقدها حتى هذا العصر وفي هذا القلب استقرّت، جانب الطاوية والكونفوشيوسية، الاستقرار الذي بسببه يمتد:

«المدّ الديني الثلاثي حتى العصر الحاضر»

بمشرق عهد «سونغ» امتد المد الديني الثلاثي حتى العصر الحاضر، ففي مشرق عهد «سونغ» دوّى التنادي بطلب الحد من هذا النزاع بين الدينين الوطنيين، وللحدّ من هذا النزاع تنادت الصين بإحياء الأخلاق!

وبهذا التنادي عادت تعاليم «كونغ فوتسو» في الآفاق تُدَوي بأن، من كانت للقوة الإيجابية فيه الغلبة، كان حكيماً... والحكمة لن تتوفّر لامرىء إلاّ حينما تكون النفس بأحاسيس العاطفة غير مهتاجة فحين تكون النفس حالتها الحالة فهي في حالة «تشونغ» أو الاعتدال وحينما تبلغ النفس هذه الحالة وتصبح هذه الحالة طبيعة لها تصبح هذه النفس في

حالة الاستسلام لـ «طاو» وهذه هي حالة الانسجام و«طاو»!

وبرجع الصدى راحت الآفاق الصينية تُرجِّع «التعاليم الكونغ فوتسية» دوياً يتردّد ويردّد:

إن الاعتدال إنما الوسيلة إلى الانسجام و«طاو» ومن ثم، والانسجام هو الغاية وهو القانون العام، فإنه حينما تصبح صفة النفس الاعتدال فالانسجام، يسود النظام الفرد فالأسرة فنظام الدولة الداخلي فالاستقلال الخارجي فالعالم قاطبة، فإن الأخلاق أساس الانسجام في الطبيعة، وهذا هو ما يتلخّص في تأدية «الواجب»، ومن ثم فتأدية «الواجب» هو صحيح الدين! بالتنادي دوّت آفاق العصر الجديد فبعث التنادي الكونغ فوتسية وجديدة نشرها من طوايا القِدَم القديم... أعلنت أنفاس الزمن انتصار الكونغ فوتسية وامتدت يده تسجّل في صفحة للتاريخ الديني منتشرة حتى الآن:

سيادة الكونغ فوتسية وقيامها ديناً رسمياً للصين

للحركة العقلية عن طريق الناحية الخلقية تزعمت الكونغ فوتسية هذا التزعم الذي لم يترك إلا الضئيل من المكان للاوتسية وللبوذية والذي أضحت به، منذ ذلك العهد حتى هذا العهد، لهذه الأودية الدين الرسمي!

كدين حق وكدين رسمي، رسخت الكونغ فوتسية منذ وطّدت في عهد «سونغ» منها الأركان... أركان وطدت بكهنوت، من حول المعابد القائمة باسم «كونغ فوتسو» قام، انتظم نفسه إلى طبقات وراح يُضفي على مظهره الخارجي صفة العصمة ويمسح نفسه بمسحة القدسية ويتخذ «التقاليد» في يده قيوداً يقيّد بها «المؤمنون» مما أصبح به هذا الدين لا يحمل إلا من «كونغ فوتسو» الاسم وإلاّ من تعاليمه الأساسية ظاهري التعاليم.

أجل... لقد انحرف هذا الدين عن أصله والأيام تسير وتديل دورتها دولة «سونغ» ١٢٩٥ ب.م باحتلال المغول الإسلامية الصين ودخول الإسلام الصين كدين، أيضاً، على هذه الأودية دخيل به سارت أيضاً في هذه الأودية الأيام حتى اليوم من عصرنا هذا الذي نرى فيه الإسلام قد رسخ في ناحية من المجتمع الصيني، غير ضئيلة العدد، رسوخاً مذهلاً وعجيباً! يملأ قلبها منه فيض الإيمان وتنطلق من محاجرها حار وسخين الأدمع حنيناً إذا ما تذاكرت ذكرى صاحب هذا الدين وإذا ما قرأت كتابه «المقدس» ولو لم يفهم اللغة منه ولا منه وفيه المعنى إلاّ من بينها العدد الضئيل!

أجل... على جوانب من المجتمع الصيني يمتد ظلّ الدين الإسلامي امتداد الظل المسيحي على جوانب أخرى من هذا المجتمع، ولكنهما لا يمثلان إلا تيارين في خضم الدين الرسمي

للصين الذي يمتد ظلّه طاوياً أضفة الهوانغ هو واليانغ تسي كيانغ بينما يختلط في غير خلط وفي امتزاج عجيب الظل منه بظل الطاوية اللآوتسية والبوذية المهايانية الساكنتين في استقرار في أعماق الوجدان الصيني...

ولكن!.. عن خضم هذه الأديان، الوطنية والدخيلة، يتحوّل العقل الإنساني في صين الآن، عهد الأبحاث العلمية والمذاهب الفكرية حيث اشتجرت العقول وتولّدت الشكوك وثارت أعاصير الريب فاكتسحت أصولاً صحبت العقل في مراحل حياته التطورية حتى الآن وكان يظنّ أن نصيبها الرسوخ، تحوُّلاً هو فيه في نفس الآن لهذا الخضم الهائل للمذاهب والفكر والمزدحم الرائع للعلوم والفلسفات يستعرض يريد أن يلقي عن نفسه أغلال التقليد وأن يستجلي الحقائق بنفسه فيرى:

أن على هذه الأودية تنتشر أديان تتحكم في كل من ولد في نطاقها تحكماً لا أقل من أن يوصف بالغرابة حتى ليمكن القول بأن في نفسه قد عقدت الأجيال عقيدة الإيمان الوراثي فكل إنما يتوارث الدين تقليداً ودونما سبر لصحة معتقده ودونما بحث عقلي حر ووزن دقيق لأصول الدين الذي يجد نفسه في نطاقه يعيش فهو يذود عنه وعنه يدافع وتتملكه الحمية والعصبية الدينية أمام كل بحث يتناول أصول دينه وتجن به جنون العواطف تجاه كل سبر سليم ومحصى للأساس القائم عليه صرح ما يدين به من دين ففي طواياه قد عقد الآباء عقدة نفسية تأبى اليقين إلا بأن الدين الحق، بين سائر الأديان، هو ما قد دان الآباء به من دين ولهذا تتحكم في عقلية الجماعات أديان متنافرة وكل في نطاقها بمعتقداته متمسّك ومستمسك، وكل لديه دينه الدين الحق...

أديان! أديان، يروح العقل الإنساني، في رحاب تفكيره الحر، لها مستعرضاً... ولكن إذ يروح العقل الآن لها مستعرضاً فليس إلا ليقف في توقّف يتأمل الكونفوشيوسية، الدين الرسمي وليس إلاّ، ليسترعيه أن هذا الدين الرسمي المتمثّل بالطبقة العليا إنما يقف بتقاليده ومادي عباداته عقبة تحول دونه وحر التفكير!. ومن ثم فتحوّل العقل إلى هذا الدين محاولاً محو سلطانه العقيدي والسياسي من النفس والعودة به إلى الحالة التي يقف فيها في مكانته الطبيعية التي كانت له قديماً، ولكن ليرى العقل أنه بمحاولته محو هذا السلطان العقيدي من النفس إنما يتحوّل نفسه نحو أفق جديد!..

أجل... نحو أفق جديد يتحوّل الفكر الحر في حين الآن...

أفق جديد عن شفافية ينحسر ونحوه لا يجد العقل الإنساني نفسه منجذباً وإليه متطلعاً إلاّ لتطالعه في أرجاء هذا الأفق صورة لاو تسو ففي هذا الأفق الجديد، الذي إليه يتطلّع

العقل الإنساني في هذه الأودية، تطالعه اللاوتسية!... اللاوتسية؛ على صورتها القديمة، في هذا الأفق الجديد منتشرة، من ثناياها يشع «طاو»!

كلا!.. لا «طاو» الطاوية اللاوتسية التي عن التبع حوّلها التَّبّع إلى دين وإنما «طاو» لاو تسو! «المطلق» الذي همست باسمه في واد «هان كو» الشفاه اللاّوتسية همساً ينساب الآن دوياً يسجّل:

ترجيع الفكر اللاّوتسية جديدة في الآفاق الفكرية

بصورتها الأصيلة تنتشر اللاّوتسية في آفاق التفكير الحر للعقل الإنساني اليوم في هذه الأودية، يصمّمها إطار من التعقّلات صائب وسليم كما إليه تُقبل بعبادتها التجرّدية «للمجرّد»، مجرّدة من الطقوس المادية ومادي العبادات، فلسفة محض نفسية تعانق منه النفس وإليها تجتذب منه الفكر صيغة العبادة فيها التي تتلخص في عبادة «النفس الكونية» عن طريق:

إصفاء النفس إلى هذا الأفق يشتدّ من النفس الإرهاص والإصغاء فصدى الصوت الآتي من وادي «هان كو» إنما بالعقل المتحرّر يحيط وبه يهتف:

كفاك!.. كفاك لدين بعد دين استعراضاً ولدين بعد دين محصاً ومن الحق لدين بعد دين تجريداً وكفاك حيرة بين كل هذه الأديان بحثاً عن «الدين الحق»... كفاك حيرة وأنت ترى نفسك أنك مهما لدين بعد دين من الحق جرّدت لا يمكنك التخلّي عن حاسة في طواياك مستقرة تندلع منها أشواق صارخات نحو «المجهول» تتحدّى بها إلا وصل صلتها بهذا «المجهول»!

كفاك حيرة وبحثاً عن «الدين الحق» فإن هذه الحاسة المستقرة في داخلك والمستعرة الحشا وحشة إلى ربط صلتها أبداً «بالمجهول» إنما مستقر فيها الدين الحق الذي أنت عنه تبحث! هذه الحاسة إنما في حقيقتها هي نفس هذا الشيء الذي طال عنه في الخارج بحثك بحثاً لأنها هي نفسها الصلة بينك أنت، كنفس من النفس الكونية، وبين «النفس الكونية»... هذه الحاسة المستقرة في الداخل إنما البرهان القاطع على أن الدين الحق إنما هو نفس هذه الحاسة المنبجسة بين الضلوع والمتفجرة بين الجوانب، فإن وجودها يقوم برهاناً على صلتك الدائمة «بالمجهول»! «المجهول» المرسل صوته من خلالها همساً يدوي بين جانبيك مرشداً ومنذراً وهادياً يناديك باعتناق الاستسلام له ديناً تكاليفه تنحصر في إنماء بذرة الخير في قلبك حتى تنمو فروعاً تربط بين الكائنات طراً برباط الإخاء العالمي وفي ظلالها يتفيأ العالم قاطبة السلام!

من ثم فاعلم؛ أن الدين الحق إنما؛ الإنصات إلى الصوت الداخلي المدوي بالحب؛

والإخاء العالمي! والسلام! فإن:

«الإنسان الكامل هو الذي قد فرغ قلبه من الكراهية وأُفرغ فيه الحب!».

من «طاو طي كنج»

«إن الإنسان الكامل هو الذي لديه قد انحصر الهدف في نشر السلام!».

من «طاو طي كنج»

هذا هو الدين الحق، دين طاو، المتلخص في كلمة واحدة هي أُس القانون الأخلاقي المسطّر بين الجوانح: الواجب!

إلى هذه الفلسفة أو هذا الدين العقلي، الذي كان قد نشره على هذه الأودية العقل الإنساني في تمثّله بلاو تسو فنشر منه «طاو» في صورة «الواجب» يلتفت العقل المحدث في صين الآن، وإليه، على هدي الفلسفات الحديثة، يتنبّه إلى هذه الفلسفة الصوفية التي يفوح من عطر الماضي في أرجاء الحاضر منها الأرج وتتضوع منها الأنفاس عاطرة بأنفاس الحب الإلهي وفاغمة تعبق في هذه الأودية المبهمة الآفاق تعلن في غير إبهام:

إن الدين الحق إنما؛ الدين الواصل بين «المجرّد» والمجرّد عن طريق اللامجردات والموحِّد النفس الفردية بالنفس الكونية عن طريق إصفاء النفس والصافية به الروح صفاءً تشف به شفافية حتى ليشع منها محتجب نور الروح الكونية التي فيها الكون، بكليته، موراً يمور...

دين؛ أسّه الحب وقوائمه السلام وأركانه الإخاء العالمي و«الواجب» فيه الشريعة والشريعة فيه الواجب!

الفصل الثالث:

الدين في إيران

الدين على هذه الهضبة، الساكنة في أحضان طبيعة طبيعتها التضاد، رواية ترويها للزمن أنفاس تحدُّث؛ أن على هذه الهضبة قد بدأت رواية الدين غداة انتشر من البشرية على أرضها الظلّ، وفي أرجائها جال منها العقل فتراءت له رياحها أرواح شر ونسائمها أنسام خير فقسّم المنشأ إلى منشئين!

وبهذه العقيدة سار الزمن على هذه الهضبة وعليها من البشرية تنساب الفروع التي نشرتها منه اليد والتاريخ ليلاً لنعرفها أمة، بالسومرية والدرافيدية شبيهة، تحت اسم؛ الطاجقيين.

وبالطاجقيين تطالعنا على هذه الهضبة عقائد ليل التاريخ في:

الدين في العهد الطاجقي

التفكير الديني الطاجقي بالدرافيدي والسومري شبيه بل ومماثل فلديه، كما كان لديهما، كل القوى الطبيعية أرباب وعلى هذه الصورة عبدت مظاهر وظواهر الطبيعة على هذه الهضبة كمتعدد أرباب وكان لكل رب معدد اختصاص، بيد أن لتستدير كلها، استدارة الأرباب الدارفيدية والسومرية، حول محور واحد... محور، يحوطه الغموض ويكتنفه غيم الإبهام وعن المخيلة الفتية يبتعد كلما حاولت هذه المخيلة منه الاقتراب فمبهمة ما زالت في أفق المخيلة الفِجة تحوّم فكرة الرب الأعلى أو الإله!

من هذه الفكرة، فكرة الإله، لا يقترب الفِكر إلا لتغيب عنه في حشد هذه الأرباب المتجلية في مظاهر وظواهر الطبيعة التي إليها قد قيّدته من عبادتها تكاليف مادية كلّف بها نفسه بنفسه وعلى نفسه فرضها فرائض ربط بها نفسه إلى هذه الأرباب التي خلقتها منه المخيلة والتي إليها راح يتعبّد ويصلي جاثياً وراكعاً وساجداً، فهاوياً بجانب ما قد أراقت يداه

من دماء ضحايا يرسلها محرقات في النار إلى ما قد اختار بين الأرباب من رب مستمداً منه العون على ما يريد له تحقيقاً من مطلب وغاية فإن، ولكل رب اختصاصات وحدود من القدرة والمقدرة، لكل إنسان حرية الاختيار في التوجّه إلى الرب الذي يرى فيه القدرة على إنجاز مرغوب الرغبة!

خضبت الألوان البدائية هذا الدين وفي نطاقه حفت بالعقل الإنساني طفلاً، فصبياً، أوهام ليل الإنسانية فالعبادة فيه قد اتخذت نفس الصورة البدائية التي كانت قائمة في وادي الفرات والأندوس فالقوائم من هذا الدين تقوم على أسس: الطقوس

أقيم القيم لدى العقل طفلاً وصبياً الطعام والشراب ومن ثم قدم العقل، طفلاً وصبياً، الطعام والشراب تقدمة للأرباب!.. على هذه الهضبة أقام العقل في أدوار مراحله التطورية الأولى الولائم للأرباب!

وكما جرت في وادي الفرات والأندوس العادة بافتداء نفس بشرية بنفس بشرية أخرى جرت على هذه الهضبة العادة فبنفس بشرية افتدى منه النفس بتضحية الصبية من الأبناء! وطويلاً جرت هذه العادة واستمسك بهذا التقليد قبل أن يستعاض كما استعيض هناك، بتضحية الكباش بدلاً من الأبناء.

تلك هي العقائد في ليل التاريخ والطابع من الدين كان الطابع ويد الزمن لمراحل العهد الطاجقي تنشر وتطوى لم يتغير في العهد الطاجقي الدين عن أن يكون إلا محض طقوس حتى امتدت يد الزمن فطوت في سجّل التاريخ صفحة ونشرت أخرى بدأت تسطّرها بتلك الفروع التي جاءت بها إلى هنا من تلك الدوحة الآرية التي كانت فروعها تمتد من الراين إلى قزوين بينما كانت حضارات العنصر السامي ومدنيات الشرق القديم قائمة، فمن هذه الفلول الزاحفة قبائل من أودية الدانوب حتى معتليات البنجاب أمدت يد الزمن من فروع الشجرة الآرية إلى هذه الهضبة فرعاً وفي بكتريا، أو بلخ، غرستها ونشرتها في أرجائها لتعرف هذه الهضبة، نسبة إليها، باسم: إيران.

أظلت هذه الفروع القوية من فروع الآرية «طاجقا» فطوتها بينما كانت تتشابك فيما بينها وتتنازع قبائلها السيادة على هذه الهضبة لينحسر فجر التاريخ وفي شرقي البلاد وجنوبها قد استقرت من هذه الدوحة قبيلة قوية من هذه القبائل الزاحفة، تطلع على التاريخ تحت اسم: فارس.

وفي امتداد غامر إلى جانب هذه الفروع الفارسية امتدت من نفس الدوحة فروع أخرى تعود بأصلها إلى قبيلة أخرى قوية من الفلول الزاحفة تتخذ مقراً غربي هذه الهضبة حيث

فيها قامت تسود التاريخ وتطلع على صفحته تحت اسم: مادّي.

بهذا الامتداد الآري انقشع عن هذه الهضبة ليل التاريخ وانبلج من ثنايا السحر فجر، من شعاع ضوئه المسفر اتخذت يد الزمن مداداً راحت به تسجل لهذا الشعب الذي كونته الفروع المتشابكة من مادي وفارس، تاريخاً، على صفحته يطالعنا:

العصر الميثهرّي

تنحسر للعقل الإنساني في العصر الميتهري بهذه الفروع الآرية آثار خطى تعود إلى ما وراء الألف الأول ق.م... خطى، يتعقّبها الفكر متقصياً... وعلى صليل المعاول الأثرية في الشمال الغربي لهذه الهضبة تنفرج شفاه الزمن وتتنفس محدِّثة:

إن العقل الإنساني قد خطا على هذه الهضبة خطوات اتجهت إلى نفس الطريق الذي اتجه إليه التفكير الآري على السفوح الهندية فبنفس سجية التقصّي التي طلع بها هناك في العصر الفادي طلع بها هنا في العصر الميتهري مسجِّلاً الدين الذي أضفي اسمه على العصر:

الدين الميتهري

في «سوسا» تعود بنا المعاول الأثرية أربعة عشر قرناً من الزمن ق.م فتعود بنا إلى ذلك العهد الذي نرى فيه العقل البشري يافعاً إلى النور يصبو، وإلى النور صابياً نراه يؤلّه الأنجم...

من الظلمة فزعاً فزع العقل الإنساني، يافعاً، إلى النور فتراءت له الأنجم لفزعه ملجأ.. إلى الأنجم في ليله تحول فتحول لهذه الأنوار عابداً، وعابداً نقدم تقدِّم القرابين تقرّباً ويرفع في بذل وسخاء الضحايا فقائماً على رأس جماعة دينية، شبيهة بتلك التي رأيناها في العهود الفادية، يقود من ورائه العقل الجماعي ويوجهه إليها ولكن... ليتجه به هذا الاتجاه إلى تأليه أبرز مظهر من مظاهر هذه القوى النورية وأبرز مظهر من مظاهر هذه القوى كانت الشمس أو:

«مِيثْهرا» بـ «مِيثْهرا» لج العقل البشري على هذه الهضبة حلقة التأليه الشمسي... وبـ «ميتهرا» قامت الميتهرية مذهباً محوره رب أكبر **هو نور** يضيء تجلّيه ظلمة الظلم!

ولكن... لئن فسّر العقل الإنساني، المتمثّل بطبقة «الموابذة» أو الفقهاء وفي نفس الآن الحكّام والقضاة، هذا التفسير والأيام به تسير في أحضان طبيعة ذات تضاد، فليس إلا ليأتي بتفسيرٍ آخر كان وحيه أيضاً، هذه الطبيعة ذات التضاد فقد رأى نفسه، دونما علم بنفسه، في رضوخ لوحيها وإيحائها يرجِّع في أحضانها نفس العقيدة القديمة فيتنادى:

إن الوجود إنما التضاد!

وبعامل هذا الوحي والإيحاء راح العقل الحدث يُقسِّم الربوبية إلى أرباب خير وأرباب شر.. ولكن ليتوقف لفترة عملت فيها لوالبه الفكرية تفكر في أمر هذه الطبيعة ذات التضاد.. فترة، أعلن بعدها أن التفكير منه قد تحوّل من الشك إلى اليقين بأن هناك مصدرين أساسيين للشر والخير...

كل ما في الكون فمنقسم إلى ما يأتي بالإيمان اليقيني بأن الكون تتقاسمه قوتان متكافئتا القدرة والمقدرة، فإن الكون يتّسم بسمتي الخير والشر وعلى اتسام الكون بهذه الصفة وبتلك يأتي من نفس الكون نفسه البرهان... برهان تسطّره على صفحة الفضاء يد الزمن بأحرف مدادها هذا الغسق المتهافت إلى ظلم وهذا الشفق المتفجّر عن نور...

في ناحية يقف الخير متمثّلاً في مصدر النور أو؛ «أهورا مَزْدا».

وفي ناحية يقف الشرّ متمثّلاً في مصدر الظلم أو: «دروج».

يقيناً أن من هاتين القوتين؛ النور والظلام، قد وُجد الوجود فأمر الوجود إنما بين هاتين القوتين مشاع!

هذا اليقين، الذي تفجّر من ينبوع العاطفة، بدأت ترفّ على هذه الهضبة عقيدة دينية قوامها ألوهة ثنائية محورها:

الإله الخير والإله الشر! وبين إله خير وإله شر راح العقل الإنساني على هذه الهضبة حائراً في توجيه العبادات فسجّل ديناً موزع العاطفة مشتت النزعات بين منازع الخير ونوازع الشر، مظاهر العبادة فيه منحصرة أيضاً في طقوس استنها لدَرْء شر «الشر» واستجلاب خير «الخيِّر»!

لا ثمة شك أن هذه نقطة ضعف ووهن في التفكير تسجل على العقل الإنساني ويحاسب بها في طور نضوجه بيد أن العقل كان ما زال حدثاً ومن ثم فهي تمثل نقطة حساسية بالغة الحساسية في عقل ما زال يحبو على مدارج الحداثة يأبى حبّه الخير إلاّ أن يكون مصدر الخير مصدراً بريئاً من الشر! ومن ثم ففي تحوّل استيجابي لميل طبيعي نحو الخير نراه يتحوّل، تدريجياً، في خالص عبادته ناحية؛ «آهورامزدا»...

بهذا التحوّل الفكري نحو «آهورا مزدا»، تحوّل بالعقل التفكير من المظهر إلى **المصدر** ومن الظاهر إلى **المحتجب** ومن النور إلى ما وراء **النور**.. إلى الينبوع نفسه المستقر فيما وراء «ميتهرا» والصادر عنه أنوار «ميتهرا» تحوّل العقل فهوى بهذا التحوّل «ميتهرا» إلى رب ومظهر للنور وتلاشت عبادته في عبادة المحتجب، المصدر والأصل لكل نور ولكل خير.

«آهورا مزدا»!

أجل... لقد سارت الأيام بالأيام وفي هاوية الزمن هوت الحقب لنرى أن البذور من الفكرة الغامضة المبهمة في تربة النفس البشرية قد نمت في أرجاء الوعي الإنساني على هذه الهضبة، وأن المنطق قد حاج العقل بأن؛ إذا كان «آهورا مزدا» هو للنور من «ميتهرا» المصدر فألوهة «ميتهرا» إنما ألوهة سرابية تبهت في ضوء حقيقة ألوهة «آهورا مزدا»!

إلى هذه الاستقامة في التفكير اتجه الفكر مستهلاً المرحلة القديمة بتعقله أن قط لن تكون الألوهة إلا المصدر الخالص للنور وللخير.. وسجّل هذا التعقل إعلانه رأيه الذي انساب همساً ما لبث أن رجعته آفاق هذه الهضبة دوياً أصداؤه تتجاوب في ترديد:

إن الإله الخير ليس بميتهرا فالشمس نور مرئي وأما ذاك! **ذاك فنور غير هذا النور** المرئي، إن الإله الخير نور لا مرئي..

إن الإله النور لا مرئي نور وليس إلا من قواه هذا النور المرئي ومن ثم فلا نعت له بأكثر وصفاً من آهورا مزدا أو هذا الاسم الذي يجعله مصدراً للخير والذي تقتصره الشفاه في حالة التناجي وتناجيه باسم؛ «مَزْدا»!

بالاعتراف بألوهية «مزدا» سجّلت يد الزمن في سِجِّل الأديان:

الدين المزدي

بالاتجاه إلى «آهورا مزدا» أو «مَزْدا» كإله خير قام الدين المزدي وحيال «مزدا» كلا مرئي نور، وقف العقل الإنساني مبهوراً لتروح منه الشفاه، والعين يغمرها النور المرئي بينما الشعور فيغمره النور اللامرئي، ترجِّع اختلاجات الوجدان الموقن بأن النور المرئي فيض من النور اللامرئي، إن: «النور ابن الإله»!

ولكن... العقل وإن تخطّى دور الحداثة واستهل طور النضوج فما زال عهده بالحداثة غير بعيد والمخيلة منه ما زالت فتية، ومن ثم فتسجيله على نفسه موقفاً فجاً فقد وقف لا يجد لهذا النور الذي استشفّته منه البصيرة على هوى لوالبه العقلية تعريفاً أو تفسيراً فانطلقت منه المخيلة الفتية تتخيّل صورة لـ «مزدا»..

وطوّفت في أرجاء المخيلة الفتية الصور الشتى حتى استقرت فيها صورة خالتها إنها الأنسب لمزدا فقد جعلت «ميتهرا» أو الشمس لـ «مزدا» عيناً. ولما كان لا بدّ للعين من جسم فقد استرسل الخيال من شططه وصور الإله بالصورة الجسمية التي أضفت عليه بدورها صبغة العنصر الجنسي بل وأبى الخيال الفج إلا أن يضفي عليه صبغة العنصر الأقوى فصوّره بصورة رجل!

صوّر الخيال الإله بالصورة البشرية التي أضفت عليه صبغة العنصر الجنسي... وراح للدين المزدي فقهاء من حول «مزدا» يطوّف لهم خيال لم يضف عليه صبغة العنصر الجنسي إلاّ

ليقيّده، بعد تقييده بالجسدية، بالمكانية فيقرّه السماء!

وإلى «مزدا» المستقر في السماء تحولت إلى السماء المخيلة البشرية فسجّلت على نفسها شططاً جديداً بتخيّلها السماء سقفاً لعالم أرضي وأرضاً لعالم إلهي رحب رحابه للقدامى من الأرباب!

كلا!.. لم يختلف الدين المزدي عن الديانة الميتهرية القديمة في اعتقادها بالأرباب، فبالتعدد أخذ وبتعدد الأرباب دان بيد أن عن الأرباب تفصّل للإله، في الدين المزدي، مكانة فهي ليست إلا قوى عاملة تؤلف حاشية للإله وتلتف طوائف تكون قوى الخير وقوى الشر حول كلا الإلهين فالألوهة لم تقصر حتى الآن على «مزدا» وإنما يشاركه فيها «دروج».

أجل... ما زال العقل موزع التفكير بين «آهورا مزدا» النور الموجد النور والخير ومزهر ومثمر الشجر وأليف الأنعام وخاصة كل ما هو بالنهار وبالحياة بشير وبين «دروج» الظلام المُوْجِد الظُلَم والقفر وسّام النبات وكاسر الحيوان والهوام والطفيليات وكل ما هو بالمرض آتٍ والمرض بالموت نذير...

بين هذين الإلهين ما زال العقل يقف حائر التفكير فهو لئن جافى بطبيعته «دروج» وأقبل بفطرته على «مزدا» فليس إلاّ لأنه يرى أن الكون إنما ساحة نضال ونزاع بين قوى هذين الفريقين وليس إلا لأنه يرى نفسه قسماً مشاعاً بين المتنازعين، وليس إلاّ أن يقوده المنطق إلى أن يرى أن مصلحته الشخصية تحتّم عليه كفّ غضب الطائفة الواحدة واستجلاب رضا الطائفة الأخرى.

ما زال العقل، حثاً للرضا، إلى مصدر النور والخير والحياة يقدّم القرابين.. وما زالت العقل، درءاً للسخط، إلى مصدر الشر والظلمة والموت، يرفع القرابين والتقدمات يقدّم! وما زال العقل يطلق ألسنة اللّهب لتحمل إلى الأرباب، درءاً وحثاً، المحرقات!

ولكن!.. عن إله الشر إلى إله الخير كانت قد انعطفت من العقل الإنساني العاطفة والأيام على هذه الهضبة تسير وتنتظم إلى قرون، استجابة لشيء في طواياه وأعماق نفسه! شيء في طواياه يحسه نحو الخير ينعطف ويراه إلى الخير يستجيب ويطغى عليه منه شعور عجيب! شعور، ما بدأ يحسّه إلاّ لينمو فيه وإلاّ ليتخذ مظهراً واضحاً ومن ثم فتجنّبه وتجاهله إله الشر واتجاهه بخالص العباد نحو إله الخير؛ «مزدا»!

أجل... إن الألوهة ما زالت في مخيلة العقل الإنساني مشطورة إلى ثنائية قوامها إله خير وإله شر وما زال الإيمان في هذا العقل راسخاً بأن لكل من هذين الإلهين قدرة الخلق وإن «الخير» قد خلق الخير وكل ما هو حسن وخير ونافع في العالم سواء في مظاهر الطبيعة

والنبات وسائر أنواع الكائنات الحية وإن «الشّر» قد خلق الشّر وكل ما هو شر في العالم سواء في مظاهر الطبيعة والنبات وسائر أنواع الكائنات الحية المفترس منها والمبيد، وإن الحرب بين هذين الإلهين سجال وليس الإلهان يباشران الحرب بأنفسهما بل بمخلوقاتهما وأن الإنسان أعلى كائن في مرتبة الكائنات التي خلقها «الإله الخير» وأن، بالتالي، على الإنسان أن يتّبع خالقه فيحارب الشر بأن يعمل خيراً دائماً مهما زيّن له إله الشر عمل الشرور وإلا زاد في قوة إله الشر وأسخط عليه خالقه إله الخير!

الاتجاه، اتجه العقل الإنساني إلى الإله الخير، بيد عن طور الحداثة ما زال الطور من أطوار العقل الإنساني غير بعيد، من ثم فالعبادة لم تتجاوز دائرة الطقوس وللسبب نرى أن الدين المزدي شبيه بسائر أديان العصور البرونزية وعلى الأخص بالدين الفادي وعهد «البراهماناس» و«الأرانياكاس» فالعبادة فيه تؤدى في صورة أداء الطقوس ولأدائها يتعهد العقل الإنساني نفسه، فقيهاً، فكما كان هناك متمثلاً بطائفة الكهنوت البراهمي كان هنا متمثلاً بهذه الطبقة الحاكمة من الفقهاء، طائفة الكهنوت الموبذي.

تحت صور هذه المرحلة المقتربة من فجر الشباب للعقل البشري امتدّ العقل على معتليات هذه الهضبة يعتلي الجبال يبتغي.. لنفسه دنواً ممن في السماء وعلى هذه القمم راح يركع ويسجد مصلياً ويرسل الضحايا محرقات إلى «مزدا» المتمثل في كل خير متخذاً في صلاته إلى الإله الساكن السماء قبلة أرضها السماء... وقبلة كانت الشمس في صلاته إلى الإله نهاراً، وأما ليلاً... ليلاً، و«مزدا» روح الخير والخير مصدر النور ومن ثم، وهو النور اللامرئي المضاد للظلمة والظلمة روح الشر، كانت القبلة في الصلاة إلى الإله، النار!

كالنور، النار، كلاهما للظلمة مبدد..

إن «مزدا» كنور، يحارب الظلمة بتجليه في الشمس نهاراً ويحارب الظلمة، والنار لظلمة الليل طاردة، بتجليه ليلاً في النار.

كلا!.. ليس الإله نفسه هذا النور المرئي في الشمس كلا ولا هو نفسه هذه النار المرئية، وإنما، وهو النور اللامرئي، من فيض نوره اللا مرئي هذا النور وهذه النار... ومن ثم فليس كمثل هذين المظهرين، النور والنار، من مظاهر التجلي الإلهي بأفضل للصلاة إلى الإله من قبلة!

للسبب قُدّست على هذه الهضبة، تقديس النور، النار... وعلى القمم، ليلاً، أُشعلت لعبادة من ليس هو هي ولا هي هو وإنما، والإله متمثّل في كل ضوء، تندلع النار رمزاً للصلاة، اتخاذ النور إليه نهاراً، قبلة، تتخذ إليه، ليلاً، قبلة!

إلى ما وراء النور والنار.. إلى القوة الكامنة وراءهما كنور لا مرئي اتخذت، على هضاب

هذه الهضبة وهضباتها، الشمس لدى مشرقها ومغربها قبلة في الصلاة إلى الإله، يلقي شعاعها الطليق على أجنحة الشفق والغسق في النفس وميض الشعور بالوحدة كما على معتليات هذه الهضبة ومرتفعاتها اتخذت النار إلى الإله في الصلاة قبلة ألهب اللهب منها الوجدان بلهب الوجد الإلهي واختلط تهويمها بتهويم العُبَّد الهُيَّم.. هُيَّم، راحت النفس منهم تحت فيض من شعور هذا الوجد وهذه الوحدة تطلب الاستزادة من هذا الشعور فامتدت منهم اليد تحمل إلى الشفاه شراباً: «هاومو»

كلا!.. قط لم يعبد «هاومو» رباً كما جرت بالخطأ أقلام فوصفته الصفة وإنما قُدّس خمراً.. إن «هاومو» رحيق به يهيم الهائم في رحاب من به قد هام فهو يطلق اللسان من العابد للمعبود تسبيحاً ويصل المُحِب بالمُحَب...

أجل.. ک «سوما» على سفوح البنجاب كان «هاومو» على معتليات هذه الهضبة، رحيق ترتفع كؤوسه نخباً للإله حتى غدا شربه طقساً مرعياً من الطقوس الدينية في عبادة مزدا، الإله الساكن سماء منها على هذه الأرض يشرف..

أجل.. إن الإله مكانه السماء حيث منها على هذه الأرض يشرف ومن ثم فاتجاه العقل يتساءل: أي معبد للإله يقام وهذه الأرض، ببقاعها، للإله معبد؟

حسب العقل، حيثما كان، إشعال النار على القمم ليلاً يرى الإله فيها متمثلاً وللعبادة له قبلة مقام الشمس قبلة النهار..

الدين كان الدين محض طقوس!... بيد أن إلى جانب الطقوس كان:

القانون الأخلاقي في الدين المزدي

إن المزدية تقول، إلى جانب عقيدتها في نظرتها إلى الطبيعة القائلة بأن هناك قوى متناقضة تسبّب تصادماً ونزاعاً بألوهة منقسمة إلى ثنائية من نور وظلمة أو خير وشر، بأن في اللاّنظام المرئي للبصر نظام مستتر إلا على البصيرة وأن الحركة الواضحة في هذه الصور إنما على محور، نفسه نظام، مستديرة...

أجل.. إن هذه فكرة ليست بجديدة فقد طرقت، في العصر الميتهري، مطارق التفكير ورجعتها الشفاه دوياً بأن الوجود تنتظمه عجلة النظام أو «أرتا» الكلمة التي إلينا بها يعود النغم الفيدي ب «رتا».. بيد أن والأيام قد سارت فارتحلت بالعقل مراحل التطور تطورت هذه الفكرة من فكرة «النظام» إلى فكرة «العدالة» ولتتخذ مظهرها الإيجابي ارتفع الصوت المزدي يعلن:

إن عجلة الوجود التي تنتظمها «أرتا» أو النظام، إنما تديرها وتحكمها، «آشا أو العدالة»!

وأداء رجعت المزدية هذه الكلمة لترج أرجاء هضابها رجاً، تصف الوجود بالعجلة وتقول: إن الوجود تنتظمه عجلة النظام؛ «أرتا» المحكومة بالعدالة؛ «آشا»!...

يقيناً؛ يقيناً إن النظام ينتظم الوجود والعدالة تحكم الكون فإن الوجود عجلة حركتها النظام والقوة المحركة لها إنما العدالة...

من هذا التعقل في رحاب تفكيره الطبيعي استمد العقل في نطاق تفكيره الديني المنطق الذي راح به مقتنعاً بأن هذا النظام المنتظم الوجود أو العالم الخارجي والمُسيَّر بقوانين العدالة يمتد من الخارج إلى الداخل وينتظم العالم الداخلي أو النفس وأن العدالة الحاكمة بالنظام هذين الوجودين، العالم الخارجي والعالم الداخلي، تحتم أن تكون للإنسان، تبعاً لذلك، حرية الاختيار...

إن قانون العدالة حتماً يحتم حرية الاختيار ومن ثم، ولكل إنسان حرية الاختيار فإن الإنسان حر الاختيار في اتباع أي الحزبين شاء، إما حزب «الإله الشر» الذي ليضعف «الإله الخير» يسعى بالدمار إلى الإنسان عن طريق المغريات فيزين له سادر الشهوات، أو حزب «الإله الخير» الذي أوجد الإنسان والذي يحرص على بقائه وسعادته عن طريق صوته الذي يرسله الإله بين الجوانب ناهياً عن الشر آمراً بالخير..

حر الإنسان في اتباع أي الحزبين شاء فيساعد بعمله من له كان إلهاً قد اختار!

إن الإنسان مخلوق «مزدا» ولكن لما كان كل من الإلهين يتحاربان والحرب بينهما سجال ولا يباشرانها بأنفسهما وإنما بمخلوقاتهما فإن للإنسان، وقد خلقه «مزدا» حرّ الإرادة، تتجاذب في حياته هاتان القوتان، فإن هو طهّر بدنه ونفسه وعمل صالحاً نصر خالقه وأضعف إله الشر وبذلك يدين بدين «مزدا» فيعتنق ديناً حقاً؟

حتى المرحلة من التفكير سار بالعقل الإنساني، تحت ردائه الكهنوتي، المنطق ليتنبّه إلى التفرقة التامة بين الخير والشر والرذيلة والفضيلة أو إلى القيم الأخلاقية في الداخل، وبهذا التنبّه إلى القيم الأخلاقية سطعت في أفق النفس أضواء الفضيلة وتمثّلت في: الصدق.

غدت لديه الفضيلة متمثلة في الصدق، فغدا لديه الصدق أس الفضيلة.. والصدق إذا غدا أسّ الفضيلة فليس إلاّ ليغدو لديه، بالتالي، أسّ الرذيلة وأكبر الكبائر متمثلاً في: الكذب.

بهذا النمو المنطقي الذي فرّق التفريق التام بين الرذيلة والفضيلة والذي قاد التفكير إلى أن يرى أن الفضيلة تنحصر في ألاّ يأتي المرء من الأعمال في الخفاء ما يخشى لها ظهوراً يأخذنا العقل في نطاق هذا الدين إلى مشكلة «الثواب والعقاب» وإلى «مشكلة الخلود»...

بيد أن لا يطالعنا الرأي الجليّ عنهما إلاّ، من بعد، غداة تناول بالإصلاح لهذا الدين العقل الإنساني وقام، في طور النضوج، مسجّلاً:

الإصلاح في الدين المزدي

بـ «زَرْدَشت» أو «ذهب الصحراء» (٦٦٠ ـ ٥٨٣ ق.م)، الثاوي في الضريح المرمري في «ناخشي ـ رستم» بالقرب من برسوبوليس تطالعنا أول صورة واضحة وصحيحة تمثّل فيها الفكر الإنساني على هذه الهضبة حين يطالعنا الإصلاح في الدين المزدي، هذا الدين الذي تحوّل فيه زردشت، من بعد، منَ مصلح ديني إلى نبي ورسول...

ولكن!.. إلى زردشت قبل أن تلحقه صفة النبوة وصبغة الرسالة نعود فنعود إلى ذلك الكتاب الذي يعتبر المصدر الوحيد للزردشتية والذي تكوّن مجموعته الكاملة الحاوية للنصوص والتعليقات الـ : «زند أفِسْتا»

مصدر واحد أساسي هو كل ما لدينا عن «زردشت» وعن الزردشتية هو هذا الكتاب الذي سيّجت دفتيه القدسية وحف بأوراقه من الأجيال حفيف التنزيل والذي يجب أن نُفَرّق فيه بين التعليقات الحاملة اسم «زند» وبين النصوص الأصيلة الحاملة اسم «أفِسْتَا».

من ثم لهذا الكتاب المقدّس تتناول اليد وللصفحات منه تنشر في استعراض لقسم بعد قسم فيه بينما يروح الفكر مستوحياً من أضواء التاريخ اللغوي التاريخ الصحيح لهذه الأقسام الذي لا ينتشر للفكر إلا لتطوي اليد جانباً صفحات الـ: «فنديداد» المجموعة التي يعتبر الكلم فيها «منزلاً» والتي عنها قد رسخ وهم الاعتقاد بأن الكِلَم منها إنما كلم الإله، المعبود تحت اسم «آهورا مزدا»، إلى زردشت.

كلا!... ليس لزردشت في الـ «فنديداد» يد فليست هذه المجموعة إلاّ سجلات فقهية سطرتها اليد الفقهية بعد زردشت وبقرون بعده من الزمن وليس فيها من تعاليم زردشت نفسه شيئاً ومن ثم نطوي صفحات هذا القسم المتأخر في «الأفستا» إلى صفحات القسم القديم وصفحات القسم الأقدم فيه... صفحات الـ «فِسْبرد» والـ «يآسنا» بيد أن إذ نروح لصفحات الـ «فسبرد» نستعرض فنقرأ هذه المجموعة المترعة بالأناشيد الخاصة بالفقهاء والدعوات المقصورة على الشفاه الفقهية فليس إلاّ لنطويها جانباً أيضاً لننشر صفحات الـ «يآسنا» القسم المقدّس في الـ «زند أفستا» وأقدم النصوص فيه فبعض منها يعود بتاريخه إلى الألف الأول ق.م وبعض منها يصح عنها الاعتقاد بأنها نفس ما قد ألقته شفاه زردشت من تعاليم.. ومن ثم فأهم ما يهمنا من هذا الكتاب المقدّس المعتبر منزلاً هو الـ «يآسنا» ومن

اليآسنا هذا القسم المكوّن لمجموعة من خمس مجموعات تضم قطع من أناشيد سبعة عشر تسمى: «جاتها»

أجل... إن الزاندا فستا التي كانت تجري بتسطيرها أقلام غابت مصادرها تحت ركام السنين إنما كاليوبانيشادات في مزجها الأناشيد بالدعاء والتاريخ بالسياسة والدين بالسياسة وبالتاريخ إلى جانب فصلين كاملين عن الألوهة فبعضها فقرات عن أسرة زردشت، وبعضها أقوال إلى زردشت تُنسب، مما يجعلنا على الـ «يآسنا» فيها نقتصر.. كلا لا نتناول ما على الـ «يآسنا» قد أضيفت من كتابات أخرى فكوّنت «خُرْدان أفستا» أو الأفستا الصغرى العائدة بتاريخها إلى القرنين السابع والسادس ق.م والتي تحتوي الـ «ياشت» أو تسابيح الملائكة، حتى إنه لما قد أترع صفحاتها من الحديث عن الملائكة، يبعث نشر أوراقها في المخيلة صوراً خيالية حتى ليحف بالمخيلة من حفيف أجنحة هذه الصور دوي الحفيف...

كلا... لا نتناول ما على الـ «يآسنا» قد أضيفت من كتابات كوّن مجموعها، ككل، الزند أفستا أو هذه المجموعة التي تكوّنها سور وتكون السُور فيها آيات والتي بدأ تحدّرها، منذ زردشت، عبر الأجيال كتاباً مقدّساً الكلم فيه وحي والوحي فيه تنزيل..

ومن ثم نطوي العهود المتأخرة في «الزافستا» إلى العهود المتقدمة فيه.. إلى الـ «يآسنا» نفسها، وبين هذه الآي الراجع تاريخها، بدليل لهجاتها وألفاظها اللغوية، إلى الألف الأول ق.م العهد الذي كانت فيه الإيرانية القديمة هي اللغة، تنتشر «الجاتها» الخمس المعتبرة من نظم زردشت والخاصة بتعليم زردشت والتي تمثل الزردشتية الصحيحة كفلسفة وحكمة قبل أن تتحول إلى دين حلّ محله الإسلام... فتنتشر آيات «الجاتها يآسنا» ويطالعنا جلياً الإصلاح في الدين المزدي الذي سجّل:

انبثاق المذهب الزردشتي

في ضوء التاريخ يطلع علينا زردشت.. من قبيلة ميديا، من الجزء الشمالي الغربي لهذه الهضبة ومن آذربيجان، كموطن، يطلع علينا زردشت، تحت رداء **صادق** من صفة الإصلاح...

في عهد اشتدت فيه من التورانيين على هذه الهضبة وطأة الغزو، والغزو سلب ونهب دوافعه الشر ونتائجه الألم، ومن ظلم التورانيين المتاخمين لهذه الهضبة استظلم الإيرانيون ترتفع سُجف التاريخ عن زردشت، فنراه.. نراه في قمم سبالان مطرقاً يفكّر والزمن من حوله يُخضِّب آفاق سبالان بشفق بعد غسق وبغسق بعد شفق وهو بين زمن قد سبح من حوله شهوراً قد استغرق تفكيره التأمل بحثاً عن منشأ الشر وسبب الألم، لينعطف به البحث إلى التفكير في قول الدين في هذا الأمر.. فوجد نفسه وليد دين اشتراكي لا يجيب بحثه

عن الشر الذي قد استشرى أمره بمقنع إجابة، ففي هذا الدين إنما إلى ثنائية الألوهة مشطورة: في ناحية يقف الإله الخير «آهورا مزدا» وفي ناحية يقف الإله الشر «دروج» ولكل من هذين الإلهين قدرة الخلق فكلاهما قد خلق ما شاءت له طبيعته من خلق بسببه تتسم هذه الطبيعة بطابع التضاد وتنقسم إلى مظهري؛ الخير والشر.

في أحضان هذه العقيدة الثنائية من التفكير الديني طلع زردشت العائد بنسبه إلى أقدم ملوك تاريخ إيران، وقد انحصر تفكيره في البحث عن، ماهية الخير وماهية الشر ليرى.. أن، يقيناً، على الطبيعة يرف هذان المظهران وأن حقاً، كتعاقب هذا الشفق البشير بالنور وهذا الغسق النذير بالظلمة والذي يكوّن كلاهما يوماً، يتكوّن الكون من خير وشر...

ولكن!... حائراً لا يقف زردشت بين هذين المظهرين مؤمناً بتساوي هاتين القوتين وإنما.. إنما على اللوالب العقلية للتفكير الزردشتي تجري أسئلة يجيئها من صافي التفكير منه المقنع من الأجوبة التي هبّ على إثرها زردشت بها مقتنعاً يهبط من أعالي سبالان إلى فسحات هذه الهضبة ليروح صوته في أرجائها دوياً بأن إضفاء صفة الألوهة على الشر وهم باطل وأن «الخير» هو وحده الحق!

من أعماق الطبيعة وطبيعة ما بعد الطبيعة استشف زردشت باطلية الشر وأحقية الخير استشفافاً اشتد به اقتناعه بأن الخير على الشر في النهاية الغلاب، فأتى بفلسفة جهرت تستحثّ الوجدان هجر الأرباب والإقلاع عن العقيدة الثنائية المتخذة محوراً إلهين والاعتراف بألوهة إله واحد هو الإله الخير والحق:

آهورا مزدا! أي البراهين تقدمه الزردشتية، كفلسفة، إلى وجود إله واحد واتصافه بالخير والحق؟

سؤال، لزردشت سأله عصره ويسأله الفكر ومن شفاه زردشت أني لعصره ويأتي للفكر الجواب:

برهان وجود الإله **كواحد** مستمد من الحياة نفسها وبرهان صفته **كخيّر** مستمد أيضاً من نفس هذه الحياة فإن الحياة أحداث... وهذه أحداث الحياة؛ يرفُّ الشر ويحدق ويصول ويصلي ومن الزمن قد يطول أزماناً ولكن!

أبداً أبداً للخير، في النهاية، الانتصار.. فيمحق الباطل محقاً وانتشاراً ينتشر الحق!

يرف الظلم ويشتد طغيانه بيد أن من ثنايا هذه الظلمة وهذا الظلم يشق الخير سجف الدجى وينبلج نور الحقيقة وترفرف العدالة!

كالغيم في صفحة الفضاء.. الشر غيم في صفحة الوجود..

كغيم يمر في صفحة الفضاء يلقي ظلله على ينبوع النور فيها فيحجب للشمس نوراً ولا يلبث أن يتبدّد ويزول إنما الشر!.. الشر غيم في صفحة الوجود ومصير الغيم، مهما تكاثف الزوال ومهما تلبد التبدّد...

من ثم فإن الشر محدود.. وإذا كان الشر محدوداً فمحال أن يكون الشر والخير على قدم التساوي فيكون الكون والكائنات شركة بين شريكين!

يقيناً!.. يقيناً أن الكون ليس شركة بين شريكين وقط لا يمكن أن يكون الكون شركة بين إلهين أحدهما يتصف بالخير والآخر يتصف بالشر فليس للشر الغلبة وليس الخير إلا أبداً هو المتغلب والغلاب، إن للخير أبداً الغلبة ولأن الغلبة في النهاية للخير، والخير وجه من وجوه الحق، فليس للكون مكوّن إلا واحد خيِّر لا شريك له.. لا إله إلاّ هو... الإله النور، السيد الحكيم والخيِّر «آهورا مزدا».

من ثم عن «الصفات» و«الماهية» لا تسأل وكيف لسؤال كالسؤال تسأل وقد علمت أن صفته الخير وماهيته نور على نور؟!

بهذا اليقين المتفجر من منبع التفكير الصافي ألقى زردشت دعائم فلسفته التي لم تتصف بالثنائية إلاّ في تفكيرها الطبيعي وأما في تفكيرها الإلهي فقد ميّزتها عن الدين المزدي صبغة **الوحدانية الخالصة**!...

ولكن... للفلسفة الزردشتية وهي التي ترى أن الشر في الوجود، وإن يك غير متكافىء والخير، موجود، يجابه سؤال؛ إذا كان «الإله الخير» هو وحده المُوجد للوجود أفأوجد «الخيِّر» الشر؟

بالنفي، للسؤال الذي تسأله الزردشتية بنفسها لنفسها، تجيب الزردشتية نفسها بأن: محال على «آهورا مزدا»، الخيِّر، إيجاد الشر!.. محال؟!

ما زال الفكر لزردشت يسأل، من ثم من ذا الذي قد أوجد الشر كشيء لـ «آشا» أو العدالة ول «أرتا» أو النظام مضاد؟

مشكلة دقيقة من المشاكل الفكرية تجابه بسؤالها زردشت وأمامها يطرق التفكير الزردشتي، وهو الذي قد أفرغ أمر الإيجاب الكوني والكائني في إله واحد جعله «آهورا مزدا» بينما بوجود الشر وإن كان مصيره إلى الفناء هو معترف، ليجري على اللوالب الفكرية الجواب الذي جاوبه المنطق الزردشتي معلناً:

من المحال على «آهورا مزدا» وهو الخيِّر، إيجاد الشر فالمنطق السليم ينفي أن «الخيِّر» قد أوجد الشر! بل كيف يوجد الإله الخيِّر شيئاً إلى الفناء مصيره وقد رأينا أن الشر مصيره الفناء؟

على دعائم هذا المنطق يستمد التفكير الزردشتي تفسيره لظاهرة الشر التي نفى عنها صفة الالوهية وقدرة الخلق فيقول:

يقيناً إن الشر شيء في الطبيعة موجود ومنذ الأزل هو، أزلية الإله، موجود ولكن!.. الشر شيء غير أبدي وقد رأينا أن مصيره إلى الفناء ومن ثم فالشر، لأن الخيِّر من الطبيعي لم يوجده وبالتالي لأنه موجود مثله منذ الأزل، يكون أزلياً مثله ولكن ليس مثله أبدياً لأنه سيفنى عندما يتغلّب الخيِّر على الشر تمام الغلبة فيمحى من الوجود!

هذه هي الفلسفة الزردشتية في تثنيتها الوجود.. إنها تثنية ولكن لا كالتثنية الأولى للدين المزدي وإنما هي تثنية تنقسم إلى وحدة خيِّرة تجعل المنشأ الخيِّر وتهوي بالشر، في النهاية، إلى هوة العدم... ومن ثم فهي ليست تثنية صحيحة بمعناها الصحيح لأن الذي أوجد الوجود هو «الخير»، وأما الشر فسيمحى وسيفنى، ولهذا تنفصل انفصالاً تاماً عن الثنائية المزدية هذه الثنائية الزردشتية التي تجمع بين أزلية الشر ولا أبديته وسرمدية الخير الذي جعلته للوجود بموجوداته الأصل والمنشأ!

كلا... لم تعد الزردشتية بالشر عودة اليوبانيشادية الأولى به إلى محض وهم ومجرد سراب وإنما بوجوده اعترفت كشيء، وإن يكن باطلاً، موجود بيد أن وإن كانت الزردشتية لم تبلغ الشفافية التي بلغتها اليوبانيشادية الأولى باستشفافها للحقيقة من طبيعة الوجود القصوى حيث يتلاشى الشر في مجرد سراب إلا أنها جاءت بهذه الفكرة التي تمثل النقطة التي بها قد ارتفعت بتفكيرها متحررة من نطاق عقيدة دينية قائمة تجعل الشر للخير شريكاً إلى رحاب جعلت الشر للخير خصماً وخصماً قوياً ولكن!.. قط غير شريك!

أجل!.. للخير يقف الشر خصماً قوياً بيد أنه عن المرتبة الإلهية جد بعيد **ليس الشر إلهاً وإنما روح شر** فلا يوجد إله شر وليس هناك إله اسمه «دروج»!

وهم باطل ألوهة «دروج» فليس إلا روح الشر.

«انكر مانيو»!

للإله، أنكر مانيو، عدو لأنه معه دائم الحرب بل سيظل له محارباً على ممر الزمن حتى ينعدم تماماً في النهاية!

من سُوَر «الجاتها»، ومن الآي منها التي لا تسجل ولا تحوي إلاّ فكرة خالصة لمُوجِدْ واحد تتحوّل الزردشتية من فلسفة إلى دين.. دين، لئن كان قد جاء بصورة عن الشر من القديم ألوانها مستمدة إلا أنه عن الدين القديم ينفصل انفصالاً تاماً ففيه ترى «آهورا مزدا» تحيط به جنود لا من الأرباب وإنما من الملائكة، لا تُعبد وإنما زُلفى إليه تُتخذ شفعاء! دين

فيه نرى «مزدا» يسمو على الشر الذي يقف دونه في المكانة وينحصر عمله، بمعونة جنوده من الشياطين، في إلقاء ظلال وظلل، كالغيم، على كل شيء أوجده ويوجده «مزدا»..!

على صفحات الـ «أفستا» يبرز هذا اللون جلياً في التفكير الإلهي الزردشتي وتتجلّى للزردشتية عقيدة دينية محورها ألوهة إله واحد مطلق عالمي ومجرّد، فصوت زردشت ينبعث عبر سطور الـ «جاتها يآسنا» للإله يناجي؛ «أي آهورا مزدا»

إني لأُدرك أنك **أنت وحدك الإله وأنك الأوحد الأحد**

وإني من صحة إدراكي هذا أوقن تمام اليقين من يقيني هذا الموقن أنك أنت الإله الأوحد.. اشتدّ يقيني غداة انعطف الفكر مني على نفسي يسألها؛ من أنت؟

ولفكري جاوبت نفسي: أنا؟.. إني زردشت أنا! وأنا؟ كاره أنا الكراهية القصوى الرذيلة والكذب، وللعدل والعدالة أنا نصير!

من هذه الفِكَر الطيّبة التي تُحوّم في خاطري ومن هذا الانعطاف الطبيعي في نفسي نحو الخير ومن هذا الميل الفطري في داخلي إلى محق الظلم وإحقاق الحق أعرفك!

من هذه الانفعالات النفسية والميول الفكرية التي تؤلّف كينونتي وتكوّن كياني ينبجس في قلبي ينبوع الإيمان بأنك أنت وحدك، آهورا مزدا، الإله وأنك الأوحد الأقدس الخيِّر والحق!.

الآي ٤٤ من «الجاتها ياسنا»

بمناجاة إله واحد انفرد بألوهيته ماهيته المطلقية وصفته الخيِّرية، تعطّرت أنفاس زردشت لتفوح أرجاً عاطراً من سطور الـ «جاتها يآسنا» بل يتضاعف هذا الأرج العاطر تضوّعاً يعبق في النفس منه العبير، والعين عبر سطور الـ «جاتها يآسنا» تجول والمخيلة تقفو زردشت وهو يسترسل مناجياً الإله بثلاثيات ترتفع إلى الأوحد في تسبيح متسائلة:

«أي مَزْدا! من ذا الذي قد أوجد العدالة غيرك؟!

من ذا الذي قد رسم مسير الشمس ومدار الأنجم سواك؟!

من ذا الذي قد قدّر منازل القمر، هلالاً وبدراً ومحاقاً، إذا لم تكن أنت؟!

أي آهورا مزدا!

من ذا الذي دحى الأرض وبنى السماء وسحب على صفحتها السُحُب وحاك في آفاقها الغمام؟

من ذا الذي فجّر وأجرى المياه ومن التربة أنبت النبات؟

ومن ذا الذي يثير ويسيِّر الرياح؟

إنه أنت هو أيها السيد الحكيم فليس هناك إله سواك؟

أي آهورا مزدا!

من ذا الذي أضاء النور وأسجف الظلم؟

من ذا الذي نشر وبعث اليقظة وأرخى وأسدل السُّبات؟

ومن ذا الذي قدّر مراحل اليوم بين فجر وظهر وزوال، ويتولى أمر توالي الليل بعد النهار؟

إنه أنت هو أيها السيد الحكيم فليس هناك إله سواك!».

الآي ٤٤ من «الجاتها يآسنا»

بهذا المناجاة التي ارتفع بها زردشت، بنفسه، إلى الإله للإله يناجي ولم يدَّع أن الإله له قد كلم وإنما هو الذي كان يكلِّم الإله، تنحسر في تاريخ حياة زردشت صفحة ساطعة ونقية يقف بها في تاريخ التفكير الإنساني صورة مماثلة لـ «عنخ آتن»، فقد بدَّد صوته كثافة الماديات بانطلاقه جهوراً يعلم عالمه بوجود إله عالمي فرد صمد لا شريك له في ألوهيته ولا تحفّ به طائفة من الأرباب لأن.. لأن ليس هناك للأرباب وجود!

أجل... تنزّهت عن الشرك وحدانية «مزدا» تنزُّهاً محا للأرباب وجوداً وهوى بها إلى مجرّد وهم ووهم مجرّد، وعن الاحتجاب وراء أرباب أسفر «مزدا» إلهاً انفرد بمرتبة الألوهية التي تبطل بها بطلاناً تاماً ألوهة «دروج»... أسفر إلهاً لا يُسمع ولا يُرى ولا يكلِّم ولكن ليتجلى على صفحة المخيلة سيداً محاطاً بحاشية من الأملاك أو الملائكة متفاوتة الرتب والمكانات حفيف أجنحتها دوي يملأ الرحاب السماوي.. وبه من كل جانب يحف!.

أجل.. لقد غاضت الأرباب في سراب سبره زردشت ولكن لتتحوّل، كأثر لهذا السراب الذي التمع على أرض المخيلة طويلاً، إلى ملائكة وتبرز ككائنات مجنّحة تكوينها نوري... كائنات نورية لأنها من الإله نفسه، من هو نور، قد انبثقت وانتشرت في ملكوته السماوي كحاشية له وكجنود بأمره تأتمر بيد أن لينفرد من بينها ستة هم الرؤوس من الملائكة يحملون أسماء؛ العقل والحكمة والتقى والسلوك الطيب والخلود، وهذه أسماء لصفات في الإله نفسه منه انتشرت ككائنات نورية ولكن ليس كل واحد منها بربٍّ وإليها لا يتجه أحد بالعبادة.. كلا! قط لا تعبَد فنفسها عابدة تتجه إلى من عليه قد قصرت العبادة عليه قصور العالمية!

بالعالمية، اصطبغت أُلوهة «مزدا»!...

أجل... إن «آهورا مزدا» ليس إلهاً محلياً فإن «آهورا مزدا»، الإله النور والمجرّد والمطلق، للعالم قاطبة إله!

كلا!... ليست ألوهة «مزدا» كأُلوهيات شتى للشرق القديم صبغتها المحلية وإنما أُلوهة «مزدا» صبغتها العالمية... ألوهة عالمية لا تختص بها هذه الهضبة ولا يحتكرها لها شعب يقف من «مزدا» بمثابة «المختار»!. كلا... إن «آهورا مزدا» وهو المكوّن الكون والكائنات، هو لكل الشعوب إله ومن ثم لكل شعب أن يعرفه لسانه تحت أي اسم له شاء تسمية، تعريف هذه الهضبة له بهذا الاسم الدّال على السيادة والحكمة فلن تختلف في كل بقاع الأرض إلاّ، باختلاف اللغات، من الإله الأسماء!

إلى هذا اللون من التفكير الإلهي، وسجّل هذا التوحيد النقي الـ «أفستا» حوّل زردشت التفكير الديني فقهاء وجماعة..

وإلى زردشت تلفَّت التفكير الديني يُرجِّع عنه ترديداً آي الـ «جاتها» فدوت العالمية الزردشتية في آفاق هذه الهضبة دوياً رجّعته أصداءً من بعد الأجيال ليكون السبب الجوهري في لون ذلك التسامح الديني الذي ميّز العنصر الإيراني عن غيره من العناصر عندما طلع بفتوحاته الحربية ولم يفرض دينه فرضاً على أصحاب غيره من الأديان، فلم يضرب جزية على أحد وبالسيف على أحد لم يهو ويتخذ حجة أنه للزردشتية، التي يعتبرها الدين الحق، للدين الحق غير تابع.

إلى هذا اللون من التفكير الإلهي الصافي والديني النقي حوّل زردشت هذه الهضبة غداة، بعد طويل وعميق تأمل في قمم «سبالان»، هبط مهابط بكتريا، أو «بلخ»، يرسل صوته الذي انطلق يحدد القيم الأخلاقية معلناً:

«إني أشيد بالفكر الطيِّب، الكلمة الطيِّبة، العمل الطيِّب!».

زردشت

إن صرح القيم الأخلاقية بناء تشيّده في النفس ثلاثة أركان:

«حُمادا» أو: التفكير الحميد.

«حَقاتا» أو: القول الحق أو الصدق.

«خفازشتا» أو: العمل الطيب أو الخير..

ولكن! ثمة سؤال يسأله الفكر، عبر الأجيال، لزردشت:

كيف يتسنى للإنسان أن يعلم أن الفكرة التي يراها حميدة هي حقاً الحميدة، وأن القول الذي يراه الحق هو حقيقة الحق وأن العمل الذي يراه خيراً هو حقاً الخير؟!

سؤال، لا يسأله الفكر لزردشت إلاّ وعليه يأتي من أنفاس الزردشتية الجواب بأن:

سهلة التفرقة فإن الباطل طبيعته الفناء وإن الخير طبيعته البقاء وإن التفكير السيىء أو النية السيئة فمردودة على نفس الإنسان ـ من ثم فسهلة معرفة الحقيقة أو التفرقة بين التفكير السيىء والحميد، والصدق والكذب والخير والشر.. سهلة التفرقة إذا حكّم الإنسان عقله وخالف هواه!

يا أيها الإنسان؛ حكّم العقل منك.. وخالف الهوى فيك.. هذا هو؛ التفكير الحميد، والقول الحق، والعمل الطيّب أو الخير!

هذا هو الصرح الأخلاقي الذي شيّده زردشت وأقام أُسسه على المبادىء الأخلاقية لمذهبه فشيّد، بتشييده، ديناً جديداً انسلخ عن الدين القديم الذي تناوله بالإصلاح...

أجل.. بهذه المبادىء التي طوت بها الزردشتية الشر ونشرت الخير وللخير أقامت صرحاً اتخذت له أساساً صريح الوجدانية بإعلانها أن «آهورا مزدا»، الإله الخير، للعالم قاطبة إله سرمديّ، تحوّل الإصلاح في الدين القديم إلى دين جديد.. دين جديد كوّنته ما قد ألقته شفاه زردشت من تعاليم رجعتها أصداءً أرجاء هذه الهضبة وتجاوبت بالأصداء آفاقها تردِّد بأن للكون إلهاً واحداً يتصف بالخيرية طبيعته السرمدية وماهيته المطلقية وإن إلى مرضاة الإله الأوحد يجب على الإنسان أن يعترف اعترافاً خالصاً بألوهية هذا الإله الأوحد فلا يُشرك معه إلهاً آخر، وأن يتخذ الخير ديناً وبذلك يعتنق ديناً هو بين الأديان طراً، لأنه دين الإله الحق، الدين الحق!

تعاليم، إلى ناحية عميقة من القلب البشري على هذه الهضبة لجّت وفي سويدائه استقرّت فردّدت نبضاته؛ إن إلى اعتناق الدين الحق يوجد سبيل يشقه ويعبّده: **«نقاء الفكر والعمل!»**.

زردشت

هذه هي النقطة الدقيقة التي تمثّل الإصلاح الزردشتي في الدين المزدي والتي انفصل بها المذهب الزردشتي عن الدين المزدي وتحول إلى دينٍ، فهي بإبطالها ألوهة «الإله الشر» وإحقاقها ألوهة «الإله الخير» وجعلها الدين الحق هو اتباع دين لإله الحق والالتزام بتكاليفه التي تنحصر في مرضاة الإله الخير عن طريق نقاء الفكر والعمل وبذلك جعلت الشريعة قوامها **عمل الخير** قد حوّلت المذهب الزردشتي من إصلاح في دين قديم محوره ألوهة ثنائية موزعة بين إله خير وإله شر إلى دين جديد محوره ألوهة فردية عالمية مركّزة ومتمركزة في إله واحد هو «الإله الخير»!

وهذه هي النواة الممثلة في هذا المذهب العقيدة الجوهرية التي غرسها زردشت واختار لها في «بلخ» البلاط نفسه تربة واعتنقها ديناً الملك الذي نعرفه في الشهنامه باسم جُشتاسب. وبإعلان جشتاسب اعتناقه لمذهب زردشت ديناً واعترافه بأن هذا الدين إنما هو الدين الحق، بدأت هذه النواة تنمو في تربة التُبّع الأول من قبيلة المجوس...

وبالتُبّع من قبيلة المجوس، الذين أخذوا على عاتقهم التبشير بالزردشتية وساروا في أرجاء هذه الهضبة داعين إلى اعتناق هذا الدين ديناً، أخذت الزردشتية تمتد في انتشار غامر ولتشتهر بسبب اعتناق قبيلة المجوس لها ديناً واضطلاعهم بالتبشير إليها وانتشارها عن طريقهم، باسم المجوسية.

وفي اتباع للتبشير المجوسي بدأت هذه الهضبة تتحوّل إلى الزردشتية وتتخذها ديناً به انقلبت لزردشت تعاليم من إصلاح في الدين المزدي القديم إلى دين جديد، سجلته يد الزمن باسم:

الدين الزردشتي

على دنيا الدين طلع هذا الدين الجديد الذي ما سجلته في السجل الديني يد الزمن إلاّ وراحت، وهي تحيك الأيام وتنتظمها إلى أجيال فقرون، تجمع من حوله الأتباع الذين بدأوا يورثونه لمتعاقب الأعقاب، فعن السلف بدأ توارث الخلف لهذا الدين الذي ما بدأ يتغلغل إلى السويداء ويتمكن من القلب الإنساني علي هذه الهضبة إلاّ وقام له لاهوت ينتظم شؤونه ويتعهد أمره، انتظاماً وتعهداً تحوّل به الكَلِم الزردشتيِ من تعاليم إلى آيِ تصبغها صبغة التنزيل كما تحول به زردشت من مصلح ديني يرفع الكَلِم إلى الإله إلى نبي ورسول عليه تنزَّل الوحي من السماء وله قد كلَّم الإله، فمن أرجاء الصروح الفقهية انطلق النداء وراء النداء يودع في وعي هذه الهضبة:

إن الإله الخير قد بعث زردشت بشيراً بالدين الحق!.. بزردشت ألحق الزردشتيون صفة الرسالة وصبغة النبوة...

ولكن!.. لئن ألحق الزردشتيون صفة الرسالة وصبغة النبوة بزردشت فإن زردشت لم يكن عطلاً من الصفات التي تحتّمها صفة النبوة ولا من الشروط التي تشترطها الرسالة الصحيحة فصفحة حياة زردشت صفحة نقية من الأوزار التي تثقل الظهر وليس ذلك إلاّ لأن زردشت قد جاء مثلاً صحيحاً للحياة الفاضلة، فقد جاء ناهياً عن حياة الغزو وداعياً إلى حياة السلم ومانحاً الناس حرية الاختيار في اعتناق مذهبه أو رفضه فهو لم يقسر أحداً على اتباع تعاليمه ولا لوّح بسيف لأحد تهاوى به على أثره يجبره الخوف على اعتناق مذهبه، وإنما

سلك زردشت في دعوته إلى دعوته المسلك المثالي.. الصحيح لكل دعوة صادقة بأن ترك الكَلِم الصادر من القلب يخترق القلب...

كلا! لم يُقسر زردشت قومه على قبول مذهبه ولم يستن لهم سياسة السيف شأن الساسة الفاتحين الذين حملوا السيف وادّعوا أن هناك عوامل روحانية قوية تملأ من الجوانب..

كلا!.. ما كان زردشت غازياً اتخذ الدين وسيلة للغزو ولا حصر أطماعه ملك ولا حدّ أفقه حكم دنيوي اتخذ إليه الدعوة بالرسالة الإلهية أداة، فقد هبّ ناهياً عن الغزو وعن مذهبه أخذ يُجادل بما أوتيه من ملكة الإقناع تدفعه عوامل روحانية صادقة تملأ منه الجوانب إلى الاضطلاع بنشر دعوته تعاليم يترك أمر قبولها أو رفضها أمراً اختيارياً بين الناس شأن دُعاة الإصلاح الصادقين في دعواهم وشأن الروحانيين الذين تملأ العوامل الروحانية القوية منهم الجوانب...

كلا! على قومه من الإيرانيين لم يهو بالسيف زردشت يجبرهم على اعتناق دعوته ديناً والاعتراف له صاغرين بالرسالة الإلهية! كلا ولا بالسيف هوى على أعداء بلاده من التورانيين هؤلاء الذين نهاهم عن الغزو ومن بيدهم هوى، نفسه، شهيداً!

أجل.. على مذبح الدعوة الصادقة هوى زردشت شهيداً بيدٍ تورانية طعنته من الخلف في اللحظة التي كان فيها غارقاً يتعبّد «الخير» ويسأله: «يا مزدا! متى تشرق شمس انتصار الخير على العالم؟!».

الآي ٤٦ من «اليآسنا»

إن رُشاش الدم الزردشتي المتناثر كان شمس هذا الانتصار فقد زاد هذا الاستشهاد في مكانته وفي تأييد مذهبه بل كان العامل الجوهري في نشر دعوته الخيرية، فقد أمر جُشْتاسب أن تسجّل التعاليم الزردشتية وأن يحملها المبشّرون إلى سائر مناحي هذه الهضبة معلمين أن الإله الخير قد بعث زردشت بشيراً بالخير وداعياً إلى الدين الحق!

هذا هو الدافع الذي انطلق بسببه المبشّرون الحاملون التعاليم الزردشتية يجوبون الأنحاء من هذه الهضبة ينفذون الوصية الزردشتية بغرس الدين الحق في النفوس بوسيلة: المعرفة.

أجل.. إلى اتخاذ المعرفة وسيلة إلى غرس الإيمان الحق في القلوب كان قد علّم زردشت وباتخاذ هذه الوسيلة كان قد أوصى فيقيناً أن ليس كمثل المعرفة وسيلة إلى هداية الناس وإرشادهم إلى الطريق القويم، فالمعرفة إنما الوسيلة الوحيدة إلى تحكيم العقل والتمييز بين الباطل والحق وإظهار الخطأ من الصواب، ودين زردشت إنما دين عملي لا يوافق على السلبية

في الدين، وللسبب كان زردشت قد جعل الوسيلة إلى إرشاد الناس وهدايتهم هذه الوسيلة الإيجابية التي لا تأتي ولا ترسخ إلا عن طريق المعرفة، وطريق المعرفة: التعليم.

بالمعرفة عن طريق التعليم، وليس بالقصر والشدة يلج الإيمان الصحيح إلى القلوب ـ وبالحجة الدامغة والمنطق السليم، وليس بالقتال، يرسخ الدين الحق بين الضلوع ـ ولذا نرى زردشت قد عمد في البرنامج الذي أعده للتعليم لأن يرى أن التعليم جزء من الدين، ومن ثم كان نداؤه بأن:

يقيناً أن المرء الذي يعمل الخير ويتجنّب ويقاوم الشر هو المؤمن، ولكنه ليس بكامل الإيمان فإن من يرى الشر ويسكت عنه اكتفاءً بأنه هو خيِّر بنفسه فهذا آثم وإثمه لا يقل عن إثم نفس من قد ارتكب الشر ذاته!.. إن على الإنسان أن يؤدي صدقتين؛ الصدقة العملية والصدقة العلمية... على الإنسان أن يؤدي الصدقة العملية فإن: «من يعاون الفقير البائس يسهم في إقامة دولة آهورا مزدا».

زردشت

«إن الذي لا يجود بماله مع ما أوتي من سعة الرزق سوف يساق إلى هاوية الفقر! سوقاً! ولتنصبّ المصائب انصباباً على الأشحاء الذين لا يتصدقون!»

زردشت

وعلى الإنسان أن يؤدي الصدقة العلمية فإن؛ الصدقة إنما كلمة لا تقتصر على الحاجة المادية لدى المعوزين وإنما الصدقة العلمية تجب للجهلاء على أهل المعرفة لتسد الحاجة العقلية والروحية!

إن خير خدمة يؤديها المؤمن للمجتمع ليست في أن يؤمن بوحدانية الإله الخير فحسب وأن يكون مؤمناً بذاته خيِّراً ومستقيماً ولكن هي أن يقوِّم عن طريق التعليم انحراف أفراد المجتمع الذين حادوا عن الخلق الطيِّب حتى يزول من نفس الأفراد الجهل وتذوب في اضمحلال من هذه النفس شهوة الشهوات..

أجل... لنشر الهداية بين الناس كان زردشت قد اتخذ «المعرفة» وسيلة وأوصى كل فرد من أهل المعرفة أن يكون طبيباً للنفس، ولذا فرّق بين طبيب الجسد وطبيب النفس، لذا قارن بين مرض الجسد وبين مرض النفس ولذا علّم أن الآثم والمنحرف عن الخلق الطيِّب هو المريض نفسياً وأن الرذائل، كالجهل والخبث والغرور والغضب والشهوة، هي الأسس للأمراض النفسية وأنها أشد فتكاً بالإنسان من العلل الجسمانية، من ثم فهي جديرة بالعلاج عن طريق التعليم وإلقاء بذرة حب المعرفة في تربة النفس.

وللسبب، وعن طريق «التعليم» لا طريق الفتوح، انطلق المبشّرون إلى سائر مناحي هذه الهضبة يعلّمون:

الشريعة الزردشتية

إلى مجتمع ينقسم إلى طبقات ثلاث يكوّن الأولى رجال الدين وهم الذين تقوم عليهم الدولة فهم الذين أقاموا الأسس التي بُني عليها المجتمع وهم الذين يقومون بوظيفة القضاء ـ ويكوّن الثانية المحاربون وهم الذين يذودون عن الوطن ـ ويكوّن الثالثة المجموعة التي يتألف منها الشعب وهم الحراثون، رجّعت أفواه المبشّرين الصوت الزردشتي تعليماً يعلّم:

إن الوطن الناهض مجموعة من الأسرات وإن على المؤمنين تكوين الأسرة... إن دين «مزاد» ينهى عن الفحشاء ولذلك فالرباط العائلي، عن طريق الزواج، جزء من أوامر الدين فإن المكان الوحيد الذي تبلغ فيه الدنيا أقصى سعادتها هو «البيت»...

ومن شفاه المبشّرين انطلق الصوت يقول: إن زردشت قد سأل ربه عن المكان الذي تبلغ فيه الدنيا أقصى سعادتها فأجابه:

«إنه البيت الذي يضم زوجة صالحة ويمرح فيه أطفال وتزداد فيه التقوى.

إنه البيت الذي تتناسل فيه الماشية ويكثر فيه غذاء الحيوان ويكون الكلب فيه سعيداً!».

صورة قريرة للبيت المستقر الهانيء السعيد. راحت شفاه المبشّرين تطبعها على قماش كل مخيلة وتستثير بها الحنين في كل قلب إلى المكان الذي تبلغ فيه الدنيا أقصى سعادتها حتى تستقر الأسرة ويستقر باستقرارها هذا الوطن، فإن إلى العناية بالأسرة امتد الإصلاح الزردشتي في رحمة شملت العناية بالحيوانات النافعة، ومن علامات هذه الرحمة أن نرى أن للطب البيطري في الـ «أفستا» نصيباً كبيراً...

أجل... إلى سائر طبقات المجتمع اتجه صوت المبشرين معلماً شريعة تنحصر في الفضيلة، اتجاهه إلى كل فرد من أفراد هذا المجتمع له يعلم؛ إن شريعة مزدا شريعة يسرة غير عسرة فهي شريعة لا تكلفك بمادي التكاليف ولا تطلب منك تقدمات ولا محرقات ولا قرابين... لا تطلب منك إلاّ **نفسك**!... ولا تطلب من نفسك إلا نقاء الفكر والعمل!

إن **نقاء الفكر والعمل** خير تقدمة تقدمها «للخير» وإشعال النفس منك بلهب الحبُّ الإلهي خير محرقة تستطيع أن ترفعها إلى الإله الخير!

كلا!.. لا تكلفك شريعة «مزدا» بتكاليف مادية فلا تفرض عليك طقوساً ولا تلزمك بشعائر تؤديها وأنت من «نقاء الفكر والعمل» خالي الوفاض، بل إن «شريعة مزدا» تلقي عن

كاهلك ثقل وأثقال هذه التكاليف ومما قد قيدك به الدين القديم تفك عنك هذه القيود لتربط بينك وبين «الخير» برباط الخير، فلا تطلب منك ولا تكلفك ولا تلزمك إلا بشيء واحد هو؛ أن تشعل نور الخير في داخلك!

من ثم فتذكر! تذكر! وأنت ترفع ناظريك إلى القِبْلة النورية في لمحات الشفق وخفقات الغسق وأنت تشعل النار ليلاً تذكره لك بنوره المحتجب أن عليك فريضة واحدة هي أن تحرص طيلة يومك، نهاراً وليلاً، على أن **تظل في داخلك مُنيرة جُذوة الخير!**

هذه هي العبادة التي يطلبها منك «مزدا»، فليس إلا بإقامتك في قلبك للخير صرحاً تقيم لمزدا دين شريعته تنحصر في نقاء الفكر والعمل...

عن طريق نقاء الفكر والعمل يطلب منك «مزدا» الاتجاه بالعبادة إليه وليس إلا عن هذا الطريق يطلب منك «مزدا» إليه الاتجاه، فعنك قد أُلقى «مزدا» القيود المادية التي قد قيدك بها الدين القديم إلقاءً أبى به أن يقيدك في الصلاة إليه بصلاة ظاهرية.. عنك يُلقي مزدا كل القيود حتى أنه يلقي عنك قيد الصوم فلا يكلفك دينه الصوم بل عليك يُحرّم الصوم!

أجل.. كالبودها، في هذه النقطة، كان زردشت ومنهما قد تساوت في هذا المضمار النظرة فكلاهما قد رأى فيما يأتي به الصوم من إرهاق للجسد تعطيلاً لعمل العقل وعلى العقل إنما تقوم ديانتهما فإذا كانت البوذية دين ترفع نفسي وعمل في حقل الحسنات فإن مثلها الزردشتية دين كفاح نفسي وعمل روحي ونظام دنيوي لا يتطلّب إلاّ عمل العقل، وعمل العقل على صحة البدن يعتمد.

للسبب، حرّم زردشت الصوم على الزردشتيين فزردشت نفسه الذي اتخذ التعليم والطب النفساني لا السيف والقتال وسيلة لهداية الناس شأن كل مصلح صادق وذي رسالة روحية صادقة وكان لعلل النفس طبيباً إنما كان أيضاً لعلل الجسد طبيباً فنفسه كان زردشت طبيباً وإلى طب الجسد امتد إصلاحه وشريعته تنص على الشروط التي ينبغي أن تتوفر في طبيب الجسد فهي تنص على أن على طبيب الجسد أن يعرف تشريح أعضاء الجسم وألا يزاول العلاج إلا بعد معرفة تامة بأنواع الأدوية وأسماء الأعشاب المختلفة وخصائصها وأن يحرم من ممارسة الطب إذا عالج ثلاثة أشخاص فماتوا!

لا غرو من ثم أن يكون للطب الزردشتي أثر كبير في ازدهار علوم الطب في إيران واشتهار هذه الهضبة بهذا النوع من العلم وأن يمتد هذا التاريخ على مدى الزمن حتى كانت مدرسة جند يسابور من أهم مدارس الطب قبل الإسلام وظلّت كذلك إلى القرون الإسلامية الأولى..

أجل... إلى سائر طبقات المجتمع وإلى فرد في هذه الأسرة العالمية الكبرى اتجه الصوت الزردشتي من خلال أفواه المبشّرين يعلّم شريعة عملية تنحصر مبادئها في الائتمار بمكارم الأخلاق وليتجه هذا الصوت من أفواه المبشرين إلى هذه المجموعة الكبيرة التي يتألف منها غالبية الشعب يدعوها إلى وضع دعائم الأسرة على أسس قوية من قواعد الأخلاق ويضع بينه وبين الفراغ سدوداً ويحول بينها وما يتأتى عن الفراغ من شرور لذلك فهو يحثّها على السعي والعمل، ولما كان أهم عمل هذه الطبقة، طبقة الحراثين، هو الزراعة فإن إلى الزراعة نظر زردشت على أنها العامل الأول لنهضة الأمة لأنها توفّر للأمة قوتها.. وتقيها، في سنين الجفاف، شر القحط والقحط؟ القحط باعث على إثارة شهوات الغزو في النفس وباعث على الحروب ومن ثم كانت الزراعة عامة من أهم النواحي التي دعا زردشت أتباعه إلى النهوض بها منادياً:

«أيها الناس! أفيقوا وانهضوا، وسبّحوا بخير التقوى، واطردوا الشياطين وإلا فإن الكسل، الممدود اليدين، الذي يثبط همم الناس كلها يعود فينقض عليكم!».

ومن ثم فانطلاق أصوات المبشرين تعلّم هذه الطبقة من المجتمع؛ أن زردشت قد سأل ربه عن خير الطرق لإعلاء كلمة دين مزدا فأجابه:

«إنها زراعة القمح! فمن يزرع القمح يزرع الاستقامة ويعين دين مزدا».

فإن؛ «حين تبذر حبوب القمح تذعر الشياطين.. وحين تنبت تضطرب وتمرض.. وحين ترى سيقانها تبكي.. وحين ترى سنابلها تدير ظهرها!».

من «الأفستا»

في الزراعة وجد زردشت أهم سلاح لمحاربة هوى الجماعات أولاً، والقضاء بالتالي على شهوة الغزو وعلى البطالة مولدة الشهوة والعار وكليهما مولّد الدمار، فهو قد دعا إلى العمل لفلاحة الأرض وزرعها محرّماً على المؤمن قطع شجرة ما لم يغرس شجرتين قبل أن يمد يده بالقطع، ومن ثم حرّمت الشريعة الزردشتية على المؤمن إهمال الأرض وفرضت عليه إصلاحها... فريضة أتت بأثرها الذي نراه، فيما بعد، في قانون أردشير، فمن نصوص هذا القانون أن كانت تُنزع ملكية الأرض البور التي لم يفلحها صاحبها وتعطى لِمَنْ يقدر على إصطلاحها وزرعها...

هذه هي أهم مبادىء الشريعة الزردشتية الشريعة العملية لرسالة روحية صادقة عملت على الحق الصحيح والوضع الجدير بالرسالات الروحية الصادقة الدعوة فهي.. رسالة لم تنشر دينها وشريعتها وتعاليمها إلا عن طريق **المعرفة** وبوسيلة **التعليم** وهذا ما يميّز الدعوات الروحية

فليست الدعوات الروحية في حاجة إلى سيفٍ واستعباد وإذلال الأعناق فإنما هذا شأن الدعوات السياسية ذات الأطماع الدنيوية والأهداف الاستعمارية وليست هذه المقارنة بحاجة إلى إثبات صحتها بل وفي غير حاجة هي إلى مناقشة أو دليل وإلاّ فما حاجة الدعوات الروحية إلى نشر تعاليمها عن طريق القتال وكلمة الروحية إنما بما تحمله من مدلول تُجافي الوسائل التي تتخذها الدعوات السياسية الشأن، كان شأن الدعوات الروحية في مختلف بقاع العالم قبل وبعد هذه الدعوة التي عملت على النحو الجدير بالرسالات الروحية الصادقة فلم تحارب الغزو بالغزو ولم تقاتل القتل بالقتل وإنما تغلغلت من خلال التعليم إلى تربة النفس واتخذت الخير درءاً ودرعاً وشيّدت صرح الاستقامة والفضيلة في الأسرة الكبرى عن طريق الأسرات الصغيرة وفي الأسرات الصغيرة عن طريق الأفراد بأن حثتهم بأن يعملوا لدنياهم وآخرتهم وعلمتهم شريعة عملية روحية لدين عملي روحي قاد شعب هذه الهضبة، من خلال التعليم، إلى الاتجاه بسلوكه إلى مرضاة إله واحد عالمي صفته الخيرية وماهيته نور على نور.

ومن ثم فإذا ما دوّت أرجاء هذه الهضبة بأن الإله الخيِّر قد بعث زردشت من لدنه رسولاً بشيراً بالدين الحق فليس إلا ليقوم في أرجاء كل قلب الصرح الأخلاقي الزردشتي وليس إلا لتقوم قويمة بين الضلوع لهذا الدين شريعة مبادئها تعاليم تُلقيها، في ترديدٍ، شفة إلى شفة تقول:

إن الرسالة الزردشتية لك تقول:

إن الكون ساحة عليها الخير والشر في صراع دائم... في العالم! في الأسرة!.. في نفس الإنسان!.. وعلى الإنسان أن يُحارب في هذه الميادين الثلاثة والنصر بجانبه **إذا بدأ بنفسه**.. إن جهاد النفس أشق الجهاد!

بهذا المزج الفلسفي الأخلاقي المغلِّب الخير على الشر أصبح تعميم الخير هو الهدف وأصبحت إبادة الشر هي الغاية من إصابة الهدف..

ولإصابة هذا الهدف راحت أرجاء هذه الهضبة تردِّد عن زردشت نداءه الذي رجّ أرجاء هذه الهضبة غداة اتجه إلى الإنسان يناديه:

يا أيها الإنسان! اعمل الخير ولا تنتظر عليه الجزاء فإن الخير يحمل جزاؤه في نفسه. ألا ترى أن الحياة إنما ساحة في فسحتها يأخذ كل من القصاص والجزاء مكانه على الأرض قبل «فيما بعد»؟!

من ثم يا أيها الإنسان! استأصل عامل الشر من نفسك ونمّ في نفسك بذرة الخير وإنك بين العاملين حرّ الاختيار!

بين العاملين أنت، يا أيها الإنسان حر الاختيار فقد جعل لك خالقك عقلاً وأعطاك القلم بيدك وعلّمك به ما لم تكن تعلم وتركك تسطّر في لوحه ما تريد بعد أن بيّن لك طرق الخير وأمرك باتباعها وبيّن لك طرق الشر وأمرك بمقاومتها عن طريق هذا العقل الذي أعطاك إياه وهذا الضمير الذي أودعه فيك..

نداء، إليه أصغى المسمع البشري على هذه الهضبة وما استوعبه منه التفكير حتى راح الوجدان البشري لإصابة هذا الهدف يسعى..

بيد أن عند هذه النقطة، القائلة بحرية الاختيار التي لا يكل بها زردشت أمر الهداية والضلال إلى الإله تارة وتارة إلى مشيئة الإنسان وإنما يلتزم مبدأ واحداً يقول بحرية الاختيار وينفي نفياً قاطعاً فكرة التواكل، فلا تواكل عند زردشت وإنما حرية الاختيار ونتائجها جزاء أو قصاص، هنا وفيما بعد، يلج بنا التفكير إلى:

مشكلة الثواب والعقاب في الدين الزردشتي

إن الإنسان كأي مخلوق من «الخيّر» ومن ثم فاتجاهه بفطرته نحو الخير وابتعادته بهذه الفطرة عن الشر، ولكن «الباري» قد ترك للمرء حرية الاختيار، فمن القوة والإرادة قد منح «مزدا» الإنسان مالإرادته نفسها يكاد يكون مساوياً ليكفل له كامل الحرية في اختيار أي المصير لنفسه أراد، وليس على ذلك من دليل أدلّ من هذه الآية المنادية:

«يا أيها الناس؛ أمامكم طريقان... تأملوا بذهن صافٍ هذين الطريقين وفيهما بوضوح انظروا حتى تختاروا أحدهما... إن مصير كل واحد منكما يتكوّن تبعاً لهذا الاختيار!».

زردشت الآية الثلاثون من «١ ـ يآسنا»

يا أيها الناس؛ إن حياتكم على الأرض، مهما طالت هنا، مصيرها إلى «هناك».. إلى رحاب خالقكم «الخير» ستعودون، وعلى اختياركم أحد الطريقين ستحاسبون حساباً تحتمه العدالة الإلهية، فإما تجازون وإما تعاقبون، من ثم فاعلموا أن:

«بين الخير والشر قد فرّق الحكماء بيد أن كثيراً من الناس قد أساءوا بينهما الاختيار فتنبّهوا!... في نهاية الأشياء سيكون أردأ أنواع الوجود من نصيب التابعين الشر، كما سيكون أحسنه من نصيب التابعين الخير!».

الآية الثلاثون من «١ ـ يآسنا»

هنا يسأل الفكر؛ أي الوجود هذا الوجود الذي تعد به وبه تتوعّد الزردشتية، كدين؟ من هذه الآي التي تنطلق صريحة تصرّح بحرية الاختيار وتحدّد مشكلة الثواب والعقاب يأتي الجواب فهذه الآي.. إنما تأخذنا إلى أهم المشكلات الدينية:

مشكلة النفس وعقيدة الخلود في الدين الزردشتي

عن النفس لا نصادف في التفكير الديني القديم نظرة أو معتقداً قسم الشخصية البشرية كما قسّمها التفكير الديني الجديد الذي يطالعنا به متأخر الآي وإن لم يكن في حقيقته إلا تعبيراً لما كان في الأذهان ماثل من أن إلى ثنائية تنقسم الشخصية البشرية وتتألف من: جسم وروح.

إن الجسم يتكوّن من اللحم والعظم والقوة الحيوية وهذه هي الصورة الظاهرة أو القالب وأما الروح فتتألف من وحدة تضمها أقسام النفس وهي: الإلهام والعقل، الضمير الخلقي، الوجدان والشعور والإحساس.. وهذه الوحدة، بما تضمه من أقسام، إنما هي في حقيقتها الإنسان فليس الكائن البشري بالصورة الظاهرة أو القالب فما الصورة الظاهرة أو القالب إلاّ المظهر من الإنسان وأما هو فهو الروح، والروح إنما الذات، والذات إنما النفس!

إن الإنسان في حقيقته إنما نفس وما الجسم، الصورة المادية، إلا للنفس شبهاً وإن تكن إذا قورنت بالجسد تبدو كشبح أو؛ «فرافاشي».

مخلوق ثنائي التكوين في كائن واحد إنما الإنسان، فمن هاتين الصورتين، الصورة الجوهرية والصورة المادية، يتكوّن الإنسان، وليس هناك من دليل أدلّ على أن الإنسان يتكوّن من هاتين الصورتين وأنه مخلوق ثنائي في كائن واحد من أنه يعمل بروحه في العالم اللامادي غير المرئي، ويعمل بحواسه في عالم المادة المرئي ومن أن كلا العملين مصدرهما كائن واحد هو الإنسان وتجمعهما أداة واحدة هي العقل مصدرها ومحركها إنما النفس!

بهذا التكوين الثنائي يحيا الكائن الحي على الأرض.. يعيش بجسد مادي حفت به للغرائز فاني ملذات وبروح طبيعتها للعقل خالد اللذات وهو بين هذين العاملين، عامل الغريزة وعامل العقل، في جهادٍ فإن له في اتباع أي العاملين حرية الاختيار..

ولكن! كل ما يأتي به الإنسان من عمل وكل ما يجول في تفكيره من فكر فعليه يحصى في: «كتاب الحياة»

إن على الإنسان موكلة من الملائكة «حفظة» تحصي عليه السيئات وتحسب له الحسنات وتسطرها في هذا «الكتاب» الذي سيجده الإنسان أمامه منشوراً: «يوم البعث»

سيجد الإنسان أعماله وفكره مسجلة، عليه وله، في هذا الكتاب الذي جرت بتسطيره أقلام «الحفظة» من الملائكة التي تحصي أعماله وفكره في هذه الحياة حتى تنتهي به مراحل العمر إلى النهاية الطبيعية لكل كائن حي... حتى، بالموت، تنفصل الروح عن الجسم لتنطلق غير مقيدة بقيود الجسد!

هنا يسائل الفكر الزردشتية: إلى أين ستنطلق الروح؟

ومن أنفاس الزردشتية يأتي الجواب:

بجوار الجسم تظل النفس معلقة ثلاثة أيام وفي فجر اليوم الرابع تهبّ عليها الرياح... ريح عطرة إذا كانت النفس خيِّرة، وغير عطرة إذا كانت شريرة، ليدفعها هذا الريح إلى موضع فيه تُلقى وفيه تَلقى إما كائناً حسناً وإما كائناً قبيحاً وليس كلاهما بحقيقي كائن فليس كلاهما إلا مظهراً وصورة كوّنتها منه الأعمال والفِكَر، وهذان قد كوّنهما منه: الضمير!

لقد قاد «الضمير» من الإنسان الإنسان إلى حيث سيجد عمله حاضراً فقد قاده إلى حيث يلقى أمامه منصوباً: الميزان

وأمامه سيجد الإنسان ممدوداً؛ «شِنْفاد» أو ؛ الصراط!.. لقد قاد الضمير الإنسان إلى: الحساب.

لقد قاد الضمير الإنسان إلى حيث تجري محاكمته أمام قضاة ثلاثة يرأسهم «ميتهرا»، الذي هوى من مرتبة الربوبية كرب عدالة إلى ملك عدالة وملك الحساب الأخير وأمام القضاة الثلاثة يجد منصوباً الميزان وحينذاك، حينذاك فقط يعلم المرء أن ما قد أتى من أعمال وما قد فكّر من فِكَر، مهما دقّت، عليها سيُحاسب أدقّ حساب وستوزن دقيق الوزن.. ألم يُزوّده «مزدا» بالوجدان؟ ويُسلحه ضد الغرائز بالعقل؟!

ألم تك له الحرية ومطلق الإرادة في اختيار الخير أو الشر؟!

حينذاك سيدرك الإنسان أنه لم يُترك سُدى وإنما عليه أُحصيت أعماله وإن عليها في هذا اليوم، يوم الحساب، سيحاسب حساباً عدلاً...

كلا!.. ليس هناك اعتراف سلبي كما في مصر، ولا اعتراف إيجابي كما عند الكلدان، ولا ثواب وعقاب صيروري كما في الهند، وإنما... إنما، وهناك ملائكة به موكلة عليه كانت تحصي سيئاته وحسناته وتسجلها له وعليه في كتاب، سيؤتى بهذا «الكتاب» عند «الحساب» فتوضع في أحد كفتي «الميزان» الحسنات وفي الأخرى السيئات... وتوزن الأعمال من خير وشر، وبناءً على هبوط كفة وصعود كفة أو تساوي كفّة بكفة يصدر الحكم ويكون المصير!

كلا! كلا، لا شفاعة يومذاك تُرجى، كلا ولا غفران يُرجى يومذاك فيما لا غفران إلا كلمة جوفاء جافة المعنى وما الرحمة إلا وجه لسليم العدالة غير سليم ولصحيح العدالة غير صحيح فإنما على قوائم العدل يقوم الحساب، وعلى **أسس العدالة** تصدر الأحكام!.. ولهذا ستُحاسب بدقة، دقيق الأعمال ليلقى المرء جزاء عدلاً على كل ما قد أتى من أعمال وليحكم عليه طبقاً لموازينها خفت أم ثقلت! ليتلو هذا الأمر بالمرور فوق الصراط...

والصراط؟ الصراط إنما مدٌّ فوق هاوية الجحيم.. هاوية قرارها الظلمة من فوقها تندلع لهب: النار!

ولكن... لئن كان الصراط مداً فوق هاوية «الجحيم» فإنما هو أيضاً مدٌّ تؤدي نهايته إلى جنة المأوى الـ ؛«بردوس» أو؛ **الفردوس**! على كل إنسان، حتماً، ورود «الصراط» والمرور فوق هاوية الجحيم... أمر، كان على العدالة الإلهية حتماً مقضياً... ومورد منه لن يخشى المؤمن المعتنق الدين الحق؟

كلا لن يخشى المؤمن لهذا المورود وروداً! فالمورود إنما مورد منه الخير لن يخشى، فللمؤمن الخيِّر يتسع حتى يكون عريضاً سهل المجاز وأما للكافر وغير الخيِّر فيضيق حتى يكون أرفع من الشعرة وأحدّ من السيف!

إن من كفر بوحدانية «مزدا» واقترف شراً وعمل باطلاً فإلى الهاوية سيهوي.. وإلى هاوية الهوة قد هوى ستتلقفه زبانية الجحيم وتضعه إلى زمرة الشياطين!

وأما من آمن بوحدانية «مزدا» وعمل صالحاً وعاش خيِّراً فإلى الفردوس سيأوي.. إلى جنات ليس فيها حر ولا زمهرير.. إلى مكان يستقبله فيه «مزدا»، وبين ملائكته وعباده الصالحين ينزله منزلاً كريماً!

وأما من **تعادلت** موازينه وتكافأت كفة بكفة أعماله وساوت الحسنات من أعماله السيئات فمكانه، كـ «كريز أشيا» محل التوازن، أو **الأعراف**.

في الأعراف، هذا المكان الذي يتوسط الجنة والنار، ستبقى الروح حتى اليوم الذي فيه سيعدم الإله الخيِّر روح الشر بأن يطهر الأرض بسيل من المعادن المذابة وحينئذٍ ينتصر الخير ويحترق الأصل المظلم فيستقر السلام العام.

في هذه الأماكن الثلاثة تنتظر الأرواح حتى: يوم القيامة

ويوم القيامة؟.... يوم القيامة إنما اليوم الذي ستقوم فيه من مضاجعها الأجسام، فاليوم إنما:

يوم البعث! إن يوم البعث إنما يوم فيه سيرد «مزدا» إلى الأرواح حياتها الأولى... يوم، يبعث فيه «مزدا» الأجسام الفانية جميعاً ويحيي فيه العظام التي كانت قد تحوّلت رميماً!.. يوم، فيه سيعود الجسد وتعود الروح إلى تلك الصورة أو القالب الذي كان قد لحقه الفناء! إن يوم البعث إنما اليوم الذي تُحشر فيه جميعاً الأجساد فهو: يوم الحشر!

في «يوم الحشر» سيكون الحساب الأخير وسيكون أهل المعرفة أكثر الناس مسؤولية

وسؤالاً. فإن المعلم مسؤول «يوم الحشر» عن إهماله في إرشاد من قد أجرم وعن الصراط السوي كان قد انحرف:

«ولسوف يرى كل امرئ أعماله، حسنة أو قبيحة، ولسوف يتميز المجرم يوم الحشر ويبقى ظاهراً ظهور النعجة البيضاء وسط النعاج السود!.. ويعتب المجرم حينذاك على خلانه الذين عملوا صالحاً في دنياهم وكان لهم من المعرفة نصيب ولم يأبهوا بهدايته وتقويم خلقه ويقول له: لماذا نسيتموني؟ لماذا تركتموني ولم تعلموني طريق الفضائل؟!

وعندئذٍ يترك خلانه الأخيار مكانهم في الجمع وقد علاهم الخجل وقد ختم اللّه على قلوبهم وألسنتهم لما فرطوا من حق إرشاد صاحبهم!».

زردشت

يقيناً إن هذا «اليوم» يوم عسير ففي هذا «اليوم»، يوم القيامة والبعث والحشر، سيكون الحساب الأخير «فاليوم» إنما:

الآخرة! في هذا اليوم سيمحق «مزدا» الباطل محقاً ويمنح «مزدا» لا لمن يشاء وإنما لمن يستحق منحة: الخلود!

هذه هي مشكلة النفس وعقيدة الخلود التي تمثّل ركناً مهماً ووطيداً من أركان صرح الدين الزردشتي.. وهذه هي تعاليم الدين الزردشتي التي انسابت من شفاه المبشرين وهم يذرعون أرجاء هذه الهضبة يتعهدون بالإنماء بذرة الخير في كل قلب ويردّدون الصوت الزردشتي أصداء تنادي:

يا أيها الإنسان!

«اصغ جيداً إلى الحقيقة؛ تأمل بذهن صافٍ الطريقين وتنبّه إلى أي الطريقين أسلم لك يوم الحساب!».

الآي ٣٠ من «الجاتها يآسنا»

بيد أن لئن من أفواه المبشرين تردد الصوت الزردشتي أصداء فإن إلى الناس كافة اتجهت أصوات المبشرين لهم تنادي ذلك النداء الذي ترك دويه في أذهانهم خطير أثره ففي أرجاء الذهن الجماعي دوى من المبشرين النداء:

أيها الناس، ابذروا الخير لتجنوه يوم الحساب فإن «الجاتها»، بكم تهيب:

إن يوم الحساب ليس ببعيد: فالعالم قد قارب الانتهاء وانتهاؤه موقوت بموت زردشت! أجل... في الجزء القديم من الزندافستا يأتي في «الجاتها» هذا التصريح الجازم بأن نهاية العالم

موقوتة بنهاية حياة زردشت على الأرض و«الجاتها» إذ تجعل زردشت نبياً أرسله الإله بشيراً بالخير للناس هادياً وبيوم الحساب نذيراً، فإنها تجعله لا فحسب نبياً بين الأنبياء وبين الرسل رسولاً وإنما تجعله نبياً ورسولاً جاء في آخر الزمان ومن ثم طلعت بهذا النداء على دنيا الدين لأول مرة:

عقيدة نبي ورسول آخر الزمان

عن نفسه في «الجاتها» قيل إن زردشت قال:

«أيها الناس؛ إنني رسول اللّه إليكم... لهدايتكم بعثني الإله في آخر الزمان... أراد أن يختتم بي هذه الحياة الدنيا فجئت إلى الحق هادياً ولأزيل ما قد علق بالدين من أوشاب... بشيراً ونذيراً بهذه النهاية المقتربة جئت، ولهذا يدفعني اللّه في حماسة إلى تأدية الرسالة بأسرع ما يستطاع ويأمرني بالصدوع لأمره!».

من هذا القول، الذي قيل عن زردشت إنه عن نفسه له قد قال، استمد المبشرون مادة هذا النداء الذي ألقوه تخويفاً للناس وتحذيراً، والذي بدوره عقد في النفس الجماعية عقيدة كل الجدة جديدة كما في طوايا الطوية البشرية غرس المبشرون، بزردشت هذه العقيدة...

أجل... صفحات الـ «جاتها» سجل هذه العقيدة... عقيدة نبي هو «خاتم الأنبياء» ورسول هو «رسول آخر الزمان»!

ء عقيدة!... عقيدة عقدت بين الجوانب وفي تشبث تشبثت بها المخيلة الجماعية ليزيدها بها تشبثاً لا فحسب صفة الرسالة الإلهية التي صبغ بها المبشرون رسالة زردشت الإصلاحية وإنما ما حفروه في هذه المخيلة من صورة لزردشت طلعت بها على دنيا الدين عقيدة أخرى جديدة:

عقيدة الإسراء الزردشتي إلى السماء

في المخيلة الجماعية حفر المبشرون صورة لزردشت يتراءى تحتها زردشت:

المختار بين البشر والمصطفى من الناس الذي اصطفاه الإله لتبليغ رسالته الخيرية إلى الناس كافة، فقد كان اللّه يكلمه وحياً به يتنزل من لدنه ملك رسول وإلى أناس كان زردشت يُلقي هذا الوحي كتعاليم فلم يكن كل ما قد تحدّر من شفتي زردشت إلاّ لكلام الإله ترديداً وهذا ما يكوّن الـ «جاتها» أو هذا الكتاب الذي ناوله الإله بيده لزردشت غداة أرسل الإله ملكاً إليه بزردشت أسرى وبه إليه عرج إلى السماء!

صفحات الـ «جاتها» سجل آخر لهذه العقيدة... «عقيدة الإسراء إلى السماء».. عقيدة،

على صفحات الجاتها تسجلها سطور تقول إن زردشت نفسه قد تحدّث بهذا الحدث قائلاً:

«أيها الناس! إنني رسول اللّه إليكم... فإنه يكلمني!..

يكلمني وحياً بواسطة رسول من الملائكة بل وإليه رفعني فإليه بي أسرى كبير الملائكة وإلى حضرته قادني.. ولي هناك، متجلّياً، تجلى الإله وعرّفني الشريعة وعلّمني ما هو الدين الحق فقد سلمني إليكم هذا «الكتاب»!...

أجل.. صفحات الـ «جاتها» سجل هذا «الإسراء أو المعراج الزردشتي إلى السماء» الذي لعب على مسرح التاريخ الديني في هذه الهضبة دوره اتخذ برهاناً على نبوة زردشت وعلامة من علائم «رسالته الإلهية» التي اختصّه بها اللّه دون سائر الناس، حتى أمست هذه العقيدة بمثابة حجر الأساس في صرح هذا الدين!

من محدّد للقيم الأخلاقية وداعية لخالص التوحيد ومن المطالب بإيمان أقوى بالخير انقلب زردشت إلى نبي ورسول كما بهذه المعاني الصريحة تأتي النصوص في قسم «الجاتها» التي بها تطالعنا:

النبوة والرسالة الزردشتية والوحي المنزّل

عن هذه النبوة والرسالة والوحي المنزّل ينبعث من قسم «الجاتها» الحديث الفقهي وهو عن هذا النبي الرسول يحدِّث:

إن إلى التفكير والعزلة انقطع زردشت منذ درجت به مدارج الحداثة من الصبا إلى الشباب وحتى تخطّت به مراحل الشباب للشباب فجراً وللشباب غروباً.. وعن الحقيقة باحثاً راح يطوي.. طيّات الصحراء تهجداً... ومتجهداً طواه غار بعد غار في جبل سبالان حيث بدأت أولى بشائر نبوته ورسالته حوالي سن الأربعين من العمر، بالرؤيا... ثم بالكلام... ثم بالإسراء أو المعراج إلى السماء!

هذه هي المعتقدات الجوهرية المكوّنة للدين الزردشتي...

وبهذه المعتقدات المكوّنة للدين الزردشتي راحت بالتبشير سيول المبشّرين والعهود السياسية على هذه الهضبة تطوّف بحلقاتها حتى عهد الكيانيين[1]، العهد الذي شهد العالم بـ «دارا»، داريوس الأول (٥٣٢ ـ ٤٨٦ ق.م)، أول إمبراطورية آرية وأعظم إمبراطورية عرفتها سجلات التاريخ السياسي ليشهد العالم:

---

(١) Achaemeniau.

عصر الإمبراطورية وقيام الزردشتية ديناً رسمياً

في هذه الإمبراطورية التي طوى ظلها إمبراطوريات العالم القديم، مصر وآشور وبابل، والشاملة آسيا الصغرى شمولاً طوت به حدودها حدود الأندوس وامتدت من الداردنيل إلى النيل، تنبّه الوعي الإنساني إلى لون من التقدم الديني لا عهد له به من قبل على هذه الصورة التي جاءت إليه بكل جديد، فهذه الشبكة من المدنيات التي قد وصلت خيوطها أواصر العالم القديم فربطت بين أطرافه المتباعدة بهذه الطرق التجارية التي شُقّت وعبّدت قد تغير بها وجه مجتمع قد ارتبطت منه بالتجارة العواصم إلى عاصمة لم تعد «منف» ولا «أُن» ولا «أور» ولا «نينوى» ولا «بابل»... كلا ولا «أكباتانا» وإنما عاصمة الدنيا الآن «سوسا» هذه العاصمة التي تطلع منها على العواصم القديمة التعاليم الزردشتية كدين رسمي محوره نبي رسول جاء في آخر الزمان وبه أسري إلى السماء!

أجل... في عهد «الكيانيين» رسخت هذه المعتقدات وتمّ، ولما ينقضِ غير نيف ونصف قرن من الزمن على رواح زردشت في راحة الزمن، تحوّل المذهب الزردشتي تمام التحوّل إلى دين رسمي فإن في مشرق حكمه أكد داريوس الأول صحة التفكير الإلهي الزردشتي واعتنق مذهب زردشت ديناً فرجعت أرجاء الإمبراطورية الشاسعة دوياً اسم زردشت وصواب المعتقد الزردشتي ترجيعاً داوياً أعلن على إثره داريوس الأول الدين الزردشتي ديناً رسمياً لإيران!

على السِجل الصخري القائم في «بهاجستان» ما زال هذا الإعلان مسجلاً وفي معرض التاريخ منتشراً تعلن نصوصه، باللغات الثلاث المتداولة في هذه الإمبراطورية، ألوهة إله عالمي أرسل زردشت إلى الناس كافة هادياً إلى دينه الحق الدين الرسمي لهذه الإمبراطورية الطاوي ظلها إمبراطوريات الشرق القديم والواصلة أطرافها النيل بالداردنيل...

لا غرو من ثم أن نرى أن في هذه الإمبراطورية قد برز بداريوس الأول لون من التسامح الديني عجيب مرده إلى الفلسفة الزردشتية في تفكيرها الإلهي القائل بأن من جوهر الفكرة الإلهية لن تنال، بتغير الأمم واللغات، متغير أسماء فهو إله واحد لكل العالم، ولكل أمة أن تناديه تحت اسم له شادت لغتها من الأسماء!

ولا غرو من ثم أن نرى أيضاً أن، بوحي عقيدة تقول بلا تأر التوحيد أو الألوهة بأي اسم بها تُنعت وسواء أكان اسم الإله العالمي «مزدا» أم «رع» أم «آمن» أم «فتاح» أم «إيل» أم «مردوق» فكلها أسماء مختلفة لمعنى ولحقيقة واحدة، قد تجلّى التسامح الديني واتخذ مظهره بسيد هذه الإمبراطورية فإلى الإله الأوحد يتجه داريوس في مصر ليرى في صورة «فتاح»

صورة أخرى لمزدا فيصلح معبداً لـ «فتاح»، وإلى الإله الأوحد في صورة «آمن» يتّجه فيأمر بأن يُنحت على الجدران من قدس الأقداس في ذلك المعبد في واحة الخارجة نشيداً لآمن وإلى مزدا في صورة «رع» يتجه فتحتفظ لنا الجدران بلحظة هذا الاتجاه فعليها ما زال بالهيروغليفية محفوراً إن داريوس قد أضفى على نفسه نعتاً «ابن رع»...

إلى الإله الواحد تحت أسماء مختلفة اتجه الفكر الآري خارج هذه الهضبة اتجاهه إليه على هذه الهضبة يناديه تحت اسم تعرفه لغته بمعنى الحكمة والسيادة ويعرّفه بأنه الإله الأوحد الذي أرسل زردشت هادياً إلى الدين الحق الذي ما أعلنه داريوس الأول ديناً رسمياً لإيران حتى تراجع أمام مدّه الدين الإشراكي القديم كما ذاب في خضمه للميتهرية، الدين الرسمي القديم، وجود وانطفأ لميهترا نور لم يظل مشتعلاً إلا في قلوب أتباع له انكمشوا في تشابك فيما بينهم أمام امتداد مدّ الدين الزردشتي.

لكن.. لئن للمد الميتهري كانت قد دفعت يد داريوس فإن دورة الزمن تستدير من داريوس إلى كسرى، ٤٨٦ ـ ٤٥٦ ق.م، ويرف على هذه الهضبة حكم سياسي جديد تتوثّب الميتهرية وتثب فقد لاح لأتباعها أن السانحة بالحكم السياسي الجديد سنحت لإعلاء شأن «ميتهرا» من جديد.. ومن الحناجر الميتهرية انطلقت، والزمن يسجل سنة ٤٨٥ ق.م، موجة متمردة قوية وصاخبة اندلعت سعيراً تطالب الحكم السياسي الجديد برد مهدور العقيدة وتحدق بالصرح الزردشتي تريد لأركانه تقويضاً.

ولصد تيار هذه الموجة التي اندلعت محمومة لا تلوي على شيء هبّت الجماعة الفقهية الزردشتية تضع السدود وتحصّن القواعد من هذا الصرح ولكن! مسرعة هبّت فصبغتها صبغة التسرُّع وكأثر لهذا التسرع في وضع السدود وتحصين القواعد والأركان تحولت الزردشتية ذلك التحول الذي به يطالعنا:

انحراف التعاليم الزردشتية في العهد الكسروي

في «سوسا» عاصمة دنيا تلك الدنيا تحولت التعاليم الزردشتية إلى الانحراف، بسبب هذه الثورة التمردية من أتباع الميتهرية الدين الشمسي القديم، فإن ودونما جدوى كانت محاولة كسرى قمع الثورة الدينية وإحباطها عن طريق الشدة، كان من الطبيعي أن يهب الكهنوت المجوسي، متعهدو الدين الزردشتي، لصد هذا التيار وأن يضطلع بإخماد هذه الثورة بما لديه من وسائل... وسائل لم تكن إلا بدعاً مستمدة من أصول الدين الاشراكي القديم وإن اتخذت محوراً نفس زردشت!

للحيلولة بين تيار الميتهرية والتوغّل إلى القلوب اتخذ اللاّهوت الزردشتي من العقيدة

القديمة أصولاً هي التي بها يطالعنا انحراف التعاليم الزردشتية إلى ذلك المجرى الذي فقدت فيه تلك الموازنة الدقيقة بين الثنائية الفلسفية والثنائية اللاهوتية والذي فيه اصطبغت بصبغة الثنائية اللاّهوتية التي بدأت تلقي ظللها على التعاليم الزردشتية الأصيلة وتحجب ذلك التوحيد الخالص النقي حتى تم احتجاب هذا التوحيد النقي تماماً والأيام بالعهد الكسروي ترتحل ومن كسرى إلى «أرتاكسركس الثاني» تسير لتسجل:

تحوّل الزردشتية إلى مذهب في المزدية

في الفترة الزمنية التي كونتها الأيام التي سارت فطوت لكسرى عهداً ونشرت لأرتاكسركس الثاني عهداً، يطالعنا، سنة ٤٠٤ ق.م، تحوّل الدين الزردشتي وانصبابه في الدين المزدي واعتكار الوحدانية الصافية في الزردشتية بغيوم الاعتكار!

أجل... إن الوحدانية ما زالت صفة الإله الواحد الذي يعرفه هذا الدين تحت اسم «آهورا مزدا» ويعرّفه برب العرش وبرب العالمين ومنه يقف زردشت موقف النبي والرسول والهادي إلى الطريق المستقيم ويعتبر أن سجل رسالته صحف مطهرة وكتاب منزّل، ولكن!..

الإله الواحد لا يقف الآن منفرداً في قدرته متفرّداً في مطلقيته فإنما قبالته، كمصدر الخير، يقف له مناوئاً، مصدر الشر!

إلى مناوئة «**مصدر الخير**» أعاد الفقه المزدي «مصدر الشر» الذي لا يطالعنا في هذا الدين، تحت اسمه القديم، دروج، وإنما «أهريمان» إلى احتلال أفق المخيلة الدينية ومن ورائها الجماعية عاد «مصدر الشر» ولكن... عن صفته وماهيته التي كانت له قديماً تحوّل في هذه العقيدة الجديدة المستمدة من القديم فقد تحوّل من ربّ للشر إلى: شيطان!

وكشيطان، تحوّل «مصدر الشر» تحوّلاً جوهرياً فلم تعد كينونته الظلمة وإنما، تبعاً لما يحمله اسمه الجديد من أصداء غدا ناراً لافحة مدمرة ومن ثم فرّقته عن الإله الخير ذي الطبيعة النورية، طبيعة نارية وقف بها تجاه الإله النور ممثلاً النار...

احتفظ الفقه المزدي بالطبيعة النورية لمصدر الخير وعلى «مصدر الشر» أضفى طبيعة نارية ثم على عالمه طلع يعلّم:

إن الوجود إنما ساحة عليها يجري:

«زرْفانا ـ أكارانا» أو الزمن، وعلى هذه الساحة مستعر النضال بين هاتين القوتين؛

«**النور والنار**» في ناحية يقف «آهورا مزدا» وفي ناحية، أدنى مرتبة، يقف «أهريمان» وبآهورا مزدا، النور، تحيط:

أمشا بانداس» و«يازاستا» الكائنات النورية أو الملائكة وبأهريمان، النار، تحيط؛

«ديفو» الكائنات النارية أو الشياطين وكلاهما، مزدا وأهريمان، يقف بجنوده المؤلفة من الملائكة والشياطين، لتؤلف هذه الجنود:

«حزب الإله» و«حزب الشيطان»!

منذ خلق اللّه الوجود وأجرى عليه الزمن والصلة بين هذين الحزبين، حزب الإله، أو حزب الخير، وحزب الشيطان أو الشر صلة نضال بدأ منذ خلق الإله الخيِّر على هذه الساحة: «الإنسان»!

الإنسان موضوع النزاع بين الحزبين فإن إلى الإنسان، مخلوق مزدا الذي لم يخلقه خالقه عبثاً فهو يهديه بواسطة أعوان من الملائكة إلى الطريق المستقيم ممن يوحون إليه الطيِّب من القول ويرشدونه إلى الخير من العمل، يسرع بأعوانه الشيطان وغايته الانحراف بالإنسان عن الطريق المستقيم فيحوّل بين الخالق والمخلوق مستعيناً بأعوانه الذين يقولون قذف خبيث الإيحاء وضار الإيعاز بالوسوسة في صدور الناس!..

وللإنسان سيظل يتنازع هذا النزاع بين الفريقين، أحدهما يحثّ على الخير والآخر يحض على الشر، حتى «يوم البعث»!.. حتى ينصب «الميزان» ويمتد «الصراط» فوق «هاوية الجحيم» منتهياً إلى «الفردوس»!. حتى يتم للإله الغلبة على الشيطان ويتحقق السلام العام!

هذه هي الثنائية اللاهوتية التي أفقد بها الفقه المزدي الدين الزردشتي تلك الموازنة الدقيقة بين الثنائية الفلسفية والثنائية اللاهوتية والتي انفصلت بها الزردشتية إلى قديمة ومتأخرة.. ففي زردشتية زردشت لا يقف «مصدر الشر» مناضلاً الإله بالصفة الذي يقف فيها في الزردشتية المتأخرة التي بها تمّ انحراف التعاليم الزردشتية الأصيلة كما تمّ انصبابها كمذهب في الدين المزدي!

دين ضمّ زردشت فغدا مسنده الكتاب المقدّس الزاندا، وغدت عماده نبوة ورسالة زردشت وفي السجل الديني سجلته يد الزمن تحت اسم:

الدين المزدي الزردشتي

إلى صرح هذا الدين نلج عبر الأقسام المتأخرة من «الزندافستا» سابرين منه الأساس فتطالعنا الأصول التي بني عليها هذا الدين متمثلة في:

القواعد الخمس... والقواعد الخمس تنحصر في؛ الإيمان بإله أوحد، والملائكة، ورسوله والكتاب المقدّس، ويوم البعث!

إله واحد تعرفه المزدية كما يعرّفه زردشت بأنه الخير المطلق الممثّل في النور والضياء.. وتعرفه بالأسماء الحسنى ومنها المنعم والرحيم، ومنها الواهب والقدس والمصوّر والحكيم، والغني والشافي، والعليم والرؤوف... أسماء حسنى أعلاها الخير والنور وأما النعت الرسمي للإله فربّ العرش!...

رب العرش؟! أجل.. لقد صبغ المعتقد الإلهي للدين المزدي الزردشتي الطابع الفطري التفكير الساذج التعبير الطابع الذي جاءت به للفقه المزدي مخيلة راحت على صفحة الذهن الجماعي ترسم للوحدانية صورة طبعت بها الألوهة بالعنصرية والجسمية وحدتها بحدود المكان بل في تمادٍ جنحت هذه المخيلة فظللتها بظلال الإشراك!

صورة، إليها نطوي طيات الماضي فتنشر السماء لوحة عليها ترتسم مملكة، الجوهر والدرُّ والذهب لها حصباء، والإله على عرش فيها مستوٍ ومن حوله تسبح في تسبيح بحمده ملائكة متفاوتة الرتب والمكانات، لكل مهمة يقوم بها ولكل منزلة يشغلها، ويرسل منها إلى الأرض من أراد له إرسالاً لهداية البشر وإن وقف زردشت من بين البشر مختاراً فقد اختصَّه اللّه بالرسالة وإليه.، ليعلمه الشريعة التي ضمّها من بعد الكتاب العزيز، أرسل الكبير من الملائكة رسولاً إلى السماء به عرج وإليه به أسرى!

وبعيداً عن هذا العدد الوفير من الملائكة، الحزب الأعلى من الكائنات النورية، يقف العدد الوفير من الجان، الحزب الأدنى، من الكائنات النارية، حزب «أنكر» روح الشر الذي قد غدا في هذا الدين، «أهريمان» وأضحى ينعت «ديفو» أو الشيطان، وتؤلف هذا الحزب أرواح الشر من الشياطين، أيضاً متفاوتة الرتب والمكانات وكل واحد منها موكل برذيلة من الرذائل، عليه أن ينميها وينشرها، وكل يجمع فيما بينها هدف واحد هو إضعاف حزب مزدا عن طريق اجتذاب الإنسان إليها ووسيلة هذا الاجتذاب تنحصر في الوسوسة في الصدر والسعي بالإنسان عن طريقها إلى ضلال بعد ضلال.

ولهذين الحزبين مسكن عيّن الفقه المزدي بما فوق السماء وما تحت الأرض أما المكان ففي الشر، في ضوء الشفق ـ وفي الغرب في ظلمات الغسق ـ وأما ساحة النضال بين الحزبين فهذا العالم... وأما أداة هذا النضال فإنه الإنسان!

يُطوِّف أهريمان ومن حوله شياطينه لإهلاك الإنسان عن طريق الوسوسة في الصدر، ويسعى «مزدا» إلى الاحتفاظ به وإلى إسعاده وإصلاحه فيرسل من ملائكته من يرسل ليهديه، عن طريق القذف في القلب، إلى صراطه المستقيم.. والإنسان بين هذين الحزبين تتنازعه، بسبب هذا القذف في القلب والوسوسة في الصدر، النوازع مما يجعل لحياته صفة الجهاد

ولكنه جهاد مدعم بما له قد مُنح من حرية الإرادة!

وبين ملائكة توحي بالخير وعليه تحثّ وشياطين توسوس بالشر وعليه تحض يقف الإنسان وعليه الإصغاء للخير كما عليه إزاء الوسوسة التعوّذ بالمعوذات من آي «الكتاب العزيز»، فهذه المعوذات إذا ما قُرئت فرّت الشياطين وهوت إلى مكانها السحيق فلن تستطيع الشياطين إلاّ فراراً أمام هذه المعوذات المأخوذة مما يحوي «الكتاب المقدس» من آي لقراءتها طريقة خاصة ولهجة معينة ورنة موقّعة!

إن التفرقة بين الهدى والضلال واضحة أمام الإنسان فكل حسنة في الأرض من صنع «مزدا» وتستخدم في الخير وكل سيئة فمن صنع «أهريمان» وتستخدم في الشر..! إن الحياة والطهارة والعمل وكل ما هو خير فآتٍ من مزدا... وأن الموت والدنس والكذب والكسل وكل ما ساء فآتٍ من أهريمان، ومن ثم على المرء فريضة عبادة الخير والمناضلة عنه مناضلة يحيط بها عمل أهريمان... عليه، وحيث الظلمة فالشيطان، أن يجاهد الظلمة بإمداد النار بالحطب! وعليه، وحيث القفر فالشيطان، أن يجاهد بحرث الأرض والزراعة وإنشاء العمران! وعليه، وحيث الموت فالشيطان، أن يجاهد الموت بالإنسان فإن شريعة زردشت ترى أن أهم الوسائل الضرورية لتعميم الخير وإبادة الشر تنحصر في الإكثار من النوع البشري ونشر الخصوبة والعمران فهذا ركن من أركان الاعتراف برسالة تقوم على أساسين:

الإيمان بالوحي الهابط والاعتراف بالمعراج إلى السماء

كحجر أساس لهذين المعتقدين يتحد الدين المزدي الزردشتي:

قصة **مولد زردشت** من الينبوع الأسطوري استمدت المخيلة الفقهية مدداً انفرجت به شفاهها تحدّث، لنسمع:

إن بزردشت حملت «دغدافا» وهي في سن الخامسة عشرة، **بطريقة إعجازية**، وعلامة لها على حملها بهذا الرسول الكريم صاحبت المعجزات الشتى، التي رآها الخاصة والعامة، ليلة مولد هذا النبي الرسول الذي وُلِد ضاحكاً رافعاً وجهه إلى السماء وبيديه مشيراً إلى هذا الملكوت الأعلى الذي قد ابتهج لهذا الميلاد وتهللت فيه الملائكة فرحاً!

وتسترسل الشفاه الفقهية تحدّث؛ واهتزّ «دوراسان» كبير سحرة إيران، فزعاً لأنه علم أن قد ولد من سيبطل السحر ويحق الحق وبعث بثلاثة من أتباعه يحاولون قتل الوليد بيد أن ردّ اللّه عن «نبيه» كيدهم.. بل لقد حاول أحد الأمراء التورانيين قتل زردشت طفلاً بيد أن زردشت سلّم أيضاً وعلى مدارج الحداثة درج حتى شارف من العمر مشارف الأربعين ليبدأ في هذه المرحلة حياة التهجّد الجديّ.. ومتهجّداً ذهب «ذهب الصحراء» إلى الجبل.. إلى

حيث اعتكف عن الناس عاكفاً على مناجاة الإله بالقلب وباللسان طالباً الهدى حتى أجيب فنزل عليه بأمر اللّه كبير الملائكة: «الروح»!

بوساطة «الروح» تنزّل الوحي الإلهي على زردشت في ليلة كان قدرها، حتى مطلع الفجر، السلام.. وصدع «الرسول» بالأمر وحمل الرسالة وانطلق داعياً إلى دين اللّه... وبواسطة هذا الكبير من الملائكة صعد إلى السماء حتى عُرج به إلى حضرة الإله حيث منح التجلية وحيث من المتجلي منح القرب والوصال..! ببريق الأساطير رصعت المخيلة الفقهية حياة زردشت!

أجل.. ببريق الأساطير رصّعت المخيلة الفقهية حياة زردشت ترصيعاً بسببه يطالعنا زردشت «الأفستا المتأخرة» غير زردشت «الجاتها»!

من ثنايا الأدب البهلوي في «الأفستا» المتأخرة يطلع علينا زردشت محاط الرأس بهالة من نور، وإذ علينا تحت هذه الصورة يطلع فليس إلا لنعلم أنه قد ارتفع إلى ما فوق البشر وليس إلا تذكرة لنا بأنها للرسول الذي جاء في زمن زمنه «يوم البعث» والنبي الذي جاء في آخر الزمان!

أسطورة صاغها فقهاء الدين المزدي الزردشتي غداة لاح لهم سحر الزمن مغرياً فآمنوا أن زردشت نبي آخر الزمان بل بين الطوايا والجوانح الجماعية راحت يد الزمن ترسخ هذه العقيدة حتى عقّدتها الأجيال إلى عقدة في النفس الجماعية فلم يجفها القلب والأيام تستدير من عهد إلى عهد وتجيء إلى هذه الهضبة بأحداث القرن الرابع ق.م، فإن على الرغم من هوي العزة الإيرانية القديمة للفتح المقدوني الفتى وعلى الرغم من أن قد دالت دولة الكيانيين إلى دولة الإسكندر فقد ظلّ القلب لزردشت مكاناً!

أجل... لقد انتصر الإسكندر، ٣٣١ ق.م، على «دارا» الثالث وأراد، قبل أن يذهب إلى الهند والصين فاتحاً، أن يستقر حكمه في البلد الهاوي حتى لا يكون في إيران من تسوّل له نفسه بالثورة عليه فقتل من استطاع قتله من الأشراف وأما من بقي ففرّق كلمتهم، عملاً بالنصح الأرسطي له «فرّق تسد»، بأن قطع إيران بينهم تقطيعاً ومنح كل شريف قطعة وأقامه عليها ملكاً لأن كل شريف وقد غدا ملكاً سيحرص على ملكه بالتقرّب من الإسكندر وقط لن يفكر في لمّ شمل الوطن الممزق لأن هذا يفقده عرشه وما له من مظهر الجاه، وبهذا حطّم الإسكندر الوحدة السياسية للبلاد ثم تحول مُحطماً الوحدة الدينية فانعطف نحو القوة الروحية في الشعب محاولاً القضاء عليها بأن جمع «الأفستا» كتاب الدين، فحرقه! ثم إلى المعاقل الفقهية تحوّل الإسكندر وبعد إحراق الكتاب المقدس شتّت رجال هذا الدين تشتيتاً

بأن صبّ عليهم من ألوان العذاب ما حال دونهم والاسترسال في التبشير بدينهم... وتمّ للإسكندر ما أراد وظلّت هذه الهضبة مفقودة الوحدة السياسية مفتقدة الوحدة الدينية لأكثر من خمسة قرون من الزمن...

ولكن.. القلب الإيراني لزردشت لم يجف وله لم ينس إن كان هذا الحب قد ظلّ بين الضلوع مطوياً والأيام في مجرى الزمن تسير وتتحوّل من عهد إلى عهد ليبدأ هذا الحب في التجلّي من جديد غداة تلاشت دولة الإسكندر وبدأ عن هذه الهضبة ينجلي ظلال الاستعمار المقدوني.. بدأ الوسن الاستعماري يفارق الجفن الإيراني فبدأت الأمة ذات التاريخ القديم تستعيد قديم الذكرى وتفكّر جدياً في استعادة ماضيها.. ومن ثم بدأت الدعوة إلى الوحدة السياسية من جديد وبدأ العمل جدياً على إلغاء هذه العروش الزائفة التي مزّق بها الإسكندر البلاد ليسودها جمعاً وليسود أشرافها جميعاً!

ولكن!.. الوحدة السياسية لن تُبلغ إلا عن طريق لم الشعث المشتّت لهذا الدين القديم، دين زردشت.. ومن ثم تطالعنا في غضون هذه المرحلة السياسية من تاريخ الهضبة انطلاق الدعوات السياسية من البيوت الفقهية تدعو إلى وحدة الدولة وتتهامس بوحدة الدين...

من «بيت النار» في «اصطخر» ومن شفاه «ساسان» الفقيه الأكبر لدين زردشت انطلقت جهراً هذه الدعوات تدعو إلى وحدة الدولة فكانت الدعوة دعوة رسمية بسببها امتدت يد الزمن تسطِّر:

العهد الساساني «٢٢٦ م ـ ٦٥١ م»

اضطلع «ساسان» بالدعوة إلى وحدة الدولة فكافأته البلاد بالعرش والتاج.. ومن فوق العرش قام «ساسان» يدعو إلى وحدة الدين وإلى إقامة مبادىء زردشت وجمع «الأفستا» فكانت الدعوة دعوة رسمية إلى وحدة الدين...

وهكذا قامت الدولة الساسانية على أساس مبادىء دين زردشت، الدين الذي أعاد مؤسس الأسرة الساسانية إعلانه ديناً رسمياً للدولة..

ولكن... لئن كانت راحة الزمن قد حالت بين «ساسان» وجمعه الأفستا فإن يد الزمن التي نشرت بعده «بابك» ودفعته إلى مواصلة الدعوة إلى الوحدة السياسية والوحدة الدينية قد رأت أن تتم هذه الوحدة السياسية على يد «أردشير»..

وجُمعت «الأفستا» في عهد أردشير بن بابك بن ساسان...

وحكم أردشير إيران حكماً موّحداً وامتد به سلطان الدولة على الإقليم كاملاً... ومنذ ذلك الوقت وُضع دستور إيران على أساس:

وحدة الدين والدولة

بالدين وحّدت الدولة وبالدولة وُحد الدين وقام صرح الدولة على أسس الدين، ومن ثنايا القِدَم هبّ زردشت يحكم العصر الساساني بتعاليمه التي اتخذت العلم أساساً لكل معرفة.. ومن ثم، والعلم أُسس الدين الزردشتي، بدأت الدولة في إقامة المدارس ومن أشهرها (مدرسة «جنديسابور») تلك التي راحت تُعلِّم وتنفث في أرجاء الدنيا، حتى القلب من شبه الجزيرة العربية، روح الدين المزدي الزردشتي...

ولكن!.. لئن كان من ثنايا القِدَم قد هبّ زردشت وحكم بتعاليمه أرجاء العصر الساساني وراحت هذه التعاليم تنير آراء هذه الهضبة من جديد وتنساب برقاً بريقاً في آفاق دنيا العصر فليس إلا لتهب، كأثر لما قد ألحقه به الأتباع الأول، عنه الذكريات تذكره نبياً رسولاً جاء في زمن زمنه يوم البعث... وفي تنبّه تذكر أن يوم البعث إنما آخر الزمان!..

آخر الزمان؟! سؤال طوّف في الأرجاء الفكرية للعصر ما لبث أن انبعث همساً وما لبث أن تردّد دوياً، فإن الزمن قد انحسر إلى قرون طُويت ما بين مصرع زردشت، الذي جاء في «الجاتها» أن نهاية العالم بنهايته موقوتة، والآن!.. الآن، والزمن يقترب من القرن الرابع ب.م، يتلفّت التفكير الفقهي ليرى أن لا فحسب أن منه الانتباه قد تنبّه إلى هذه المشكلة وإنما ممن حوله من أصحاب المذاهب الأخرى يجيئه التذكير بأن العالم بعد زردشت طويلاً قد سار وطويلاً قد يسير!

واستدارت الدوائر الفقهية على نفسها حيرى وراحت فيما بينها تتهامس أمام حقيقة لا تقبل الشكّ ولكنها تُعرِّض للهوى نبوة زردشت!

إذا هوت نبوة زردشت هوى الدين المزدي وإذا هوى الدين المزدي هوى صرح الدولة!

بيد أن للتخلُّص من هذا الإشكال ولإخماد لهب الجدل الثائر من حول هذه المشكلة كانت سهلة الوسيلة الفقهية فالوسيلة الفقهية إنما، أبداً، للآي تأويل وللجديد من البِدَع خلق.. ومن ثم انفضاض المجمع الفقهي عن تأويل للنصوص الصريحة سجّل:

رسوخ عقيدة نبي آخر الزمن وخاتم الأنبياء في وعي الزمان

من الصرح الفقهي انطلق الصوت، يتّخذ الرزانة نغماً ويستخدم المنطق حُجة والإقناع عن طريقه وسيلة، يقول:

يقيناً. إن العالم لم ينته بنهاية زردشت!

ولكن!.. الحقيقة لم تُفهم كاملة ومن ثم إلى إيضاح هي في احتياج فإن الآيات القديمة تحتاج في معانيه إلى تفسير وهذا هو التفسير:

إن اللّه قد خلق العالم في ستة أدوار وكل دور يتألف من شهرين، ومن ثم فإن للكون زمناً والزمن الكوني يتألف من سنة شهورها اثنا عشر ولكن السنة الكونية ليس زمنها الزمن الذي تعرفون وإنما الشهر الواحد منها مقداره ألف سنة مما تعدون!

من ثم فإن جميع الزمن المحدّد للعالم مقداره اثنا عشر ألف سنة.. ثلاثة آلاف منها مضت في خلق العالم الروحاني وثلاثة آلاف منها مضت في إنشاء العالم المادي وثلاثة آلاف فصلت بين وجود «ميما»، أول إنسان... على الأرض ووجود زردشت وثلاثة آلاف بين زردشت ونهاية الدنيا... من ثم فزردشت قد وُلد، يقيناً، في نهاية الزمن وهذا هو المعنى من القول القدسيّ إنه جاء في آخر الزمان!

إن زردشت قد وُلد في نهاية الألف التاسع من سنة الخلق وبدء الألف العاشر، ومن ثم فإن الزمن منذ رواح زردشت في راحة الزمن حتى يوم البعث لن يتجاوز ألفي عام! إن على النهاية ما زال ألفان من السنين، لن ينتهي الألف الثالث على رواح زردشت إلا ويكون «يوم البعث»!

تحت هذا المعنى وحده جاء في الكتاب المقدس النص بأن يوم البعث مرهون بنهاية حياة زردشت على الأرض وهذا هو التفسير الصحيح لما قد أشكل على الناس من أمر الآي!.. أفنشك بعد ذلك في عصمة الآي؟!

التقسيم... قسم فقهاء الدين الزردشتي العالم إلى هذه الأدوار فجاء تفسيرهم أو بالأحرى تأويلهم للآي «منطقياً» حصن حصن النبوة الزردشتية، ثم انعطفوا يسيّجون هذا الحصن بسياج المنعة فابتدعوا بدعة جديدة استطاعوا بها أن يلقوا ظلاً على التصريح الجازم بأن نهاية العالم موقوتة بنهاية زردشت، هي تلك التي طلعت بها على دنيا الدين:

عقيدة المخلص والمهدي المنتظر

للتخلّص مما قد يأتي به الغد من إشكال أعلن فقهاء الدين المزدي:

إن الفكرة التي علقت بالذهن عن موت زردشت خاطئة لأن زردشت لم يمت! لم يمت إلا في الظاهر وإنما هو فحي!.. أما إذا سأل أحد؛ أين؟! فالجواب:

إن زردشت قبل أن يقضي نزل للاغتسال في البحيرة المقدسة فنزلت في مياهها بذرته المخصبة ومن ثم فهو بها وفيها حيّ!

في «البذرة الخصبة» في «البحيرة المقدسة» زردشت حيّ، وستظل هذه البذرة في البحيرة المقدسة ثلاثة آلاف سنة من بعد زردشت حتى قبيل نهاية العالم، فإذا ما حان الحين نزلت عذراء طاهرة البحيرة للاغتسال، فتتغلغل هذه «البذرة» إليها وتحمل بمن سيجيء إلى العالم للإنسان من العذاب «مخلّصاً» و«هادياً»!

بالمخلِّص ستحمل «العذراء» فتأتي بمن سيهدي العالم ويحق له نعتاً؛ «سيوشانت» أو؛ «المهدي!..».

و«بالمهدي» ستنتصر العدالة وتردّ السنن المغيّرة إلى أوضاعها الأول ويُنصر دين اللّه ويُمحق الشر ويسود الأمن والسلام العالم غضون فترة من الزمن مقدارها سبع وخمسون سنة وبانتهائها ينتهي الوجود وعلى إثر ذلك يبدأ «**البعث**»!

بدعة!... بدعة سجّلها على نفسه الفقه المزدي في القسم المتأخر من «الزند»... ولكن ما لبثت هذه البدعة أن تحوّلت إلى عقيدة وما لبثت أن رسخت بين الجوانب البشرية وإلى انتظار «المهدي المنتظر» تحول الانتباه عن زردشت حتى غدا «يوم البعث» مرهوناً لا بذكرى موت زردشت وإنما بظهور «المهدي المنتظر»!

بدعة سجّلت في تاريخ المعتقدات الدينية هذه العقيدة الخطيرة القائلة بظهور المهدي كما حاكها الفقه المزدي والأيام تسجل القرن الرابع ب.م ليطالعنا هذا الفقه بشيء آخر جديداً كان له سبب انتعاش «الميتهرية» أو الدين القديم من جديد فأمام مدّ للميتهرية جديد هبّ فقهاء الدين المزدي يضعون السدود في وجه الميتهرية وادعائها لميتهرا دون «مزدا» بالألوهة بأن أعلنوا:

إنكار التثنية والاعتراف بخالص الوحدانية

للحدّ من مدّ «ميتهرا» أحدث الفقهاء تغييراً جوهرياً في الدين المزدي فقد أنكروا التثنية إنكاراً باتاً وأعلنوا التوحيد الخالص الذي هوى بأهريمان من كينونة مستقلة إلى فكرة صيغت على حين غرة من تفكير «مزدا» لقد فكر «مزدا» على حين غرة!.. فصيغ من تفكيره أهريمان!

فكّر مزدا في نفسه أنه لو كان لي منازع كيف يكون؟ وهذه الفكرة ردّية غير مناسبة لطبيعة «النور» فحدث الظلام من هذه الفكرة وسمي أهريمان!... ولأن الظلام شر بطبيعته أصبح أهريمان مطبوعاً على الشر والفتنة والفساد والضرر والإضرار فخرج على «النور» وخالفه طبيعة وقولاً.

من ثم فإن مزدا هو الإله الأوحد وإن أهريمان ليس خصماً له وإنما هو خصم روح القدس في مزدا!

وبهذه العقيدة المستمدة من ثنايا القِدَم بدأت تسير الأيام ويد الزمن تطوي الأجيال فتنتشر أحداثاً نشرت ديناً باسم المسيحية، ليس الصدد له مجال، لتنشر في أعقابه ديناً آخر يطالعنا تحت اسم:

الدين المانوي

إن الدين الذي جاء به «ماني» (٢١٦ ـ ٢٧٥ ب.م)، ليس بعابر دين أو بسيط مذهب كما بدأ له تاريخاً، فهو من أشد الديانات تأثيراً في العقلية البشرية لأنه يمثّل العصارة التي ذابت في مذاهب من بعد وأديان.

في العصر الذي كانت فيه المسيحية[1] تحاك من مذهب في دين إلى دين عماده «المخلّص» وعمدته «عقيدة الخلاص»، هذه العقيدة التي وجدت النفس البشرية فيها خلاصاً وتحرراً من قيد الموجة التشاؤمية المكتنفة الناحية العاطفية لتلك العهود، امتد الدين المانوي يؤكد، بما قد جاء به من تعاليم وآراء، طابع هذا العصر الذي ضاقت منه الآفاق فعمّ فيه مطلب الخلاص بيد أن والتفكير الديني إنما يتخذ له أسّاً ما وراء الطبيعة فإن إلى نظرة أو بالأحرى إلى عقيدة الدين المانويّ فيما وراء الطبيعة ينبغي بنا أن نعود إذا أردنا أن نفهم الحقيقة من ماهية هذا الدين الذي جاء في القرن الثالث الميلادي وحوالي قرنين قبل الإسلام وعرفته بلاد العرب غضون العصر القريشي باسم المجوسية.

إلى ما وراء الطبيعة امتد بتفكيره «ماني» امتداداً مسانده الزردشتية، فاتخذ لتفكيره الديني العقيدة الزردشتية أساساً ومن ثم استقر رأيه على؛ أن الكائن الحي مخلوق «للنور» ـ بيد أن إذ يتخذ «ماني» أسس ما بعد الطبيعة الزردشتية عقيدة فإنه ليتحول إلى السفوح الهندية يجيء منها بلون صوفي يتخذه لمنطقه مستنداً فيقول: إنه إذا كان الكائن الحي مخلوقاً «للنور» فإن فيقيناً إن هذا الكائن إنما في أول أمره كان نوراً محضاً..

وعلى أسس هذه العقيدة التي شيّدها «ماني» في أرجاء نفسه جرى المنطق المانوي يقول: ولكن هذا الكائن النوري قد خُلِق لحكمة تتلخّص في الجهاد ضد الظلمة ومن ثم انتصر عليه روح الشر وكبّله بالأغلال التي تتمثل في هذا الجسم المادي ـ في هذا الغمد الكثيف المكوّن من المادة، أصل الشر والسوء في هذه الحياة، استطاع روح الشر أن يسجن الجسم النوري الطبيعة ومن ثم فمنشأ التنافر بين الغرائز والنفس، ومن ثم تصبو الروح إلى الخلاص، ومن ثم فتعطّشها إلى التحرر من قيد الجسد وتملّكها، من قيد الجسد، حبّ الانطلاق!

ومن ثم فيجب تخليص النفس من قيد الجسد!

ولكن.. إذ ينزع «ماني» هذه النزعة الصوفية فإنه يمتد مغالياً ويأتي بجديد فهو لا يقف موقفاً سلبياً فيقتصر فيه على المناداة بوجوب تخليص النفس من الجسم فحسب وإنما يقف

---

(١) انظر **العصر الهيلليني الروماني**، من هذه السلسلة..

موقفاً يراه إيجابياً فيقول بضرورة إنهاء العالم المادي عن طريق إضعاف النوع البشري وإبادة النسل ومن ثم انطلق صوته ناهياً عن الزواج...

إن للزواجِ ثمراً والحياة إنما أسر فلا تَسْعَ إلى تقييد آخرين بقيودٍ أنت تحاول منها الانطلاق وعليهم لا تَجنِ!

ولهذه النزعة يُمثِّل «ماني» نفسه مُطالباً من قد التفّ من حوله بتطبيقها على أنفسهم فصوته ينطلق معلماً أن نفس الامتزاج شر ومنه يجب الخلاص!.

أجل.. لقد رهب ماني وفي الدنيا زهد زهداً إيجابياً فطبّق حياته العملية على هذا المبدأ حيث عاش في «حرّان» وحيث عرفته حرّان راهباً ليعرفه التاريخ الديني باسم «راهب حرّان».. وفي حرّان تبعه له تُبّع رهبوا فترهّبوا. ومن ثم فنشأة رهبانية مانوية في حرّان براهب حرّان... من ثم كان التحوّل الكلّي في أفق التفكير الديني المانوي عن المذهب الزردشتي القائل بأن الواجب الإنساني ينحصر في الاستجابة الكلية إلى ما تمليه عليه طبيعته الخيرية فيعمل لدنياه عمله لآخرته، إلى الاقتصار على الآخرة...

و«براهب حرّان» وبرهبانية حرّان انتشر من «حرّان» هذا الدين، الذي ليس في مداه الحقيقي إلاّ عقائد زردشتية ممسوحة بمسحة المسيحية، وإن تلك المسيحية ما زالت نصية وقواعد الكنيسة لم تُوضع بعد، يُعلّم استعجال الخلاص واستهجان الرباط العائلي ويستبدل به رباط إخوة عالمية وعائلة كبرى تربط المحبة بين أفرادها ربطاً يذوب فيه هذا التكالب على دنيا كل شيء فيها بفنائها فإن إلاّ هذه النفس نورية الطبيعة التي ينحصر سعيها في هذه الدنيا إلى الخلاص من قيد هذا الأسر الجسديّ!

هذه هي النواة التي بذرها «راهب حرّان» في تربة عصر عرف ما نعرفه في المانوية من الأصول المتمثلة فيما قد فرضته وما قد شرعته مِنْ:

العقائد والأعمال

العقائد المانوية تنحصر في: الإيمان باللّه الأحد والإيمان بالرسل، والرسل هم آدم فشيث فنوح فإبراهيم فبوذا فزردشت فعيسى فماني، والإيمان بالملائكة، والكتاب المقدس، ويوم البعث!

والأعمال في المانوية تنحصر في؛ النهي والفرض والتحريم والتكليف.

نهت المانوية عن ذبح الحيوان لما فيه من إيلام... نهت فنهت عن تقديم الضحايا، ولتقديمها كان من قبل قد أقرّ زردشت ـ وفرضت العشْر في الأموال زكاة ـ وحرّمت الكذب والقتل، والسرقة، والزنى، والبخل والسحر وعبادة الأوثان، وشرعت في الدين تكليفاً

كان قد حرّمه زردشت وكان القيام به من قبل لا يتعدّى الرغبة الشخصية فلقد شرعت فريضة: الصوم.

الصوم في الدين المانوي فريضة ثلاثون يوماً من كل سنة، وسبعة أيام من كل شهر، وشريعة الصوم تنحصر في أن يمسك الصائم إذا نزلت الشمس الدلو وأما الفطر فعند الغروب... وفرضت المانوية فريضة: الصلاة.

الصلاة في الدين المانوي فريضة تؤدى في مواقيت معلومة وبحركات جسدية معينة من القيام والركوع والسجود.. صلوات أربع في اليوم ـ الصلاة الأولى عند الزوال والثانية صلاة العصر فصلاة المغرب عقب غروب الشمس ثم بعد المغرب تجيء صلاة العشاء ـ وكل صلاة تؤدّى في اثنتي عشرة ركعة وسجدة..

ولكل ركعة من الركعات وسجدة من السجدات صيغة معينة ومن الكتاب الكريم تلاوة آي أيضاً بطريقة خاصة ولهجة معينة ورنة موقعة.. ومن واجب المرء قبل البدء بالصلاة التطهّر الجسدي أو المسح بالماء، كما أن من واجبه الاتجاه في صلاته إلى نفس «القبلة» التي اتخذها الدين الزردشتي لعبادة المحتجب ـ من هو «نور على نور» ـ وهل هناك «قبلة» أجلى وأوضح لعبادة «النور المحتجب» من هذا الينبوع النوري المتدفّق نوراً هو فيض من فيض «محتجب النور»؟!

أجل... إن المانوية وإن مُسحت بمسحة المسيحية فإنها لا تخرج عن كونها مذهباً في المزدية إلهها هو «مزدا» وكتابها المقدس هو «الزند» فالمانوي، كالزردشتي، الزند له مقدس كتاب ومثله هو يعتبره سجلاً منزلاً لدين اللّه، فإن راهب حرّان لم يجيء داعياً إلا إلى مذهب طبع الزردشتية فيه بالطابع المسيحي وللدين القديم هو لم يهجر وإن كان قد مزج الزردشتية بالبراهمانية الأولى مزجاً كان السبب الذي طبع المانوية بالنظرة التشاؤمية إلى الوجود في نفس الآن الذي طبعتها فيه المسيحية بنظرة استبشارية تقول بإمكان الخلاص... ومن ثم فالمانوية التي رميت بأنها دين يرمي الطبيعة بالتخبّط والفوضى ويعود بمنشئها إلى هوج المصادفة إنما مانوية متأخرة وعن المانوية الصحيحة أو الأولى جد بعيدة، فالمانوية المتأخرة قد حُرفت وحُورت وفي المسيحية أُذيبت لحظة قيل إنها قالت إن «المسيح» هو إله الخير الذي ضرب المثل الأعلى على خيريته بتضحيته نفسه للفداء.. أما الصحيحة فلم تخرج عما قد تقدّم ذكره من شعائر وشرائع وتعاليم لا تمثّل في حقيقتها، قبل أن تتطور إلى دين، إلا مذهباً في الدين المزدي القائم على الاعتراف بزردشت نبياً ورسولاً.

ولكن! بينما نرى المانوية تقوم على الاعتراف بنبوة زردشت نرى الزردشتية لا تبالي باعتراف المانوية بالنبوة لزردشت وإنما تتراجع عن الاعتراف برسالة «ماني»... عن المانوية ترغب الزردشتية لا فحسب لما تجده فيها من تعارض والطبيعة البشرية على هذه الهضبة ولا لما تعتبره فيها من سلبية تتعارض وطبيعتها الإيجابية وإنما لما تراه فيها أيضاً من عقيدة تتعارض وعقيدته الجوهرية القائلة بزردشت، الرسول الذي به أسري إلى السماء، إنه خاتم الأنبياء لأنه النبي الذي جاء في آخر الزمان!..

كلا!.. لا يُرغِّب الزردشتية أو يقنعها في المانوية من المانوية همس راح نحوها يتجه وفي مسمعها يُدوي؛ أن، كزردشت «ماني» نبي وبنبوة زردشت «ماني» معترف وأن على صدق نبوته جاءت العلائم وأتت الأدلة.. فمن أدلة نبوته أن أمه قد أتتها البشائر وهي به حامل وأن ماني قد نطق بالحكمة وله من العمر اثنتا عشرة سنة وأنه قد أتاه الوحي من ملك جنان «النور» وله من العمر أربع وعشرون سنة خاطبه قائلاً:

«عليك السلام ماني مني ومن الرب الذي أرسلني إليك واختارك لرسالته وقد أمرك أن تدعو بحقك فتبشر بشرى الحق من قبلك... فقد حان لك أن تخرج فتنادي بأمرك».

ومن علائم رسالته أن كان على كتفيه مثل السراجين من نور، السبب الذي آمن به سابور بن أردشير غداة دخل عليه «ماني» فلما رأى ذلك عظّمه وأدرك أنه حقاً رسول له ما لزردشت من صفة الرسالة الإلهية!..

كلا، لا يُرغِّب الزردشتية في المانوية من المانوية إيداعها في الوعي الزمني عن «ماني» هذه العقائد بل لها تنفي ولها تعاون، على نفيها نبوة زردشت، أصوات أخرى تنساب من أرجاء صرح ذلك الدين الآخر الذي يمتد تياره جارفاً مجترفاً يحمل اسم المسيحية ومحوره نبي آخر جاء بعد زردشت واسمه عيسى وبنبوته أيضاً المانوية تعترف..

مشكلة تُجابه المانوية وتعترض لها مد ـ تجاهها أطرق الفقه المانوي طارقاً مطارق التفكير وهدفه ينحصر في تثبيت نبوة «ماني»، أولاً، أمام المد الزردشتي القديم وبالتالي أمام المد المسيحي الجديد... وأسعفته مطارق التفكير ببدعة رأى فيها رداً شافياً للزردشتية النافية إلا أن هناك نبياً يأتي بعد زردشت وفي نفس الآن جواباً مقنعاً للمسيحية فيما قد جعلت الإيمان بعيسى يتوقف على الإيمان بماني...

ومقتنعاً ببدعته هبّ الفقه المانوي وأرسل من داخل صرحه صوته متئداً رزيناً رناناً يُلقي في المسمع الزمني نغمة ما لامست شغاف القلب إلا ورجعتها سويداؤه أصداء وإلا لتستقر في الوعي الديني الاستقرار الذي به طلعت على دنيا الدين:

عقيدة النبي المنتظر والرسول الذي به قد بشّر عيسى

بماني، حفّ للدين المانوي فقهاء إلينا تحمّل أصواتهم أصوات التُبّع هذه البدعة التي أودعت في وعي التاريخ الديني لا فحسب بأن «ماني» رسول جاء مصدّقاً بمن جاء قبله من «الأنبياء» و«الرسل»، ولما بين أيديهم أو بالأحرى لما ينسب إليهم من كتب مصادقاً وبما تحتويه هذه الكتب مصدقاً ولكن أمام مد للزردشتية جارف وأمام مدّ للمسيحية يمتد غامراً المانوية ولها مجترفاً كان لا بدّ أن تستند نبوة «ماني» على مسند يأتي من مادة هذا المدّ الجارف، ومن ثم كان أن انطلق من الأرجاء المانوية الدوي بأن:

ماني إنما رسول تستدير رسالته على أسس التبشير اليسوعي به، فيه قد بشّر «عيسى» وأنه: «بار قليط» أو: بشرى عيسى!

صيحة أطلقها الفقه المانوي عن «ماني» دفاعاً وذوداً وفرض على التُبّع الاعتراف بها بل ليدعم هذا الاعتراف صاغها صيغة أضافها إلى صلواته فهو إذ يهوي ساجداً فليس إلا ليختتم صلاته بالتحية والسلام على هذا النبي قائلاً: «مبارك هادينا البار قليط، رسول النور».

هكذا في مسمع الزمن أودعت هذه البدعة الغريبة عن المسيحية والدخيلة على المسيحية والتي، للسبب، أولتها المسيحية حينذاك اللامبالاة فعن المسيحية قد غفا ما ستتركه هذه البدعة من خطير أثر ومن ثم لم تعرها وقتذاك الاهتمام ـ كما عرفتها الزردشتية بدعة فازدادت للمانوية رفضاً وعنها إعراضاً، ولكن!. لئن راحت هذه البدعة متهافتة متخافتة تذوب في مصب الأجيال فليس إلا لترن في الوعي الزمني نغماً يبعثه تغني المانوية بها إلى حيث راحت المانوية ريح النوى وانساب لها أتباع ينشرون هذه العقيدة في أرجاء من الشرق القديم ونواحٍ من شبه الجزيرة العربية، فقد أحال إلى عقيدة ترديدهم لهذه البدعة وكعقيدة ظلت في الوعي الزمني عالقة كذكرى لم تغب بمغيب «ماني» وعليها لم يسحب الزمن سحب النسيان التي سحبها على «ماني» فقد ظلت في آفاق التفكير الديني الجماعي تهمهم نغماً شجياً لا يذكر إلا التبشير اليسوعي بـ «بار قليط» ولا يردد إلا أن عيسى قد بشّر برسولٍ من بعده يأتي!

في أرجاء من النفس البشرية تحوّلت هذه البدعة إلى عقيدة فقد ظلّت سائدة ناحية كبرى من التفكير الديني الجماعي بينما إلى الانغمار في أديان أخرى فالنسيان كانت تسير المانوية... فلقد سارت بعد أن بلغت على هذه الهضبة السمت الذي رفعها إليه «هرمز» غداة كان لهذه الهضبة عاهلاً وغداة «بماني» شغف منه الوجدان فاعتنق مذهبه ديناً بسببه تحولت المانوية من مذهب إلى دين.. وكدين، لفترة سادت عقيدته هذه الهضبة بينما كانت الدولة،

الدولة الساسانية ودينها الرسمي دين زردشت.. ودين زردشت إنما دين قصر اعترافه بالرسالة والنبوة على زردشت... كنبي، لأنه جاء في آخر الزمان هو خاتم الأنبياء.

ومن ثم فما خلف بهرام الأول هرمز إلا وقام معبّراً عن الشعور المزدي واستجابة للرأي الموبذاني قُتل «ماني» وشرّد الأتباع..

ولكن... لئن قتل «ماني» وشرّد له أتباع، يعظّم عامتهم يوم الأحد وتعظّم خاصتهم يوم الاثنين، وبدأت في لجة الماضي تذوب المانوية فإن تعاليم ماني لم تمت بما كان لدينه من نظام يقوم على:

الإمامة

«الإمامة» في الدين المانوي نظام والنظام في الدين المانوي يقوم على الإمامة فلقد كان لهذا الدين أئمة يتعاقبون وكان مركز «الإمامة» أولاً في بابل قبل أن يتحول إلى سمرقند... وطبيعي كان مركز الإمام لا يحتله إلاّ من كان قد استحوذ على أرفع مرتبة في الدين المانوي وهذه مرتبة وقف هي على الملتزم بكل الواجبات التي يفرضها هذا الدين من زهد وتفضيل الفقر المادي على الترف التزاماً كان يطلق عليه بسببه لقب **«الصّديق»**.

كان الإمام دائماً هو «الصديق»!

من ثم فلئن كانت هذه الهضبة قد رفضت «ماني» ولفظت له أتباع فإن للمانوية كان قد رسخ بالإمامة وبالإمام الصديق نظام بسببه كثر في غير هذه الهضبة لها أتباع بهم انتشرت كدين كتابه الـ «زندافستا» ونبيّه «ماني» مَنْ أمسى لديهم نعته الرسمي «بُشْرَى عيسى»...

وهكذا انتشر في خارج أرضه هذا الدين الحامل اسم المجوسية بأتباع يحملون هذه العقائد وينفثونها في أرجاء دنيا العصر الهلليني الروماني وينتشرون تحت اسم المجوس.. وهكذا في أرجاء الشرق القديم راح يُخضّب اللون من هذه المعتقدات والعقائد للتفكير البشري نواحٍ اجترافها من بعد للمسيحية تيار وللإسلام سلطان وفيهما من بعد عصارة ذاب فعلى العقليةِ البشرية لم يتخافت تماماً من هذا الدين الظلال منه التأثير لم يمد حتى القرن الثالث عشر للميلاد... من القرن الثالث إلى القرن الثالث عشر الميلادي عاشت المانوية في خارج أرضها فأرضها للزردشتية دين صاحب طويلاً مدار الأيام وبه سارت الأجيال فشهد مطلع المانوية ونفيها كما شهد كأثر لها، في نهاية القرن الخامس الميلادي، على هذه الهضبة مذهباً جديداً باسم:

المذهب المزدكي

بـ «مزدك»، ومزدك لماني تابع، انبثق من نيسابور حوالي سنة ٤٨٧ م، هذا المذهب

ليعكس، النظرة المانوية في الطبيعة وما بعد الطبيعة... كأثر لهذه النظرة كان اتجاه هذا المذهب الديني نفس الاتجاه المانوي حتى ليعتبر امتداداً للمانوية فقد نادى «مزدك» بالزهد وكانت تعاليمه ترجيع أصداء للمانوية.. ولكن في زمن اضطربت فيه ومنه الأحوال وغيّمت في آفاقه غيوم الأثرة والاستئثار طلع مزدك وقد راعه التطاحن والقتال المستعر بين طوائف البشرية على ما يفنى ولا يبقى فأراد اجتثاث الداء... ومن ثم كان انحراف «مزدك» عن «ماني»، في آرائه الاجتماعية واصطباغ هذه الآراء بصبغة محض دينية تميزت بها تعاليمه التي طلع بها أول نداء على هذه الهضبة ينادي بالاشتراكية.

ولكن!.. هذه الاشتراكية التي انطلق من حنجرة «مزدك» عنها النداء إنما قد أُسيء من فهمها المعنى بأتباع استهواهم منها الظاهر دون الجوهر فحسبوها إطلاقاً للغرائز وتحللاً من أبسط قواعد الأخلاق ومن ثم ردّدت حناجرهم النداء باشتراكية مطلقة ما لبثت أن انطلقت محمومة لا تلوي على شيء واندلعت لاهبة فأحرقت الوثائق التي سجّلت الأنساب وتحوّلت معترمة تنادي بالمساواة بين الناس.. وأُلغيت الملكية وجُعل المال بين الناس مشاعاً وهذه هي الناحية الاجتماعية التي تهمّنا من هذا المذهب الذي تتابع إلى الدخول فيه أتباع استغلوا هذا المبدأ استغلالاً عجيباً، فقد طبقوه على كل شيء ورأوا في كل أمر وشيء وصلة مشاعاً ومن ثم تحوّلت بهم الناحية الخلقية في هذا المذهب إلى إباحية محضة حتى بالمذهب هوى من توّهم أن هذا المذهب كفيل بإطلاق الهوى!

من ثم فالواجب ينادينا بالتفرقة بين مزدكية مزدك ومزدكية المزدكيين.. فالأولى خلية من تلك الأخلاط التي نراها في الأخرى قد اختلطت بالتعاليم والتي من اللون الاشتراكي البحت والصحيح قد حوّلتها غرائز الأتباع إلى لون إباحي بحت!

أجل... جنح المزدكيون وأساءوا فهم هذه الاشتراكية فأرادوا إزالة جميع الفروق بين الطبقات ومحو الاختصاصات بين سائر أفراد المجتمع، ومن ثم كان أن تحوّلت المزدكية إلى اللون الإباحي الذي تهاوت به لها أصول حتى دعت الحاجة إلى استئصال جذورها.. ورغم ذلك فلشأفتها لم تستأصل المذبحة التي دبّرها «قُباذ»، سنة ٥٢٣ م، فقد عاشت طويلاً حتى إلى ما بعد الإسلام قبل أن تروح بها ريح الردى طاوياً لها تُبَع في زمن انتشر فيه لحاملي «الزند» تُبَع من مانوية تعرف تحت اسم المجوس، ومن زردشتية تعرف تحت اسم الزنادقة!

وبهذين الدينين، دين «ماني» ودين «زردشت» وما يضعه هذان الدينان من العقائد والفِكَر والمعتقدات المتخذة محوراً نبياً هو «خاتم الأنبياء» ونبياً هو «بُشْرى عيسى»، زحف الظل الإيراني السياسي إلى خارج أرضه وإلى حيث امتدّ هذا الظل السياسي امتدت أطياف من

هذه الألوان فخضّب التفكير منها للشرق القديم تفكير... حتى شبه الجزيرة العربية وحتى أم القرى قبل وقبيل الإسلام امتد، بالظل السياسي الإيراني المظل «الحيرة»، الظل المانوي والظل المزدي الزردشتي[1] بل وفي أرجاء من شبه الجزيرة العربية لها أثرها في التاريخ الديني توغلاً فكما يحدثنا للإسلام تاريخ نرى أن الزندقة قد تفشّت، قبيل الإسلام، في قريش وأن المجوسية قد خضّبت «تميم» حيث منها طلع أبو بكر أول الخلفاء الحامل لقب «الصدِّيق»...

وهنا!.. هنا يجب أن نتنبّه إلى نقطة خطيرة لها أهميتها في تاريخ التفكير الديني إذ تطالعنا باللغة الفارسية كلمة «زندق» ونفهمها كلمة في الأصل كانت من معانيها التابع «الزند»، تُطلق وأنها على تابع «الزند» ومن ثم نفهم أن الزندقة إنما نعت لا يعني قط الحيدة ولا يُرادف معنى المروق وأن استعماله في معنى الإلحاد على العموم إنما هو معنى حدث بعد، فليس النعت إلا نعتاً لأتباع وأهل كتاب مقدس بل «منزل» يحمل اسم «الزند» وليست الزندقة إلا تسمية كانت لأتباع الزند!..

أجل... بهذه الألوان من العقائد والفِكَر خضب للشرق القديم تفكير بزحف الظل السياسي الإيراني الذي ظلت المزدية الزردشتية له ديناً رسمياً وقف في مهب العواصف سيداً لكل ما قد عرفته هذه الهضبة من اتجاهات دينية ومذاهب.. وسيداً سائداً ظلّ الدين الزردشتي يشهد قيام دين بعد دين، كأنه قد رسخ على صفحة الزمن وكأنه لا يرى لشمسه من النفس البشرية غروباً، فالفترة إنما الفترة التي سجّل فيها الزمن على هذه الهضبة:

تلاشي المذاهب طراً ورسوخ الدين الزردشتي وتغلغله بعقائده حتى الاحتلال السياسي الإسلامي

منذ أشرقت على صفحة التاريخ السياسي الدولة الساسانية والدين الزردشتي شمس تنير أرجاء التفكير الديني لهذه الهضبة وتنسكب أشعتها سيولاً تجترف إليها القلب وتكتسح ما في هذا القلب كان قد علق من أوهام ليل الإنسانية ومما جاء بعد هذه الأوهام من مذهب يحمل اسم مزدك ودين محوره «بشرى عيسى» حتى بلغت هذه الشمس سمتاً تلاشت في ضوئها الساطع المذاهب طراً ولبثت في هذا السمت ردحاً كأنما قد وقفت على مدار الأيام تتحدى دورة الزمان ولكن.. يد الزمن التي كانت قد سطرت لهذا الدين، بمشرق هذه الأسرة، شروقاً كانت قد سطرت له، بمغرب هذه الأسرة، غروباً...

(١) انظر الدين في شبه الجزيرة العربية، من هذه السلسلة..

ولكن... لئن ظلّ هذا الدين القائم على أسس النبوة والرسالة الزردشتية ومحوره الإيمان بإله أوحد هو رب العرش وبرسول إلى السماء أسري جسداً وكان نبي آخر الزمان، قائماً والأيام تسير بشمس الأسرة الساسانية التي استهلت بساسان حكمها في فجر القرن الثالث الميلادي ٢٢٦ ب.م، فإن بمن يحمل أيضاً اسم ساسان كانت إلى مغربها في ضحى القرن السابع الميلادي، ٦٤١ ب.م، تسير هذه الشمس ليسجل الزمن غروب هذا الدين ففي هذه السنة هوى الإسلام بسيفه على هذه الهضبة فاتحاً فأدرك الدولة الساسانية الزردشتية وأقام دولة محمدية هي الدولة السامانية وحقق الهدف السياسي الذي كان إليه قد رمى محمد بن عبد الله..

وتحت السيف الهاوي تفرّق الزردشتيون فرقاً لم يطمئن منهم القلب إلى معاملته لهم معاملة «أهل كتاب» فأمامه انتثروا في انقسام إلى فئات ثلاث:

فئة ألجأها الاستعمار السياسي لأرضها، إلى الالتجاء إلى أرض غيرها فولّت وجهها شطر تلك السفوح حيث فيها استقرت ولكن ليستقر معها في غير استقرار دينها فقد تبدّلت مبادئه ومنه قد تصدّع الجوهر كما بالواقع يطالعنا لذلك السلف الخلف الذي نعرفه في الهند الحاضرة بطائفة الـ «بارسي»..

وفئة لم تأبه لهذا الاستعمار السياسي ما دام في حقيقته للعقيدة الدينية لم يتناول ولا يفرض عليها، إزاء تمسكها بالاعتراف بالنبوة والرسالة لزردشت، فرضاً إلا الجزية... هذه الفئة ظلّت تعيش بعد الفتح الإسلامي على هذه الهضبة حيث استمرّت المعابد القائمة تحت اسم «بيوت النار» قائمة تشتعل فيها النيران رمزاً «للنور المحتجب» وتذكرة بالصلاة، خلال القرون الثلاثة الأولى التي أعقبت هذا الفتح، من هذا السلف ما زالت قلّة تعيش حتى اليوم في «كرمان» وفي «يزد»..

وفئة رأت أن مناصب الدولة قد غدت وقفاً على الفاتحين وأنها قد انقسمت أمام من انخرط في سلك هذا الدين الجديد.. وتلفتت فرأت أن الإسلام لم يأتها بجديد! لها بدا إنما الجوهر من الدين المزدي الجوهر من الإسلام، فالإله الخير من بلغتها تناديه «مزدا»، إنما نفسه الذي تناديه العرب بلغتها «الله».

وعلى عقائدها استدارت هذه الفئة فتراءى لها أن للإسلام عقائد تبدو كأنها رجع الصدى لما لديها من عقائد فإن البعث الجسدي، البعث الجسدي!.. والحساب الحساب!.. والصراط الصراط، والثواب والعقاب الثواب والعقاب! فالجحيم بظلماته الجحيم، والبردوس ـ والفاء تقلب في الفارسية عادة بباء ـ الفردوس، كما أن الفردوس في الإسلام أعلى من الجنة مطلباً ونهاية النعيم!

وإلى نبيها اتجهت هذه الفئة فرأت أن عن النبوة والرسالة للإسلام عقيدة هي نفس ما لدينها عن الرسالة والنبوة من عقيدة فكزردشت محمد!

رسول به أسرى «الروح» إلى السماء ورسول به إلى السماء أسرى «الروح» ـ ورسول تنزّل عليه كتاب تحوي دفتاه آياً هي لكلام «رب العرش» ترديد، ورسول عليه تنزّل كتاب أيضاً تحوي دفتاه أياً كانت هي لكلام «رب العرش» ترديد ونبي في آخر الزمان جاء ونبي في آخر الزمان جاء، كأن في طيف محمد يتراءى زردشت!.. رأت هذه الفئة أن العقيدة عن الزمن المضروب لنهاية العالم نفس ما تردده عن محمد الشفاه الدخيلة فامتزج لديها بمحمد زردشت!

بمحمد امتزج، لدى هذه الفئة، زردشت ولها تبدّى أن الإيمان الظاهري بمحمد لا ينقض الإيمان الحقيقي بزردشت وأن اعتناق الإسلام لا يُعد خروجاً جوهرياً على المزدية فكل، من محمد وزردشت، كما يقول لكل منهما دين، قد جاء إلى الصراط المستقيم هادياً في عالم ساورت للإسلام والمزدية عنه النظرة، فنفس الطبيعة الثنائية نفس الطبيعة الثنائية، فللدينين العالم إنما ساحة مستعر عليها سعير النضال بين حزب الإلّه وحزب الشيطان حتى «يوم البعث»!

كل ما تجده هذه الفئة إنما تجده لدى الإسلام، لا فارق لها تبدّى إلا في الأسماء والمسميات، لا فارق في الدين ولا فوارق في عقائد الدينين إلا الاسم وإلاّ ما يعود عليها في أمور المعاش بالمشكلات فأعلنت اعتناقها ديناً، الإسلام!.

وهكذا... هكذا غاب في أتباع القرآن للزند أتباع وطوي كتاب في منتشر كتاب، وهكذا غاب الزردشتيون في المحمديين وهكذا غيّب محمد ظلّ زردشت..

في «رسول» من حرارة الأنفاس منه ما زالت ملتهبة للوجدان أجواء غاب رسول باعدت بينه والعهد عهيد عهود... ومن حول المقام المرمري القائم في «ناكشي رستم» تهب للزمن أنفاس تتردد في صدر التاريخ هامسة:

إن هنا يثوي زردشت ومعه ثاوية أصول دين منزلته في سجل الديانات كانت منزلاً.. هنا يغيب «رسول» ذكرى رسالته مطوية في أحضان بلخ وآذربيجان وذكرى الإسراء إلى السماء بذكراه مصحوبة..

وهنا.. هنا نُسي «نبي»، لاح لأتباعه أن سحر الزمن مغرب فآمنوا به نبي آخر الزمان، أمام ذكرى «نبي» يؤمن حتى اليوم له أتباع بأنه نبي آخر الزمان.. وهنا، هنا غفا في جفن الماضي رسول حرّم الغزو والسلب وسكتت خفقات قلب دينٍ نبضاته الخير لسيف نشر ديناً يقف حتى اليوم عالمياً!

الدين في مصر
والعصور القديمة وعند العبريين

«نحو آفاق أوسع» لأبكار السقاف في أجزائه الأربعة صودر عام ١٩٦٢ لجرأته العقلية والعلمية ، وظلت كتاباتها مطمورة كالكنوز تحت ركام النسيان والتجاهل ، إلا أن شقيقتها الفنانة «ضياء السقاف» ظلت حارسة لهذا الكنز محافظة عليه ، حتى يخرج إلى النور ، كما أرادت له صاحبته ، وكما تمنت أن يكون بستاناً عظيماً يقطف منه العقل الإنساني . وسيذهل العقل العربي عندما يطلع على كتابات هذه السيدة المنسية .

إننا بنشرنا كتابات أبكار السقاف نحاول أن نضع أفكارها كما هي ، حيث حرية الإنسان والبحث عن العقل في عالم متماوج ومتغير ، في عالم تحده أمراض التكفير والقتل المجاني والموت العبثي .

تتألف سلسلة «نحو آفاق أوسع» من أربعة أجزاء هي :

- الدين في مصر والعصور القديمة وعند العبريين
- الدين في الهند والصين وإيران
- الدين عند الإغريق والرومان والمسيحيين
- الدين في شبه الجزيرة العربية